دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

الأسس الثورية

للقومية العربية

بقلم
احمد الشيباني

BOBST LIBRARY
3 1142 02839 8322

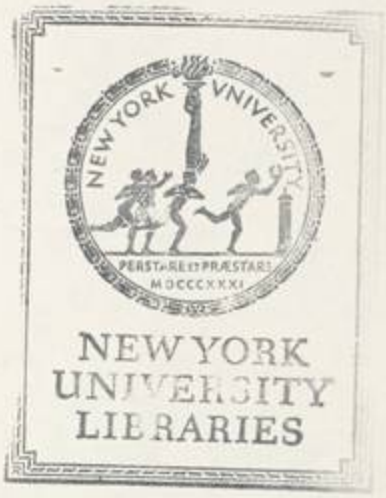

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

/al-Usus al-thawrawiyah
lil-Qawmiyah al-arabiyah/

الأسس الثورية

للقومية العربية

al-Shibani, Ahmad

بقلم

احمد الشيباني

N.Y.U. LIBRARIES

Near East
DS
63
.7
.S5
c.1

حقوق الترجمة والطبع والنشر والاقتباس
محفوظة
لدار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - سورية

الاهداء

الى الروح العربية الاصيلة التي توجـــد الجيش العربي في الاقليمين السوري والمصري .

الى الروح العربية الواعية المتجسدة في القائدين العظيمين : المواطن العربي الاول الرئيس شكري القوتلي ، والثائر العربي الاول جمال عبد الناصر .

نهدي كتابنا شكراً وعرفاناً .

المقدمة

إنه لمن دواعي سروري وفخري ان يصدر كتابي هذا والقومية العربية قد حققت أول أهدافها في خلق الجمهورية العربية المتحدة .

إن هذا الكتاب يمثل جهداً متواضعاً ومحاولة مقل لتخطيط ايدولوجية واضحة للثورة التي تخوض غمارها القومية العربية في سبيل تحرر العرب ووحدتهم .

لقد كتبت هذا الكتاب وأنا أظن ان ميلاد الجمهورية العربية المتحدة وتحققها لا يزالان عزيزي المنال بعيدي المجال ، لذلك يلمس القارىء الكريم في الفصلين الأولين من كتابي انني كنت اتحدث عن الثوريين العرب في كل من الاقليمين المصري والسوري معتبرا هذين الاقليمين دولتين كاملتي السيادة والاستقلال ، غير ان ما جاء في هذين الفصلين لا يزال كما ارى ذا فائدة وجديرا بمطالعة القارىء الكريم .

لقد تحدثت في الصفحة ٦٢ و ٦٣ من كتابي هذا عن ضرورة بقاء الحياة الحزبية في سورية . ولقد كان حديثي هذا سابقاً لقيام الجمهورية العربية المتحدة ، ومن ثم تحدثت عقب قيام الجمهورية العربية المتحدة عن ضرورة انصهار الاحزاب في بوتقة الاتحاد القومي ، وسبب هذا التناقض في حديثي لا يعود أبدا الى الخوف أو الرهبة بل انما يعود أولاً وأخيراً الى الأسباب التي بنيتها في موضع آخر من هذا الكتاب وهذه الاسباب تتلخص بضرورة مركزة المسؤولية في هذه المرحلة التي تمر بها ثورتنا المباركة ، شريطة ان تعود الحياة الحزبية عقب انتهاء مرحلة تنسيق القوى الثورية في كل من الاقليمين ولا أعتقد بان هذه المرحلة تستغرق اكثر من دورة تشريعية

واحدة تمتد من أربع الى خمس سنوات ، وذلك لأن الاتحاد القومي كما أراه يمثل فترة الانتقال من فوضى الحياة الحزبية الى تنظيم مثل هذه الحياة .

لقد سعيت في كتابي هذا ان اقول ما أراه حقاً وأن أدون ما أؤمن به من عقائد كقومي عربي يدين بالانسانية ، وواجب الكاتب كما أعتقد هو أن يقول ما يعتقد لا أن يحمل الناس على تبني معتقداته والايمان بها ، فالانسان معرض في كل خطوة من خطواته للخطأ ، والخطأ والاخطاء هي الحافز الأول والأخير للانسان الحي على الدراسة والعلم والعمل .

دمشق في ١١ شباط ١٩٥٨

« أحمد الشيباني »

الأسس الثورية
للقومية العربية

الفصل الاول

في مفهوم الثورة

١ — ما هي الثورة ؟

الثورة هي انفجار اجتماعي ينسف نظاماً كاملاً بجميع مايدعمه من مؤسسات وهيئات وأحزاب وتقاليد وقيم ، وذلك لعجز ذاك النظام — أو بالأحرى عجز القائمين عليه عن التطور فالتبدل ، لملاقاة وتنظيم فاشباع الحاجات المادية والروحية لجمهرة اكثرية شعبية تعي ذاتها ، وتعزم على ممارسة وجودها كقوة انسانية فاعلة في وطنها وقومها ومن ثم في العالم والحضارة الانسانية .

والثورة تهب عواصفها وتندلع نيرانها نتيجة اختمار طويل لعوامل اقتصادية فاجتماعية فسياسية ، وتغذي هذه العوامل الرغبة الأزلية الابدية في نفس الانسان في التطور والتقدم وهذه العوامل الآنفة الذكر تخلق مشاكل اجتماعية جديدة تطلب وبالحاح حلولاً لها ، ولما كان النظام السابق وجوده وجود تلك المشاكل غريباً عن المشكلات المستجدة ، أو بالاحرى عاجزاً عن تقديم حلول لها ، ولما كان اول حل جوهري لتلك المشكلات هو زوال النظام القائم بالذات ، لذلك تتطور الرغبة في الاصلاح والتقدم في النفس البشرية فتصبح ارادة عامة تنفذ فعلاً جماهيريا يكتسح النظام القائم ويهدم مؤسساته ويقتلع جذوره التي كانت قد ضربت عميقاً عميقاً في تربة المجتمع .

والثورات نوعان ، نوع يطبعه قائد او زعيم بطابعه ونوع آخر لا زعيم له او قائد وبالتالي لا طابع معين وواضح له .

آ ــ النوع الاول :

أما النوع الاول فهو يمثل الثورة العاقلة المعقولة المضمونة من الرجعة والانتكاسات، اذ ان الزعيم أو القائد ، أفرداً كان أم جماعة يكون ويكونون أثناء فترة الاختمار ونمو الرغبة في الثورة قد حضروا المفاهيم والبرامج التي تتحكم بدفة سفينة الثورة وذلك كي يجنب أو يجنبوا السفينة عواصف التطرف والفوضى والعدمية وكي يسيروا سفينة الثورة وفق الخط المرسوم لسيرها دون ما انحراف حتى تصل الثورة الى مقاصدها آمنة سالمة وبأقل قدر ممكن من الخسائر الاجتماعية ، التي لا مندوحة عن دفعها في حال قيام الثورات.

وخير مثال لهذا النوع من الثورات الثورة الروسية فلولا شخص لينين ولولا وجود هيئة منظمة تعي أهدافها وتعرف بكل دقة أغراضها ومقاصدها لاصاب الثورة الروسية ما أصاب الثورة الفرنسية من انتكاس ورجعة ولذلك فان الثورة الروسية هي ثورة لينينية اكثر منها ماركسية ولينين نفسه يقر بهذا ويعترف حينما يقول :

« اننا لا نعتبر الماركسية أمراً كاملاً منزهاً ، بل على العكس من ذلك فما هي الا حجر الزاوية في ذلك العلم الاجتماعي الذي يتوجب على الاشتراكيين أن يكيفوه في كل اتجاه ، حتى لا يتخلفوا عن سير الحياة واعتقد أن واجب الاشتراكيين الروس بوجه خاص ، ان يقوموا بدراسة النظرية الماركسية دراسة مستقلة لانها نظرية عامة **يمكن أن تطبق في انجلترا مثلاً بطريقة تختلف عنها في فرنسا وتختلف في فرنسا عنها في المانيا ومختلفة في المانيا عنها في روسية .**»

مما ورد يفهم وبوضوح أن الثورة البناءة هي تلك القادرة على التكيف اقليمياً في حقول الاقتصاد والاجتماع والسياسة وذلك حين تخطيطها لنظام جديد يقوم على أنقاض النظام الذي قوضته الثورة .

ومن أبرز حسنات هذا النوع من الثورات ـ النوع الأول ـ أن منطق الثورة هو الذي يفرض نفسه على الجماهير ولا يسمح أبداً للجماهير بالشذوذ عن قواعده ومراميه ، اذ أن هذا المنطق المتدفق من ايدولوجية واضحة المرامي واضحة الاهداف يلجم رغائب الجماهير بلجام فولاذي ويسعى جاهداً لترويض نزوات الجمهور ويكافح مستميتاً في سبيل

ابقاء جذوة الارادة العامة للشعب في التقدم والبناء متقدة متأججة ، وذلك بغية ضرب الرجعية والانتهازية والفوضى ومن ثم البناء .

والثورة ذات الزعيم أو القائد ذي الايدولوجية الواضحة حركة دينا ميكية ، وقوة هائلة تجر الجماهير وراءها وتمارس قيادتها ولا تنزل أبداً الى منطق الجمهور بل ترفع الجمهور الى مستوى منطقها ، كما وأنهـــا لا تقبل أبداً ان تسلم زمام القيادة للجماهير مهما كانت الاسباب او المصاعب التي تكتنف طريقها ، وذلك كله خشية التضليل فالانحراف فهي بهذا تؤمن بأن القائد أوالقيادة هي بمثابةروح الثورة والمنبع الذي يغذي جميع روافدها ، وان التنازل عن دور القيادة هو بمثابة خنق مجرم لروح الثورة وتسليم للفوضى ومن ثم استسلام للرجعية .

وهذا النوع من الثورات يمثل زواجاً رائعـــاً وموفقاً بجريه قائد أو زعيم بين ايدولوجية مكتملة ناضجة ورغبة شعبية عميقة في تبديل نظام فاسد بواسطة الثورة. ومثل هذه الثورة نصيبها النصر الاكيد وذلك لانها تعرف اين تقصد وماذا تريد .

ب ــ النوع الثاني :

أما النوع الثاني من الثورات - وهو النوع الذي لا زعيم له او قائد - فان اسباب الثورات من هذا النوع هي ذات اسباب الثورات من النوع الاول ، غير أن نتائج مثل هذه الثورات غير مأمونة وعواقبها خطرة غير مضمونة ، وهذه العواقب خطرة على أهداف الثورة وداهمة الخطر على الثورة ذاتها ، وذلك لان افتقار ثورة من هذا النوع الى قيادة واعية يجعلها بالتالي مفتقرة الى ايدولوجية مكتملة ناضجة واضحة ، محدودة الهدف معروفة المقاصدوهذا الامر مما يسلم الثورة بكل ماتملكه من طاقة هائلة وجبروت واندفاع الى رغائب شعبية غامضة ، ومنطق فج بعيد كل البعد عن الدراسة والعبرة والخبرة وعندئذ تأخذ الثورة بالتخبط ويأخذ خط سيرها بالتذبذب والتأرجح ، آناً ينحرف بها نحو أقصى اليسار وحيناً يجرفها الى اقصى اليمين ، يوماً تبتدع قيماً تقدسها وتنزلها منزلة العبادة وآخر تثور على القيم التي ابتدعتها فتحطمها وتدوسها كما داست على سابق قيم كانت قد هدمت النظام الذي انبثقت عنه .

أما الزعماء الذين ترتجلهم ثورة كهذه ، فانهم قلما يكونون زعماء ينسجمون وروح الثورة الاصيلة التي التهبت بين جوانح الشعب وأتت على نظام كان حتى قيام الثورة ثابت البنيان مرهوب الجانب . ومثل هؤلاء الزعماء الذين ترتجلهم الثورة لا يملكون من الزعامة سوى مظهرها وهم ورغبة منهم في الاحتفاظ بمظهر الزعامة يركضون لاهثين وراء الجماهير ، وبدلاً من أن يقودوا الجماهير ويوجهوها يتركون للجماهير مهمة قيادتهم وتوجيههم ، وبدلاً من أن يفعلوا في عواطف الجماهير ويروضوها ، نراهم ينفعلون وعواطف الجماهير ونزواتها ، أما ابرز صفات هؤلاء الزعماء فهو الجبن والاستسلام ، الاستسلام لرغائب الجماهير والجبن المخزي أمام نزواتها وبهذا تمتد يد الثورة دون ما رادع لتهدم الصالح كما هدمت الطالح ولتعذب الخير بالقسوة ذاتها التي ضربت بها الشر ، وهكذا تتحول الثورة من حيث كونها حركة مثالية بناءة الى صيرورتها حركة انكارية تنكر ما هو كائن وتتنكر الى ما يجب ان يكون .

ولما كانت كل حركة غير فاعلة ايجاباً لابد ان تخمد ، اذ ان استمرار الحركة هو في استمرار فعلها ايجاباً ، اذ أن الفعل الايجابي هو الغذاء الطبيعي للحركة الفاعلة حيث فيه تعيش وفيه توجد وفيه تخلق وتبدع وتنمو لذلك فان مصير ثورة كهذه هو الى الفشل المحتوم وبالتالي الخمود ، اذ أن عدم التركيز في حيوية القوى الثورية على أهداف معينة يوزع هذه القوى ويضعفها ويجعل منها جهوداً مهدورة ان مست سطح المشكلة فانها تعجز حتماً عن الغوص الى أعماقها وتفهم خفاياها وتحضير علاجاتها وحلولها ، وهكذا تختنق الثورة وتموت وتخلي الطريق أمام الرجعة والانتكاس .

وأحسن مثال على ماذكرت هو الثورة الفرنسية ، فالثورة الفرنسية هي دليل مخيف هائل ومحزن على نتائج ثورة قامت دون قائد ونشبت وهي تفتقر الى زعامة جريئة واعية تحتضنها منذ ولادتها حتى اكتمالها .

نعم لقد كان للثورة الفرنسية فلاسفة ومفكرون حضروا لها كجان جاك روسو ومونتيسكيو وفولتير وديدرو ، وكان هناك نظام فاسد وحكم جائر عضوض ، وكانت هناك مظالم وكان هناك طغيان ، غير أن روسو وأضرابه من المفكرين الذين مهدوا

للثورة الفرنسية وضعوا خطوطا عامة كانت بسيس الحاجة الى عقل عملي وقدرة تطبيقية ومهارة وتفاني وطني بعيد عن الاطماع والاهواء والانانية ليصوغ منها نظاماً لدولة أساسه العدل والحرية والكرامة .

لقد وضع اولئك المفكرون حجر الزاوية لايدولوجية رائعة ، غـــير أن الثورة الفرنسية لم تكد ، أو بالأحرى لم تجد القائد او الزعيم الذي كان بمستطاعه أن يقيم على حجر الزاوية ذاك ايدولوجية متكاملة تتناول بالعلاج شؤون المجتمع الفرنسي في أدق دقيقها .

ولذلك فان الشعب الفرنسي عندما هدم الباستيل وقطع عنق الملك وألغى امتيازات الكنيسة والاشراف اعتقد بان الثورة قد حققت أهدافها .

ولما كان تقويض النظام القائم ليس غاية في ذاته بل انما هو وسيلة الى غاية ، اذ ان الغاية الحقيقية لكل ثورة او حركة ثورية هي اقامة نظام جديـــد لايضيق بكرامة الانسان وحريته بل انما ينظم هذه الحرية ويدعم تلك الكرامة ، لذلك توقفت الثورة الفرنسية عقب هدم مؤسسات النظام الملكي ولم تخط خطوة واحدة في طريق بناء مجتمع أفضل ، كما وأن العنف المرير الذي عالجت به الثورة الفرنسية النظـام الملكي استنزف جميع قواها ، وأخذت موجاتها بالارتداد في طريقها الى الخمود والانطفاء ، ولما حاول روبسبير ان يدفع بموجات الثورة الى الأمام من جديد كانت قوى الردة اكبر منه فجرفته وأطاحت برأسه تحت سكين المقصلة . وهكذا عادت الرجعية الى فرنسا لتحمل الى عرش الامبراطورية ديكتاتورية عسكرية طاغية التهمت المباديء الاساسية للثورة الفرنسية وقوضت مثلها العليا وأخيراً اختتمت الملهاة بتتويج الرجعية بعودة آل باربون .

مما ورد يتضح ان كل ثورة تفتقر الى زعامة اصيلة تفتقر حتماً الى ايدولوجية ناضجة تحدد للثورة أهدافهـا وترسم لها خط سيرها وتجنبها التأرجح والشطط . والزعامة في كل مراحل الثورة اكثر من ضرورة ، وأعني بالزعامة تلك الهيئة أو الفرد الذي تلبسه فكرة نيرة وتميزه شخصية جريئة ترفض وفي كل الاحوال الدخول مع الجماهير او الظروف الطارئة ـ أقول الطارئة ـ في مساومات ، ولا تتراجع أو تتوقف أمام ما يسمى بالضرورات الملزمة اذ انها ترى في هذه الضرورات عقبات جديدة في طريقها بالشعب الى

أهدافها فتكنس او تنسف هذه العقبات بالعنف والقوة ذاتها التي كنست او نسفت بها النظام المقوض ، وذلك لان اخلاصها لرسالتها ووعيها لذاتها وتفهمها لاهدافها ومعرفتها بحقائق وجودها ، كل هذه الامور تجعلها ترى في القلق او التوقف القلق ، او الحيرة جبناً وتردداً وبالتالي انهزاماً امام الرجعة واستسلاماً لها

لذلك تذهب العقيدة الثورية بابنائها الأصلاء الى حدود المخاطر والمغامرات واحياناً تجتاز بهم هذه الحدود وتفرض عليهم ان يعيشوا لحظات كلها حرج وكلها خطر ، يترصدهم الموت والاغتيال وتنفث حولهم سموم الخيانات وتفح بالقرب من آذانهم أفاعي الغدر ، وهنا تبلغ الثورة الاصيلة ذرى السمو والرفعة ، اذ ان عليها في هذه اللحظات الحاسمة ان تمتحن امكاناتها ، وعقائدها وتراثها وتقاليدها ، فاذا تمكن رجالاتها من المحافظة على هدوء روعهم وتجنبوا دوامات القلق وسلحوا الحكمة بالشجاعة لا بالمساومة « والضرورات الملزمة » فعندئذ تنتصر الثورة وينتقل الوعي الثوري من القيادة الى الجماهير ، وانتصار الثورة هذا يكون الثمرة الطبيعية لايدولوجية ناضجة ولدت زعامة واعية جريئة أصيلة .

اذن فالثورة المقودة او المتزعمة هي تلك التي يتدفق منطقها من ايدولوجية متكاملة ويخضع عقلها ارادتها لمنطقها الثوري وتلجم ارادتها رغائب قادتها ونزوات الجماهير . ومثل هذه الثورة البناءة تبدأ دائماً في نفوس قادتها وتهب زوابعها أول ماتهب في ذواتهم وعلى ذواتهم وتطهر نيرانها ضمائرهم من شوائب الانانية وأدران الوصولية والطمع ، وترتفع بهم عن جميع الرغائب الحسية والمنافع الشخصية وتجعلهم نساكاً زاهدين متبتلين وتصونهم من جميع صور الاغراء ، وتحفظ عليهم نفوسهم من أن تفسدها السلطة المطلقة فتجنبهم من اساءة استعمال السلطة الجبارة التي تمنحها الثورة لمن يمتشقون الحسام باسمها ، وعندما يتم للقادة ما ذكرت من أمور آنذاك وآنذاك فقط تتدفق سيول الثورة المطهرة الى نفوس الجماهير فتغسلها وتطهرها من الغوغائية والانكارية والفوضوية ، فيبعث في نفوس الجماهير ايمان جديد واهتمام جديد يتجاوزان بالفرد في الجمهور أمور طعامه ولباسه وسكنه الى أمور اكثر سمواً ورفعة وبذلك يعي الفرد في الجمهور دوره الثوري وعياً تاماً كاملاً ويعرف بان المهمة التي فرضها عليه عصره الثوري مهمة شاقة عسيرة فيها البالغ من التقشف والعضوض من الحرمان وان رسالته

الحقيقية هي جهد ونصب ، هي هدم وبناء ، وأن جميع نتائج اعماله ، وثار جهوده قد اوقفها القدر التاريخي على الجيل او الأجيال التي تعقبه .

وهذا الوعي الثوري اذا هيمن على نفوس الشعب وضمائره ، تبرز حينذاك في الشعب فضائل التضحية والسمو والاشراق ، ويصبح شعبا منيعا قوي الشكيمة مرهوب الجانب ، شعبا لا يعرف الشكوى ولا يعرف الانين ولا يعرف التذمر ، بل يعرف امراً واحداً وحيداً ، وهذا الامر يتلخص بأن عليه رسالة يجب ان يؤديها وواجباً يجب ان يؤدي وان الطاقة المختزنة في اجساد ابنائه قد رصدت كل ذرة من قواها على بناء حضارة لا التمتع بلذائذ مدنية .

ج — ضمير الثورة :

قلنا ان منطق الثورة المتدفق من ايدولوجيتها هو الذي يرسم للثورة خط سيرها ويحميها من الانحراف واهدار الجهد وتبذير القوى وتبديدها ، غير انه يتوجب على كل ثورة تريد لنفسها النجاح ولأهدافها التحقيق ان يكون لها بالاضافة الى أيدولوجية ومنطق ضمير يراقب تنفيذ خطى الثورة ويهذب من قسوة المنطق ويلطف من شدة احكامه . ومهمة الضمير في الثورة ، مهمة شاقة عسيرة ، اذ أنها تتعلق بدراسة وتلطيف ردود الافعال التي تحدثها أفعال الثورة في النفس البشرية ، أكانت تلك النفس في المجتمع او الوطن الذي تعيش فيه الثورة او في مجتمع او وطن آخر مجاور له أو يتأثر بأحداثها وافعالها ، ولذلك فان ضمير الثورة يعتبر وبحق الخيط الذي يشد المجتمع الثائر الى بقية المجتمعات في الاوطان الأخرى ، وهو لهذا يكون الرباط الوثيق الذي يربط القومية بالانسانية بعرى لا فكاك لها او انفصام ، وضمير الثورة هو الذي يصون الثورة من ان تصبح ثورة لقومية عدوانية تؤمن بالعرق والعنصر وتجعل قوميتها المركز الرئيسي الذي تنطلق منه كل نشاطاتها وتتولد فيه ولاجلها جميع فعالياتها ، وضمير الثورة هو الذي يعلم قادة الثورة وجماهيرها بانهم حينما يعملون لقوميتهم ووطنهم فانهم بعملهم هذا يعملون للانسانية والعالم ، لذلك يجنب ضمير الثورة قادتها من التآمر على مصائر شعوب ترغب في

الحرية والكرامة وينطلق بالشعب الثائر من حدود وطنه الى عالم الانسانية الفسيح فيدعم كل حركة تحررية ويشجع كل عمل ثوري في أي بلد كان لان الثورة الاصيلة تلتزم امام ضميرها مساندة كل نشاط ينسجم واهدافها وذلك دون النظر الى قوميـة ذاك النشاط ووطنه لان الثورة الاصيلة التي تريد ان تعيش من اجل رسالتها تكون لمباديء رسالتها صفة الشمول ، بكل مالكلمة الشمول من معنى وذلك لان الاهـداف الحقيقية للثورة الشعبية الاصيلة لاتتركز على تحرير قوميتها الثائرة بغية تعبئة قوى هذه القومية لتأسيس امبراطورية استعمارية تستعبد فيها شتى القوميات والاجناس ، اذ ان التجارب المريرة التي شاهدناها في ثورات القوميات الاوروبية كالالمانية والايطالية والفرنسية الخ ... قد دلت نتائج هذه الثورات ، على ان اخطر انحراف قداصيبت به تلك الثورات كان يتمثل في تسلل طبقة معينة الى مراكز القيادة الثورية وثم توجيـه قوى الثورة ونشاطاتها نحو استثمار الطبقات الاخرى واستعمار الشعوب والبلدان الاخرى ، وبذلك تناست ثورات القوميات الاوروبية المبدأ **الاساسي لكل ثورة انسانية اصيلة هذا المبدأ الذي يقول بان حرية كل امة هي جزء من حرية الانسانية جمعاء .**

ضمير الثورة والبرجوازية :

لذلك كله فان الشعب الثوري ينفعل ضميره وجميع الاعمال التحررية في العالم وهذا الواقع يجعل ابناء الطبقة البرجوازية يتساءلون في اعماق نفوسهم عما يدعو قادة الثورة وجماهيرها للانفعال ومساندة حركات تحررية غريبـة عن قوميتهم وبعيدة كل البعد عن بلادهم ، ومن ثم يفتح ابناء الطبقة البرجوازية افواههم مدهوشين مذهولين وذلك عندما يرون قادة الثورة والدولة الثورية تقدم احيانا بل ودائماً على تضحية مصالـــح بلادها ومصالح قوميتها في سبيل نصرة شعب مستعبد يكافح من اجل حريته او امة مستعمرة تناضل من اجل تحريرها السياسي ، ويرى ابناء الطبقة البرجوازية في الاعمـال من هذا النوع الذي يأتيه قادة الثورة او الدولة الثورية جنونا وحماقة وغباء وذلك لان مثل هذه الاعمال لاتجلب على الدولة الثورية سوى عداء المستبد او المستعمر الذي يتحكم بمصائر ذاك الشعب الثائر او الامة المستعمرة المستثمرة .

فأبناء الطبقة البرجوازية مثلا لايستطيعون ان يتفهموا الاسباب التي تدعو ابناء الشعب العربي في سوريا او مصر او السعودية الى مساندة كفاح شعب الهند الصينية ، او شعب اندونيسيا ضد الاستعمار .

وذلك لان في الطبقة البرجوازية ميلاً غريزياً قوياً ورغبة غريزية شديدة في تحويل الثورة القومية من حيث كونها ثورة انسانية الى صيرورتهـــا ثورة قومية مغلقة تخدم اغراض طبقتها وتنفذ مآرب ابنائها هذه المآرب المتجمعة في الاستعمار والاستثمار والاستعباد ، وبذلك يكون ابناء الطبقة البرجوازية أبعدما يكونون عن تفهم ، او بالاحرى الايمان بان للثورة ؛ بالاضافة الى منطق ، ضميراً حياً ينفعل ويتفاعل وجميع الاحداث الثورية خارج نطاق قوميته ووطنه .

لهذا كله يتوجب على قادة الثورة وعلى الدولة الثورية ان تنظر بحذر ويقظة الى نصائح ابناء الطبقة البرجوازية ، هؤلاء الذي يسعرون القيم الاخلاقيـــة للثورة باطنان القطن ويتفهمون التقاليد الثورية العريقة على ضوء مايصدرون من قمح او منسوجات ، ويرون في الاسواق التجارية الميدان الوحيـــد الذي يتوجب على الثورة ان تعيش فيها ومن اجل تأمينها .

انني مرغم قبل ان استرسل في بحث ضمير الثورة ، ان اترك هـــذا الموضوع قليلا لاقرر مايلي ، وذلك كي لايساء فهم موقفي من الطبقة البرجوازية في العالم العربي .

انني اقول ان الطبقة البرجوازية في العـالم العربي ، هي حتى الآن طبقة وطنية وان امامها وعليها في هذه المرحلة التي نمر فيها في طريقنا الى الدولة الموحدة التي يسودها اكبر قسط من العدالة الاجتماعية ، اقول ان على الطبقة البرجوازية واجبا وطنيا هاما وجوهريا ، وهذا الواجب يتمثل في انماء رأس المال العامل وادارة رأس المال لصالح الشعب ، وانني واقولها بصريح العبارة ان ثورة القومية العربية في الوقت الحاضر وفي المرحلة الحالية لن تقيد ابدا نشاطات البرجوازية ولن تلجأ الى التأميم وذلك لافتقار ثورة القومية العربية في هذه المرحلة الى طبقـة فنية تتقن ادارة المشروعات الفردية وتنظيمها لذلك ارى ان باستطاعة الطبقة البرجوازية ان تضرب عرض الحائط بكل الامثلة التاريخيـة الحديثة ـ

الامثلة التي اعقبت الثورة الفرنسية - وان تشارك وبصورة فعالة في ثورة القومية العربية وذلك لان منطق الثورة العربية وضميرها سيوفران للطبقة البرجوازية في هـذه المرحلة وفي مراحل مقبلة كل رعاية وحماية ، وهذا كله لان المباديء الاساسية للقومية العربية ترى في دخول مرحلة الرأسمالية في هذا الظرف وفي ظروف مقبلة الطريق الطبيعي الى بناء دولة يسودها العدل الاجتماعي .

والقومية العربية هي اليوم بمسيس الحاجة الى الخبرة والفن اللذين اكتسبتهما الطبقة البرجوازية نتيجة لممارسة ابنائها للادارة والتنظيم احقابا طويلة من الزمن .

انني اعتذر للقاريء عن اشتطاطي به عن متابعة بحث موضوع ضمير الثورة ، غير ان اسبابا حيوية وجوهرية دعتني الى تسطير تلك الكلمات القليلة لاشاعة الطمأنينة في قلوب ابناء الطبقة البرجوازية وذلك لحرصي على تنشيط كل عمل تقوم به هـذه الطبقة في حقل انماء رأس المال ولغيرتي الشديدة على نفي القلق لدى ابناء هذه الطبقة كي يمتنعوا عن تهجير ، او بالاحرى تهريب اموالهم اللذين جاءا نتيجة لنشاطات او تصريحات غـير منطقية او مسؤولة .

قلت إن ابناء الطبقة البرجوازية قلما يؤمنون بان للثورة ضميراً بالاضافة الى منطق ، وان هذا الضمير ينفعل ويتفاعل وجميع الاحداث والنشاطات الثورية في انحـاء العالم ، وضمير الثورة ، في انفعاله وتفاعله هو الدليل الوحيد والبرهان الحي على ان الثورة مازالت تنبض بالحياة وان عروقها لاتزال تتدفق وتسيل بدماء الحق والعدالة والكرامة ، لذلك كله فلا يستغربن أحد اذا رأى ثورة القومية العربية تدفع بشعوبها الى الانتصار لكل عمل تحرري يحدث في اي صقع على وجه هذا الكوكب ، اذ ان مثل هـذا الانتصار يجعل الثورة - ثورة القومية العربية - تنسجم ونفسها وتسير وفق أبسط قواعدها وبديهيات مبادئها ، **فالثورة الاصيلة والثائر الأصيل هو ذاك الذي لايكتفي بالمطالبة بالحرية والعدل الاجتماعي لنفسه او قومه بل انما يتعدى هذا الامر الى المطالبة بالحرية والعدل الاجتماعي لغيره من ابناء القوميات الاخرى** ، لذلك كله فان ضمير الثورة في القومية العربية يلزم الشعوب العربية بمتابعة شن حرب لاهوادة فيها اولين ، ضد الاستعمار لا في الجزائر او فلسطين او

في محميات الخليج العربي فحسب بل في كل بلد يجثم فيه الاستعمار او تعشعش في جنبات مجتمعه المظالم والطغيان .

يتحدثون كثيرا عن الحياد الايجابي ، البعض يقولون إن هذا المبدأ مبدأ الحياد الايجابي قد ارسى قواعده المارشال تيتو عقب خلافه والكرملين، والآخرون يقولون ان الباندنيت نهرو هو اول من سنه وشرع فيه بغية خلق كتلة عالمية ثالثة تقف بين الكتلتين المتصارعتين المتحفزتين للوثوب والحرب .

وقد لاقى هذا المبدأ تحبيذاً عميقاً ومناصرة شديدة من الشعوب العربية ومن القومية العربية فهل هذا المبدأ مبدأ الحياد الايجابي مبدأ دخيل على مبادي القومية العربية في ثورتها الحالية ؟ ! .

ان الجواب على هذا السؤال بسيط وغير معقد ، فالقومية العربية في ثورتها اليوم ملزمة امام ضميرها الثوري كما قلت آنفاً في مساندة كل حركة تحررية او نشاط ثوري في اي بقعة من بقاع العالم والقومية العربية اذ تلتزم امام ضميرها الثوري بهذا الامر فانها ترى ان التزامها هذا لا يعني فقط دفاعها ومساندتها للشعوب الراغبة في التحرر والعدل الاجتماعي فحسب ، بل انما يعني ايضا - وهذا الاهم - دفاعها عن الوجود المادي والمعنوي للانسانية جمعاء ، فالعالم اليوم وعقب الثورة المروعة الفتاكة التي تطورت اليه اسلحته التدميرية من ذرية وصاروخية ، جعلت القومية العربية تؤمن في اعمق اغوار ضميرها بان أي حرب عالمية ثالثة قد تنشب ، فان نشوبها سيؤدي حتما الى تدمير هذا الكوكب وفناء الجنس البشري ، لذلك ألزم ضمير ثورة القومية العربية شعوبها بامور ثلاثة :

الاول محاربة التكتلات والاحلاف العسكرية وذلك لايمان القومية العربية الوطيد الراسخ بان مثل هذه التكتلات والاحلاف لا ولن تخفف من حدة التوتر الدولي ، بل انما تغذي هذا التوتر وتزيده احتداماً وروعاً وشدة وبالتالي تدفع بالعالم الى حرب نووية لاتبقي ولا تذر ، لذلك التزمت القومية العربية امام ضميرها الثوري باتباع سياسة الحياد الايجابي وعدم الانضمام الى اي معسكر من المعسكرين المتناحرين .

اما الامر الثاني وهو محاربة الاستعمار في كل قطر او بلد ، فهذا الالتزام الذي

التزمت به القومية العربية امام ضميرها انما اوجبه لا الانسجام ومبادىء ثورتها الاساسية في التحرر والكرامة فحسب ، بل انما الزمه ايضا - وهذا هو الاهم - قناعة الضمير الثوري للقومية العربية بان في بقاء الاستعمار - هذا المثلث المكون من الانانية والجشع والعدوان - بقاء للتوتر الدولي ، ونذير بنشوب حرب نووية تأتي على جميع مافي الحضارة الانسانية من مظاهر مادية ومعان روحية كما وان الاستعمار يشكل العقبة الكؤود في تفاهم الشعوب والتعاون فيما بينها للوصول الى الكواكب الاخرى .

اما الامر الثالث والاخير فانما يتمثل في عزم القومية العربية على بناء مجتمع يمد ابناءه بكل اسباب العدالة ويوفر لهم وسائل عيش كريم ويرفع عن كاهلهم بأساء الفقر والجهالة ، ولهذه الاسباب وحدها التزمت القومية العربية في مرحلتها الثورية الحالية امام ضميرها باتباع سياسة الحياد الايجابي وتقبل كل عون غير مشروط ، مع مراعاة النقطتين الآنفتي الذكر واعني بهما محاربة التكتلات والاحلاف العسكرية ومناهضة الاستعمار ، وكثيرا مارأينا القومية العربية ووفاء منها لالتزاماتها امام ضميرها الثوري تضحي بالكثير من العروض السخية لكي تحافظ على مبادئها الاساسية - (موقفنا في هيئة الامم المتحدة من قضية المجر) مما ورد يتضح ان سياسة الحياد الايجابي التي تنهجها الشعوب العربية اليوم ليست بسياسة مفتعلة ترمي كما يقول بها البعض الى ضرب الشرق بالغرب بغية تحقيق المكاسب واستدرار المنافع من كلا المعسكرين وادخال الكتلتين المتطاحنتين في منافسة لاكتساب ودنا ، بل انما هذه السياسة - سياسة الحياد الايجابي تنبع من اعماق ضمير ثورة القومية العربية والعاملان الاساسيان فيها كما يرى القاريء الكريم هما عامل انساني اولا ، ومن ثم عامل قومي .

هذا فيما يتعلق بفعل ضمير الثورة - ثورة القومية العربية - خارج نطاق العالم العربي أما فيما يتعلق بفعل ضمير الثورة داخل نطاق مجتمع العالم العربي فان حبي للحقيقة المجردة المطلقة ورغبة مني في المساهمة مساهمة متواضعة في تخطيط وارساء ايدولوجيه قومية انسانية للقومية العربية تفرضان علي ان أقرر مايلي :

ان صراع الشعوب العربية الطويل ضد الاستعمار قد منح القومية العربية ووهب

ضميرها حسا انسانيا سليما وفهما غريزيا عميقاً لمشاكل السياسة الخارجية ، ولذلك استطيع ان اقول وبفخر ان مواقف الشعوب العربيـــة ـ اقول الشعوب لا الحكومات ـ من المشكلات الدولية جاءت حتى اليوم منسجمة والضمير الثوري للقوميـــة العربية ، اذ اتصفت هذه المواقف جميعاً بصفة انسانية رحيمة عادلة وكريمة . غير ان الضمير الثوري للقومية العربية لم يزل حتى الآن في الدور الجنيني وذلك فيما يتعلق بفعله داخل المجتمع العربي ، فالثوريون من العرب الذين يسرون حينما نطلق عليهم هذا اللقب . لا يزالون مع الاسف الشديد يمرون في مرحلة الطفولة التي يجتازها كل ضمير مكتمل وسبب هذا الامر ناشيء عن كون الثوريين في العالم العربي يجابهون اليوم ولاول مرة في تاريخهم مشاكل اجتماعية تتطلب حلولا سريعة ، وهذه المشاكل منها مشاكل عريقة في قدمها واخرى مستجدة تتطلب ادراكا عميقاً وفهما متجرداً عن كل نزوة اوطيش حين تحضير حلولها . ومما يؤسف له ان الثوريين العرب بدلاً من ان يغوصوا الى اعماق هذه المشكلات نراهم حتى الآن لا يزالون يطفون على سطحها ، ولذلك فان جميع نشاطاتهم قد تميز حتى الآن بالسطحيـــة والانكارية ولهذا نرى هؤلاء الثوريين يهربون كلما اتيحت لهم الفرصة من معالجة المشاكل الداخلية الى اثارة او معالجة مشاكل خارجية ومع اعترافي ان تلك المشاكل الخارجية قد تؤثر مباشرة اوغير مباشرة على اوضاعنا الداخلية ، غير انني ارى ان دفع مشكلة اخرى اوحلها لا يعني ابداً حل المشكلة الاولى ، كما وان تأجيل حل اية مشكلة كانت قد يؤدي الى تعقيدها وزيادة مضاعفاتها ، اضف الى ذلك ان سطحية الثوريين العرب ـ وآسف اذ استعمل كلمة سطحية ـ تدفع بهم الى اقتراف خطأ جسيم يضرب ضمير الثورة ومنطقها براحتيه وهذا الخطأ يتمثل في اعتقاد الثوريين من العرب بانه يكفي للمرء ان يسن قانوناً او يستصدر تشريعاً كي يبدل الحال الى غيرها ، وبعملهم هذا يضربون عرض الحائط بابسط قواعد الثورة ، واعني بهذه ، تلك القاعدة التي حددها « مونتيسكيو » بقوله :

« يجب على الحكومة اذا ارادت القيام بتغييرات عظيمة في امتها ان تصلح بالقوانين ماهو مستقر في القوانين وان تغير في الاوضاع ماهو مستقر في الاوضاع . »

غير أننا اذا قابلنا قول « مونتيسكيو » هذا بالمناقشات التي دارت في البرلمان السوري

اثناء بحث قانون العشائر نرى بعض الثوريين من العرب قد اعتقدوا بانه يكفي ان تصلح بالقوانين ماهو مستقر في الاوضاع دون ان تغير في الاوضاع ماهو مستقر فيها كي تنتقل بالعشائر من حال البداوة الى الحضارة .

انني لااستطيع ان انكر ان الثوريين العرب قد تمكنوا من نسف القواعد النفسية لنظام من الحكم عليل اورثنا اياه الاستعمار وقد تم نسف هذه القواعد وبنجاح في كل من سورية ومصر غير ان تدمير القواعد النفسية لذاك النظام ، لم يتعد إضعاف العائلية والقبلية الى اصلاح جذري في جهاز الادارة وفي التشريع المالي والتخطيط الاقتصادي ووضع منهاج ثوري يقفز بالبلاد العربية من حالة الزراعة الى حالتي الزراعة والصناعة ، واذا فتشنا وبدقة عن النشاطات التي قام بها الثوريون في العالم العربي في حقلي الاقتصاد والاجتماع لاعيانا ان نلمس لها أثرا بارزاً واضحـــاً ، فدولاب الدولة لايزال يدور على الصورة العفوية ذاتهـا التي كان يدور عليها فيمامضى من عهود استعمار واستقلال ، والتقدم الاقتصادي الذي نشهده اليوم في سورية او غيرها من البلدان العربية انما جاء نتيجـــة لنشاطات الافراد والافراد فحسب ، وهذا مما يدل على ان الثورة في سورية لم تشعلها فئة أو حزب بل انما اشتعلت وتشتعل في صميم الشعب واما الهيئات الثورية في سوريةفانها تركض لاهثـة لتلحق او تتعلق باذيال الثورة خشية ان تخلفها الثورة وراءها كما خلفت غيرها من شخصيات واحزاب وهذا الامر يتسم بطابع انتهازي لايرضي ضمير الثورة .

وواجب الامانة والحقيقة يقتضيني هنا ان أقرر أن لومي للثوريين العرب في سورية لايتجاوزهم الى الثوريين العرب في مصر فأعمال الثوريين العرب في مصر تدل على أنضمير الثورة العربية المصرية اكثر حساسية وأقل تبلداً منه من ضمير الثوريين العرب في سورية ومنشأ هذا الامر يعود الى كون الشعب العربي في مصر قد عانى ولقرون عديدة مديدة نظاماً ملكياً واقطاعياً فاسداً جائراً لم يكن ينتظر سوى هزة طفيفة كي يقوض وينهار كما وان الريف المصري كاد قبل الثورة ينفجر بسكانه ، وانني اذ اركز بحثي على مصر وسورية ، فانما أفعل هذا لكون الثورة قد امتدت بلهبها من الشعب الى الحكومتين القائمتين في القطرين العربيين .

ومن المؤسف ان اقرر هنا حقيقة مؤلمة وهي ان الثوريين العرب في مصر كسالى ، قلما يقرأون وقلما تشاهد لاحد من اقطابهم مؤلفاً يحاول فيه ان يخطط للقومية العربية ايدولوجيتها فبينما نرى للبنين من المؤلفات مايتجاوز العشرين مجلداً ولستالين من الكتب مايتعدى الثلاثة عشرة لا نجد حتى لرجال الصف الثاني من الثوريين العرب كتاباً واحداً او مؤلفاً وحيداً يتحدث فيه عن القومية العربية ويحدد مناهج ثورتها وبرامجها ، لذلك كله نجد ان طابع الثوريين العرب هو الارتجال ، الارتجال في معالجة المشكلات ، والارتجال في تحضير حلولها ، ومثل هذا العمل خطر وخطر جداً اذ انه يستنزف من الثورة قواها وينحدر بجهاز الثورة من حيث كونه جهازاً ثورياً الى صيرورته جهازاً ادارياً روتينياً ، وبذلك يخيل للمرء ان الثورة قد انتهت بينما ان ثورة القومية العربية لا تزال في بداية طريقها الى الوحدة والحرية .

ومن المؤلم المحزن أن ثورة القومية العربية لم تستطع حتى الآن أن تخلق لها طبقة متقنة (انتلجنتيا) تلتف حولها وتغذيها بالافكار والاراء والمناهج والتصاميم ومنشأ هذا النقص يعود أولاً وأخيراً الى كون الفئات الثورية تخوض بكل قواها حرباً ضروساً في سبيل التحرر ، وهذه الواقعة لا تعفي الثوريين العرب من اللوم فأهداف الثورة القومية العربية لا تنصب فقط على التحرر من المظالم الخارجية ، بل انما تتعداها الى التحرر من المظالم الداخلية ، وهذه الحقيقة تفرض على الثوريين العرب وهم يخوضون اليوم معركتين في وقت واحد وفي ظروف متشابهة ان يوزعوا الاختصاصات فيما بينهم كي تشمل نشاطاتهم الحقل الداخلي ايضاً ، فالشعب الثائر قد ينفض من حول الثورة ، كما انفض الشعب الفرنسي من حول ثورته ، اذا لمس ان الثورة لم تستطع ان تقدم له حتى الآن برهاناً مادياً ملموساً على فوائدها وصلاحها .

وللمحافظة على اشتعال ثورة القومية العربية يتوجب على قادة الثوريين العرب تكتيل الكفاآت الثورية ، ولتحقيق هذه الغاية يتوجب ايضاً على القادة أن يفسحوا صدورهم للنقد الثوري وأن لايحاربوا الحقيقة بالشك والتشكيك ، وأن لايجندوا حولهم الانصار ، بل الاحرار ، فالانتهازيون يستطيعون ، وبيسر ، أن يتسللوا الى

صفوف الانصار بينما هم يعجزون أن يجدوا لهم موضع قدم بين جمهرة الاحرار وهذه الحقيقة تفرض في أبسط بديهياتها . على القادة ان يرتفعوا الى ذرى من السمو والرفعة تبلغ كما قلت في موضع آخر من هذا الكتاب مرتبة الزهـــد والنسك ، وذلك كي يتمكنوا من سحق « الأنا » واحتقار الحواس ونبذ الاثرة وابادة الطمع والتعبد للحقيقة المجردة ، وتكريس وجودهم المادي والمعنوي لضمير الثورة ولمنطقها ، وازاحة كل عقبة تقف في طريق الكفاآت الثورية .

د ـــ متى تنحرف الثورة ؟

كل ثورة غير متكاملة الايدولوجية في حقول الاقتصاد والاجتماع والسياسة معرضة في كل لحظة الى الانحراف والتخبط وانحراف الثورة عن اهدافها يعني نزول مظالم اشد قسوة ، واقتراف جرائم اشد هولا من المظالم والجرائم التي كان قـد انزلها النظام الذي قوضته الثورة بالجماهير الشعبية ، وانحراف الثورة عن اهدافها وذهولها عن مقاصـــدها يحولان الحكم الى تحكم والسلطة الى تسلط ، وينزلان بقادة الثورة من حيث لايدرون من مرتبة الانسان الواعي الى مرتبـــة الحيوان الشرس الضاري فيقترف آنذاك قادة الثورة احط الجرائم وأبشع الحمـــاقات وهم مقتنعون بان مايقومون به من اعمال انما يقومون به من اجل الشعب وفي صالح الشعب ، عندئذ تتحول القوة الى عنف ، وتتضاءل العواطف فتغدو نزوات وتعمى الابصار وتتحكم الظروف الانية بمنطق الثورة وضميرها ويستلهم قادة الثورة آراءهم واحكامهم من المظاهر الخداعـة والشكوك السخيفة الخبيثة ، ويصبح الهم الاوحد لقادة الثورة ، ليس حماية الثورة بل انما حماية انفسهم ، فيغرقون في الارهاب ويأخـــذون بالشكوك ويحاكمون الاشياء والامور والمشاكل بأهوائهم لابمنطقهم وبرغائبهم لابضمائرهم وبذلك يتجردون من الاخلاق الثورية ، هـذه الاخلاق التي تنبع من ارادة واعية تتمثل في اقامة توازن عملي وفعال بين الفرد كمواطن صالح في ظل دولة قومية ، والفرد ذاته كانسان .

وهنا تضيق صدور قادة الثورة بالحرية ، وتصبح كرامة المواطن كانسان معرضة

في كل آن ولحظة الى التجريح والامتهان ، ويفتح قادة الثورة قلوبهم الى «سوس كل مجتمع» وأعني بهذا المتملقين من الانتهازيين والمخادعين من الدجالين الذين يزينون لقادة الثورة مايقترفون من جرائم وما ينزلونه بالشعب من مظالم وحماقات ، وبهذا يقصي قادة الثورة عن صفوفهم كل ناصح عاقل ومخلص ، وذلك لان دوامة الانحراف التي غدا القادة فريسة لججها لاتترك لهم فرصة ، ولو قصيرة ، لمراجعة اعمالهم ومحاكمة افعالهم والتأمل العميق بما يقدم اليهم من اقتراحات او يعرض عليهم من مشورة .

وبهذا يتنكر قادة الثورة ، الذين امتشقوا الحسام باسم الحرية ، للحرية ذاتها ، ويفهمون للحرية معنى واحداً هو ان يكونوا وحدهم احراراً فيما يفعلون وفيما يأتون ، غير عالمين بأن من بديهيات الحرية هو مايقوله « هيغل » **« مامن احد يستطيع ان يكون حراً ، اذا كان جميع الناس غير احرار . ان اول شروط الحرية ، ان يكون جميع الناس احراراً ، حتى وان كنت ظالماً وضغطت على الآخرين فأنا لست بحر لسبب عينه لأنني اخلق حولي عالماً من الظلم أكون حبيسه . »**

والحرية كما يعرف الجميع هي نار الثورة المثالية ، وهي روحها ، وهي منطقها . وهي ضميرها ، لذلك وعندما يقدم قادة الثورة على قتل الحرية ، يقتلون حينذاك كل مافي الثورة من قيم وتراث وتقاليد ، ويحولون الثورة ، من حيث هي انتفاضة شعبية ضد الاستبداد ، الى قيصرية تعيش على الاستبداد ، منه تتغذى ومن أجله تمارس وجودها .

ويرافق هذه المرحلة من الانحراف ، انحطاط مريع في الضمائر والاخلاق فيعم الفساد وتنتشر الرذائل ، وتخرب الذمم ، ويصبح الرغيف او المنصب او الحماية الهدف النهائي لانصار الثورة المنحرفة وتتعطل الكفاآت او تعدم ، ويشرد الاحرار ، وتغدو الجاسوسية الجهاز الرئيسي في الدولة ، فيعم الكبت وتجمد حيوية الامة ويعطل الخوف نشاطات الفكر وتردم الرشاوى منابع الوجدان ، وتسيطر المادية البشعة على كل قيمة ، فينحر الاباء على مذبح الشهوات ، ويضحى بالحقيقة على اعتاب الدجل والزلفى ، اما الثورة المنحرفة فانها تتابع تدحرجها مشتعلة ملتهبة لتحرق وتسحق كل مايعترض طريقها من خير حتى تستقر رماداً خابياً في قعر الهاوية ، غير مخلفة وراءها سوى جروح وآلام وخسائر

فادحة مروعة ، وشعبا كسير القلب مكدودا ، وجماهير فاقدة الثقة بالمستقبل معدومة الامل بالثورة ومستعدة للترحيب بنظام شيطاني بديلا عن الثـورة المنحرفة .

هذه صورة واقعية للثورة المنحرفة ولنتائجها الخطرة على تطور الشعب وتقدمه وقد تعمدت ان أرسم هذه الصورة للشبيبة العربية رغبة مني في اقناع الجيل العربي الثوري بان واجبنا الاساسي يتلخص في صيانة الثورة من الانحراف ، وهذا الواجب يقتضينا ان نكرس وجودنا المادي والمعنوي لمنع اية محاولة - ولو بالقوة - قد يقوم بها قادة الثوريين العرب ، للانحراف بثورة قوميتنا في هذه المرحلة الحاسمة من تطورنا كأمـة تعي ذاتها وعيا كاملا وتعزم على ممارسة وجودها بكل مالكلمة الممارسة من معنى ومفهوم .

واول شروط صيانة ثورة القومية العربية من الانحراف هو المحافظـة على الحرية ، حرية الفكر وحرية القول وحرية العمل ، وذلك طالما ان هذه الحريات لاتضر او تعرقل سير الثورة نحو اهدافها ، وطالما ان هذه الحريات يتوخى من وراء ممارستها الاجتهاد في تفسير دستور الثورة لصالح الشعب ، واستنباط انجع الوسائل لمعالجة قضايانا وحل مشاكلنا .

اذ أن كل ثورة تخاف أوترهب أن تمارس وجودها على أضواء الحرية وانوارها هي ليست بثورة ، انها مؤامرة على حرية الشعب وكرامته لان الثورة الحقيقية معدنها نار وروحها نور ، وهي بهذا لاتلتقي بالحرية فحسب بل انها تندمج فيها وتذوب في منطقها ووجدانها .

ان القومية العربية هي اليوم بمسيس الحاجة الى طبقة مفكرة غفيرة العدد عميقة الغور ، تتفاعل مع الثورة وتفعل فيها ، تأخذ بيدها ، تهديها الطريق ، تدلها على المفاسد لتقتلعها ، ترشدها الى المظالم لترفعها ، وتشير الى الطغيان لتسحقه ، طبقة مفكرة تكون للثورة بمثابة الدماغ والاذنين والعينين .

والقومية العربية لاتستطيع ولن تستطيع ان تتمخض عن هذه الطبقة ذات الاهمية الحيوية بالنسبة لثورتنا ، والتي بدونها لاتستطيع ثورتنا ان تتابع رسالتها ، اذا لم تؤمن قوميتنا لابنائها جوا من الحرية الفعلية والحرية الحقيقية والحرية كما يقول « مونيسكيو » لايكفي ان تعالج من حيث صلتها بالنظام بل يجب ان ترى من حيث

صلتها بالمواطن ،فقد يكون النظام حراً ولا يكون المواطن كذلك ابدا .

ان تحقيق غايتنا؛هذه الغاية المتمثلة في خلق طبقة مفكرة تسند القومية العربية وتغذي ثورتها ، لن يتم الا اذا استطاعت **ثورة القومية العربية في كل مراحلها** ان تنفي الخوف وتنفي القلق فالفكر لايستطيع ان يغوص الى اعمق أغواره اذا كان الهواء الذي يملأ رئتيه سممه الارهاب والطغيان؛والعقل يصبح كسيحاً مشلولاً اذا ماتلفت حوله فرأى مخالب الاستبداد وأنيابه تنهش اجساد من سبقوه اوساروا قبله على طريق مايؤمن به حقاً وحقيقة . والمفكر لايستطيع ان يشرح الاحداث بمبضع العقل ، وان يفعل في الحوادث بضميره وفكره ووجدانه وسيف الطاغية مشرع فوق رأسه .

لذلك كله يعتبر الثوريون العرب الحرية جوهراً لقوميتهم وروحاًلثورتهم وحجر الزاوية للنظام الذي يكدحون اليوم ويشقون لارساء قواعدهوتشييده .

والثوريون العرب يؤمنون ايماناً راسخاً وطيداً لايتزعزع بانه لافرق هناك بين الاستعمار والاستبداد ،فكلا الشرين سواء ، وكلاهما يهدران الكرامة البشرية وينزلان بالانسان الى درك الحيوان .

المنحرفون :

مما ورد يتضح ان اول انحراف يصيب ثورتنا يتم عندما يبدأ قادة الثورة بمصادرة الحريات ، أما الخطر الثاني الذي يهدد ثورتنا بالانحراف فانما يتمثل في استيرادنا لانظمة اقتصادية او اجتماعية او سياسية ، وفي محاولتنا تطبيق هـــذه الانظمة على بلدنا وعلى امتنا دون ان نبحث او ندرس ما اذا كانت هـــذه الانظمة تتفق او تتلاءم وواقعنا وامكاناتنا في التطور الذي تريده لنا ثورة القومية العربية . ومن المؤسف ان اقرر هنا ان جيلنا يعرف كل شيء عن كل بلد ويجهل ابسط الحقائق عن بلده ، وهذا الواقع قد نجم عن كون جيلنا قد اولى الكثير من اهتمامه ، ان لم يكن كل اهتمامه لثقافة الغرب ومجتمعات الغرب وواقع الغرب

ولم يلتفت او يكترث لدراسة واقعنا وتركيبنا الاجتماعي . وعدم دراسة واقعنا وتركيبنا الاجتماعي ومعرفتنا العميقة بامكاناتنا وبالمرحلة التاريخية التي نمر فيها ، وبطبيعة الارض التي نقف عليها بالاضافة الى رغبتنا الثورية في الاصلاح ، كل هذه الامور تجعلنا نفتش عن الانظمة التي طبقت بنجاح في الغرب ، فنحملها الى بلدنا ونسعى لفرضها وتطبيقها على مجتمعنا . ولهذا نرى الحيرة تغلب على جيلنا والقلق يسودنا ويمنعنا من معرفة ذاتنا الحقيقية .

من المسلم به ان النظام الصالح والذي يجسد اكبر قدر من العدالة الاجتماعية في مرحلة تاريخية معينة هو ذلك النظام الذي يتلاءم ويتفق والواقعين الروحي والمادي لأمتنا ومن ثم يساعد على تطور وانماء هذين الواقعين ـ المادي والروحي ، ويدفع بالشعب قدماً على الطريق اللانهائي للتطور والتقدم .

والانظمة كالملابس تماماً ، واللباس اللائق هو ذاك الذي يفصل وفقاً لمقاسات الجسد الذي يراد ستره ، ومشكلتنا مع بعض الثوريين العرب في هذه الحقبة ، انهم يريدون ان يفصلوا الجسد جسد الامة العربية ـ وفق مقاسات اللباس الذي عادوا به لنا من الغرب ولذلك نراهم يعذبون امتنا فيشدون اطرافها وينفخون في جذعها ، مؤملين بأن تثمر أعمالهم فينمو جسدها ويكبر ويتضخم فيملأ اللباس الذي عادوا به لنا من الخارج .

وهذا العمل ليس بسخيف مضحك فحسب ، بل انه مجرم مجنون ايضاً ، اذ ان مايأتيه هؤلاء الثوريون من العرب يشكل خرقاً خطيراً لدستور ثورتنا لانه يتخطى بها حدود الامكان ، ويسقط من حساب قوميتنا عامل الزمن ، وينحرف بالثورة عن اهدافها القابلة للتحقيق ويقفز بها قفزات بهلوانيه في ظلام دامس ، وبالتالي يعرض قوميتنا لمغامرات مجنون .

ومثل هولاء المنحرفين من الثوريين مثل والد له ابن لم يتجاوز السادسة من عمره بعد ، وحبه الدفاق لولده يتخطى به التفكير بأمر ارسال ابنه الى المدرسة

الى الانهماك في تدبير زواج ابنه الطفل . ان هؤلاء المنحرفين من الثوريين العرب يهدرون جهودا ويضيعون اوقات ثمينة على امور تتنافى وطبائع الاشياء ، انهم يحاربون ويصارعون ، يثرثرون ويتظاهرون مطالبين باستنبات الموز في القطب الشمالي .

ومن المؤسف ، المؤلم ، المحزن ، ان هؤلاء المنحرفين من الثوريين العرب هم اكثر فئات الامة العربية صخباً وضجيجاً ، واكثر ابناء العروبة استغراقا في الكسل والخمول ، يتأففون من منظر الفلاح وينفرون من زيارة الريف ويرفضون العيش في مضارب العشائر ، وبذلك يجهلون كل الجهل واقع امتهم وحقائق تركيبها الاجتماعي . وبعد هذا كله نراهم يقدمون مشروعاً لاصلاح حال الفلاح ويزكون هذا المشروع بقولهم انه اعطى خير الثمار في المانيا ، وحينا يتقدمون باقتراح لتحضير العشائر ويزكون هذا الاقتراح بصياحهم القائل بان الاتحاد السوفياتي قد عمل به فتحضرت العشائر واستقرت .

ان هؤلاء المنحرفين من الثوريين العرب يجهلون كل الجهل ان مهمة الثوري الحقيقي هي في التوفيق بين المباديء الاساسية للثورة وبين الاوضاع القائمة ، رغبة في تطوير احوالنا وتحسينها وذلك باقل قدر ممكن من الخسائر والجهد .

وهكذا ينتقل هؤلاء المنحرفون بالثورة من حيث هي صراع في سبيل ضرب المفاسد والبناء الى جعل الثورة صراعاً بين نظريين مستغرقين في الخيالات والاوهام ، شرهين جائعين للسلطان ، وبين قوانين حديدية تنظم الاقتصاد والاجتماع والسياسة وترسم للأمة طريقها وتدفع بها عليه .

وأخطر مافي هؤلاء المنحرفين أنهم باصرارهم وعنادهم يمزجون العامل الشخصي ، او بالاحرى العوامل الشخصية ، بمبادئهم ونظرياتهم الغريبة عن الوطن والامة ، ويفسرون كل نصح او ارشاد يقدمه اليهم شخص يشفق عليهم ويرى فيهم مواطنين ضالين من واجبه ان يهديهم سواء السبيل ، أقول يفسرون مثل هذا النصح أنه حسد وغيرة ومنافسة لهم على التربع على عروش ممالكهم الطوباوية التي تشيدها أحلامهم السخيفة واراؤهم السطحية .

والحق ان من أشد ماتصاب به أمتنا من نكبات وكوارث وتعطيل في طريقها الثوري يتمثل في هذه الفئة التي قد تمتلك كل ما أودع الله صدر الانسان من نوايا طيبة وتتدفق بكل ماينكب به المرء من حماقة وسخف وطيش .

وهؤلاء المنحرفون من الثوريين العرب يشكلون عقبة كؤود ترغم الثورة على تكنيسها بمكنستها الفولاذية . والثورة اذ تقدم على هذا العمل الاجرائي القوي - أقول القوي لا الضعيف - فانها بذلك لاتتعارض او تتناقض ومبدأها الاساسي وهو الحرية ، اذ ان الحرية الثورية ذاتها ، هذه الحرية النابعة من ضمير الثورة والمتدفقة من وجدانها ، تضطر ، وهي ترى بام عينها وتلمس ببنان وجدانها العوامل الشخصية التي يمزجها هؤلاء المنحرفون بنظرياتهم المغلوطة ، ان تسحقهم بمطرقتها وأن تحمي نفسها وتحمي الجماهير من التضليل والانحراف .

والصفة البارزة في هؤلاء المنحرفين هي السفسطة والقدرة على ابراز السراب المنطقي اذا جاز لنا استعمال مثل هذا التعبير ، ولما كانت المهمة الاساسية للثورة العربية هي انماء المقدرة لدى الجماهير ، مقدرة التمييز بين ماهو حقيقي وماهو خيال ، لذلك يغدو من واجب الثورة والثوريين العرب الاصلاء أن يعمدوا باديء ذي بدء الى مناقشة مثل هؤلاء المنحرفين مناقشة حرة بكل مالكلمة الحرية من معنى ، فان استقام هؤلاء وارعووا فهذا مانريده وهذا مانبتغيه ، والا فعلى الثورة في حالة عناد اولئك واصرارهم على الخطأ ان تلجمهم أو تضربهم بقسوة وعنف اذ ان هؤلاء المنحرفين يشكلون خطراً داهماً على أهداف الثورة ، انهم الدمل في جسدها ، انهم البثور في وجهها ، وهؤلاء المنحرفون من الثوريين العرب يكمن خطرهم بما أصابهم به الله من ذلاقة لسان وبما أنزل بهم القدر من سطحية تفكير وثقافة فجة ، وكلنا يعلم أنه في حالة اجتماع ذلاقة اللسان وسطحية التفكير والثقافة الفجة لدى شخص من الناس ، فان هذا الشخص يمتلك انذاك قدرة بالغة على التغرير بالجيل الناشيء ، ونتيجة عمله المجرم هذا تكون وبالاً على الأمة اذ أنها توزع ارادتها العامة ، ارادة ثورتنا ، في نفي الطغيان والمظالم ومن ثم البناء .

ومن المؤسف ، المؤلم ، المحزن ، ان العوامل الشخصية التي يمزجها هؤلاء المنحرفون بمبادئهم تشكل خطراً داهماً على أخلاق الشعب ، وعلى أخلاق المنحرفين بالذات ، وذلك لانها تجعل الفرد منهم آنيا ، انتهازياً مغروراً ، يعرض ماحصل عليه من شهادات علمية في الاسواق وعلى الجماهير ولا يسمح لاحد بان ينطق باسمه الا وهو مسبوق بالالقاب العلمية التي حصل عليها في غفلة من الحق والحقيقة ، يولي المظاهر كل همه ، ويعطي القشور فائق عنايته ، يتحدث عن الفضائل أمام الاغرار ويمارس أحط انواع الرذائل في خلوته .

وهؤلاء المنحرفون من الثوريين العرب ، الانكاريون بكل ماللانكارية من مفهوم ومعنى ، هم ملحدون لايؤمنون بالله ولا يؤمنون بوجوده ، والحادهم غير ناشيء عن قناعة علمية منبعها وجدانهم وضميرهم ، بل انما ناشيء عن المكابرة ورغبتهم الحقيقية في أن يصدموا المجتمع ، صدمة عنيفة مدوية ، تثير من حولهم ضوضاء وضجيجاً ، تلفت اليهم أنظار المجتمع غير أنها تنبه في الوقت ذاته منطق الثورة وضميرها وتطلع الثورة على خطرهم وضرورة تلافيه .

واذا أضفنا الى الروح الانكارية ، التي تتلبس منطق هؤلاء المنحرفين وتفكيرهم ، العوامل الشخصية التي على أضوائها يناقشون مشكلات المجتمع ومعضلاته ، نرى هؤلاء المنحرفين ينحدرون دون علم منهم الى العدمية والعدمية المطلقة . والعدمية كما يعرف كل ذي رشد هي أشد الامراض التي تنزل بالامة وتعطلها عن السير في مجالات التقدم والبناء .

ومنشأ العدمية لدى هؤلاء المنحرفين هو ان الغرب قد فتح أعينهم على تأخر بلدهم وانحطاطها ، كما وان الثقافة الاستعمارية التي سممت عقولهم جعلتهم يرون كل مافي الوطن العربي فاسداً مفسداً علاجه الاوحد البتر والنسف ، وبذلك سها عن بالهم أننا أمة ذات تراث وذات حضارة غارقة في القدم ، وأن حاضرنا وان كان فاسداً فان في ماضينا قيماً وتقاليد انسانية لاتزال صالحة للاستعمال في ثورتنا

الحالية ، بل انه يتوجب علينا استعمالها كي نميز ثورتنا ونطبعها بطابع انساني رائع مشرق يبدد ظلمات العدوان ويطمس معالم التمييز العنصري .

فنحن لسنا أمة مستجدة في الحضارة أو دخيلة عليها ، بل أننا أمة وأقولها بكل تواضع ، حملنا مشاعل الحضارة وفعلنا في تكوينها وتأسيسها حقبة طويلة من الزمن ، لذلك فنحن لن نسمح ولن نسمح أبداً وفي كل الظروف لهؤلاء المنحرفين بان يتسللوا بروح الانكارية وسمومها الى ماتملك من تراث حضاري .

فالانسان الذي يشوه محاسن ماضيه ويتنكر لسالف حضاري مشرق ، لايولد من جديد بل انما يقتلع جذور وجوده ، والحضارة الانسانية ليست من عمل جيل او جيلين ،انها عمل الاجيال المتعاقبة منذ الخليقة حتى اليوم ، ونحن ليس همنا او هدفنا ان ننسف الحضارات السالفة لنبني حضارة جديدة كل الجدة ، بل انما هدفنا الاساسي ان نضيف الى الحضارة الانسانية الجديد والمزيد من المنافع والقيم . والماضي ليس بعبرة فحسب يعتبر بها الخاطيء بل انه لدى امة كأمتنا قدوة يقتدى بها وعلى منوالها ينسج وعلى هديهـــا نسير . ونحن لانستطيع ولن نستطيع اذا اردنا ان نخدم قوميتنا وان نرتفع بثورتنا الى ذرى البناء ان نقطع كل مالنا من صلة بماضينا وان ندعي بان الحضارة العربية الأصيلة تبدأ بجيلنا ، اننا اذا اقترفنا مثل هذا الخطأ الشنيع نكون قد صفعنا وجه الحق وبصقنا على جبين الحقيقة ، وهدرنا من الجهـــد لطمس ماضينا مقدارا لو وظفناه في تطوير حاضرنا لكان ذلك أجدى علينا وأنفع .

والصفة البارزة الثانية لدى هؤلاء المنحرفين من الثوريين العرب هي الحيرة ، وتنشأ حيرتهم عن اصطدام منطقهم بالواقع ، اذ يستفيقون على هذا الاصطدام مدهوشين مذهولين ، فيحارون في امرهم ، ويحتارون في النتائج المتعارضـــة وحساباتهم ، وهنا وبدلا من ان يفتشوا عن اخطائهم ليصححوها ينعتون الامة بالخطأ فينقمون على الشعب ويثورون ، وينعتون الشعب بالانحطاط والجهـــالة والغفلة ، وبالتالي يفقدون الثقة بأمتهم وبقدرتها على التقدم والبناء ، ويشعرون في

قرارة نفسهم بانهم مظلومون اذ رمى بهم القدر الى مجتمع امة كتب عليها الموت الابدي والجهالة المطلقة ، والصفة البارزة الثالثة لدى هؤلاء المنحرفين هي القلق ، وينشأ قلقهم هذا اول ماينشأ عن عدم اخلاصهم للحقيقة ولطبيعة الاشياء ، والانسان الذي لايخلص للحقيقة لايخلص لنفسه ومن لايخلص لنفسه لايخلص للانسانية ، وهكذا يعيش من كتب عليه هذا القـــدر المنكود يرى كل يوم وجوده معرضاً للخطر وبقاءه عرضة للزوال ، عندئـــذ تدفع غريزة البقاء هؤلاء المنحرفين الى التكتل والتجمع وتكتلهم وتجمعهم لايتمان رغبة منهم في مناقشة اخطائهم واعادة فحص ماتعلموه ، بل انما يتمان رغبة منهم في حماية وجودهم المادي والمعنوي ، حتى ولو عرضت مثل هـذه الحماية الشعب للمخاطر ، وخير دليل على ماذكرت ما هو واقع الآن في اكبر مؤسسة علمية في سورية من الاساتذة الشباب الذين يزينون جدران منازلهم بشهادات الدكتوراة ، وهذا العـــدد تضمه كتلة واحدة وهدف هذه الكتلة التي تدعي حسب ماينقل انها تحتكر الثقافة والعلم ليس في ان تقدم المناهج والبرامج ، بل ان يساند بعضهم بعضاً في التوظيف والترقية او الايفاد في جولات « اطلاعية » الى الخارج .

وقبل ان اختتم بحثي عن المنحرفين من الثوريين العرب يتوجب علي ان اقرر حقيقة مؤلمة وهي ان الكلمة العليا في هذه المرحلة من مراحل ثورتنا والسطوة البالغة اليوم هما لهؤلاء المنحرفين من الثوريين العرب في سورية .

انني اذ اضرب الامثلة بما يجري في سورية انما أفعل ذلك لكوني اولا عربيا يعيش فيها ولايماني العميق ثانياً بان الثورة في سورية تختلف في بعض الوجوه عن الثورة في مصر ، وأوجه الاختلاف تكمن في كون الحركة الثورية في سورية اكثر عمقاً واسرع تفاعلا واوسع شمولا للجماهير منها في مصر ، كما وان في مصر قادة ثوريين يوجهون الشعب ويدفعون بجماهيره على سبل الثورة بينما ان في سورية شعباً يسوق « قادتـــه » .

وهذا هو السر في كون مصر قد استقرت سياسيا عقب الثورة ولم تشهد اي انقلاب على النظام الذي انبثق عن ثورة ٢٣ يوليو بينما ان سورية التي بدأت ثورتها الحقيقية في ٣٠ مارس ١٩٤٩ شهدت خمسة انقلابات عسكرية ومرد هذا الامر يعود اولا واخيرا الى كون الشعب العربي الثوري في سورية تنقصه زعامة ثورية جريئة واعية وناضجة .

٣ ــ الاهداف التالية :

ان ثورة القومية العربية تستهدف الامور الخمسة التالية :

الاول : تحرير الاقطار العربية التي لم تتحرر بعد من الاستعمار ـ فلسطين ـ الجزائر مشيخات الخليج العربي .

الثاني: توحيد الاقطار العربية في دولة اتحادية .

الثالث: بناء اقتصاد قومي فعال ينسق بين النشاطات الاقتصادية في مختلف الاقطار العربية بغية انماء رأس المال العامل .

الرابع : تنظيم تعاملنا ورأس المال الاجنبي في الوطن العربي على أساس التبادل العادل للمنافع .

الخامس: بناء مجتمع عربي تسوده الحرية والعدل الاجتماعي وتوجهه الروح الانسانية في نشاطاته وفعالياته .

من أجل تحقيق هذه الامور الخمسة تشتعل اليوم ثورة القومية العربية ، وفي سبيل انجاز هذه المهام تكافح الشعوب العربية وتناضل قوميتها وتستميت . غير انني لن أتطرق حالياً الى بحثها جميعاً بل سأكتفي بالتطرق الى البند الثاني والقائل بتوحيد الاقطار العربية في دولة اتحادية ، وذلك لايماني العميق بانه اذا لم نعرف أن نسلك طريقنا الى الوحدة والاتحاد بعقل وروية وحذر فان ثورة القومية العربية ستصاب آنذاك بنكسة مخيفة مروعة كما أصيبت في الاردن ؛ فالاستعمار يتربص بنا الدوائر ، وفي العالم العربي أنظمة في الحكم لايمكن للقائمين عليها ان

يرضوا أو يوافقوا على أي نشاط يقوم به الثوريون العرب ويستهدفون من ورائه تحقيق الوحدة والاتحاد ، اذ يرون في تحقيق هذا الهدف القضاء المبرم على مايتمتعون به من امتيازات وسلطات وسلطان . **ومن المؤسف ان هؤلاء النفر من الحكام العرب يقفون اليوم في وجه التاريخ عاجزين أن يتفهموا الروح الجديدة التي أضرمت شعلتي الحرية والكرامة في الجماهير العربية ، لذلك فهم يرون في الثوريين العرب الاصلاء فئات مشاغبة هدامة معتقدين بأن الثورات تندلع نتيجة لتحريض المحرضين ، أو صخب المشاغبين، غير عالمين** ان رغبة جماهيرية تفجرها عوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية تخلق الثورة وتضرم نيرانها .

ان سورية ومصر تشكلان اليوم البوتقة التي تلتهب تحتها ثورة القومية العربي لتصهر الشعوب العربية في دولة تمتد من المحيط الاطلنطي حتى الخليج العربي ولهذا فان القدر قد أناط في هذه المرحلة من مراحل ثورتنا قيادة القومية العربية بسورية ومصر ، ولذلك يتوجب على القادة الثوريين في هذين القطرين أن يتحلوا بفضيلة الصبر وأن يتخذوا من شعار الجمعية الغابائية شعاراً لهم وقاعدة للعمل، وهذا الشعار يقول :

« لا بد أن تنتظر اللحظة المناسبة كما انتظرها « فابيوس » من قبل في حربه مع هانيبال في صبر عظيم ، رغم لوم الكثيرين له ، ولكن حين تحل اللحظة المناسبة فلا بد أن تضرب ضربتك القاضية كما فعل « فابيوس » من قبل والا ضاع صبرك أدراج الرياح ولم تجن ثماره » .

اذن فالصبر المرافق بالعمل التحضيري الحكيم الحذر هو طريقنا ووسيلتنا لالغاء أنظمة الحكم المتعارضة ورغبة الشعوب العربية في الوحدة والاتحاد .

ان الاستعمار واعداء الوحدة العربية من حكام العرب يعلمون حق العلم أن قوى الثورة في نمو وتزايد مستمرين ، وان هذا التزايد وذاك النمو اذا ماتتابعا على الصورة الحالية وبنفس الزخم الحالي فان العالم العربي سيشهد عما قريب دولة عربية اتحادية قوية الجانب مرهوبة الشكيمة رايتها الحق وشعارها العدالة. والعقبات

الوحيدة التي يمكن ان تؤخر من سير ركب الثورة لاتتمثل كما أرى في كفاح الرجعية العربية او كفاح الاستعمار ضد ثورة القومية العربية ، بل انما تتمثل في الاخطاء التكتيكية التي قد يقترفها الثوريون العرب في صراعهم من أجل غايات القومية العربية وأهدافها .

وأهم هذه الاخطاء هو ممارسة أحد الاقطار العربية لمبدأ الاخضاع في السياستين الخارجية والداخلية ، ولتجنب هذا الخطأ الفاحش الذي قد ينحرف بالثورة عن أهدافها وبالتالي يضرب مبادىء ثورة القومية العربية في الصميم ومن ثم يؤخر ركب العروبة في طريقها الى الاتحاد والوحدة ، يتوجب على قادة القوى الثورية في كل من سورية ومصر أن يعمدوا دائماً الى المناقشة الحرة في كل الامور المختلف عليها بين قطر ثوري متحرر وآخر محافظ متخلف ، وان يبتعدوا كل البعد عن الاجراءات العنيفة ووسائل الارغام ، وذلك لان مثل هذه الاعمال تخلف وراءها ردود افعال سيئة في نفوس بعض الجماهير من الشعوب العربية ، كما وانها تزود حكام القطر المحافظ المتخلف بالذرائع والحجج وأحياناً بالبراهين والادلة على محاولة الثوريين في سورية مثلاً على ارغام لبنان واستعباده .

فاذا قدر مثلاً لحكومة لبنان أن تنهج سياسة تضر بقضايا ثورة القومية العربية ، آنذاك يتوجب على قادة الثوريين العرب في كل من مصر وسورية أن لا يعمدوا وفي كل الاحوال الى اتخاذ اي اجراء من شأنه أن يضر بمصالح الشعب العربي في لبنان ، بل علينا ان نشعر الشعب اللبناني في مختلف جماهيره وطبقاته اننا لن نعمد ولا يمكن ان نعمد الى اي عمل من شأنه ان يلحق اذى او ضرراً بمصالح جماهير الشعب العربي في لبنان ، وان ثورتنا تعتمد على مبدأ العطاء في تعاملها مع كل قطر شقيق لا على ميزان التجارة الخارجية والرغبة في موازنته .

ولذلك يتوجب على القادة الثوريين في كل من مصر وسورية الا يعمدوا وفي كل الاحوال الى تأديب حكومة لبنان مثلاً بانزال الاضرار بمصالح الشعب العربي في لبنان . والثوريون العرب الاصلاء في سورية لن يوافقوا ابداً على منع سفر

السوريين الى لبنان كما وان الثوريين العرب الاصلاء في مصر لن يعمدوا ابداً الى منع استيراد التفاح اللبناني بغية ممارسة ضغط على الحكومة في لبنان ، وان الثوريين العرب الاصلاء اذ يتبنون مثل هـــذه السياسة ، فانهم يتبنونها لايمانهم المطلق بالجماهير العربيـــة في كل قطر عربي ، ورغبتهم العميقة في تمتين أواصر الاخوة بين الجماهير العربيـة في قطر محافظ متخلف وآخر ثوري متحرر ، كما وان الثوريين العرب اذ ينهجون مثل هذه السياسة فانما ينهجونها انسجاماً ومباديء ثورة القومية العربية ، هذه المباديء التي تقول في افصح لسان بان طريق الاقطار العربية الى الاتحاد والوحدة هو طريق المناقشة الحرة والاقتناع لا طريق الارغام او الاخضاع والتبعية .

لذلك يتوجب على القادة الثوريين من العرب ان يناقشوا حكام الاقطار المحافظة المتخلفة في انظمة حكمها جهاراً نهاراً ، وان يطلعوا جماهير الشعوب العربية في الاقطار المحافظة المتخلفة على كل مايـــدور في هذه الاتصالات والمناقشات وذلك كي يفوتوا على الراغبين في الاصطياد في المياه العكرة كل الفرص .

كما وانه يتوجب - واكرر ثانية - يتوجب على القادة الثوريين أن لايقدموا وفي كل الاحوال على اتخاذ أي اجراء عنيف من شأنه ان يلحق ولو اقل ضرر بمصالح الجماهير العربية في قطر عربي تختلف سياسة حكامه وسياسة ثورة القومية العربية .

كما وأنه يتوجب ايضاً على القادة الثوريين ان يصلوا بجماهير الشعوب العربية في جميع الاقطار المحافظة المتخلفة الى مركز القناعة الراسخة المطلقة بان اهداف ثورة القومية العربية ، هذه الثورة التي تصارع من اجل اقامة دولة اتحادية ، اقول ان اهداف ثورة القومية العربية لاترمي ابداً الى فرض سيطرة قطر او قطرين على بقية الاقطار العربية ، وان تقسم الاقطار العربية الى أقطار تابعة واخرى متبوعة ، بل انما اهداف ثورتنا تتركز على مبدأي المساواة التامة والمشاركة المثالية الأمينة في بناء دولة اتحادية واقامة مجتمع

قواعده العـــدل الاجتماعي والمساواة والحرية ، مجتمع ينتفي فيه الاستبداد والاستغلال والاخضاع والتبعية كما وان القادة الثوريين في كل من مصر وسورية لايرغبون في توحيد العالم العربي كي يشيدوا امبراطورية تتيح للشعبيين العربيين في سورية ومصر استعباد الشعوب العربية في الاقطار العربية الاخرى فعهد الاستعباد قد ولى وعهد الامبراطوريات قد تصرم ودخل في ذمة التاريخ .

انني اذ اتوسع في بحث خطر مبدأ الاخضاع والتبعية على ثورة القومية العربية انما يدفعني الى الاستفاضة عبرة تاريخية مريرة وخطأ تاريخي شنيع كان له اسوأ النتائج على انتفاضاتنا القومية . فعقب أن قام محمد علي بثورته على الامبراطورية العثمانية ففصل مصر عن الاستانة دفع بجيوشه تحت قيادة ولده ابراهيم باشا الى احتلال فلسطين وسورية . وقد رأت الجماهير العربية في كل من سورية ومصر في الجيوش المصرية ، جيوشاً عربية جاءت لتحررها من نير الاتراك ولتعيد الى الامة العربية وحدتها ، فاستقبلت الجيوش المصرية استقبال المحرر المنقذ من نير العبودية ، غير ان ابراهيم باشا ووالده محمـدعلي سرعان ماخيبا أمل الشعبين العربيين في كل من فلسطين وسورية ، اذ أخذا بمصادرة الحريات وبمعاملة العرب في فلسطين وسورية معاملة الغزاة المعتمدين في تبرير اعمالهما على حق الفتح معتبرين هـذين البلدين قطرين مفتوحين لا قطرين شقيقين تشدهما الى مصر اواصر العروبة والدين . ولهذا انقلب الرأي العام في كل من سورية وفلسطين على محمد علي وولده ابراهيم واندلعت الثورات ضد الجيوش المصرية في كل من سورية ونابلس والخليل وذلك في آذار عام ١٨١٣ .

ومحمد علي معذور فيما فعل فهو اولاً لم يكن عربياً والقومية العربية في مصر لم تكن موجودة وقوية وذات شأن كما هي حالها اليوم ، وما محمد علي سوى مغامر افاك حالفه النجاح في مصر فتضخمت احلامه فاراد ان ينشىء له قيصرية تهيمن وتسيطر على الاقطار العربية ، كما وان روح العصر الذي عاش فيه محمد علي كانت تشجع مثل هذه الرغائب والمطامع .

انني كلما مررت بتاريخ محمد علي وبتاريخ حكم الاسرة العلوية في مصر يمتلأ قلبي حزناً وألماً ويعصف الغضب والحقد بعاطفتي، ان تاريخ محمدعلي وتاريخ أسرته يظهر لنا بجلاء مدى الاضرار الفادحة التي تنزلها قوة دخيلة على العرب بالقومية العربية . فلقد رافقت ثورة محمد علي على الاتراك في مصر انتفاضة عربية أخرى في قطر عربي آخر، وأعني بتلك الانتفاضة ثورة الوهابيين في الجزيرة العربية وقد تمكن الوهابيون بقيادة آل سعود من تحرير الحجاز وتوحيد نجد وتهديد العراق. لقد كانت كل الظروف الدولية أنذاك تساعد محمد علي على ادماج حركته بحركة الوهابيين وتحرير العالم العربي من نير العثمانيين واقامـــة دولة عربية متحدة تضم معظم الاقطار العربية في آسيا ، ولكن هيهات لمن كان غير عربي ان يتحسس بمشاعر العرب وان يسعى لتنفيذ رغائبهم ، اذ ان محمد علي الالباني الدخيل على العروبة توجه بما يمتلك من قوى الى الجزيرة العربية ليقهر العناصر العربية الاصيلة الثائرة على الاستعباد التركي ، وليعيدها الى نير العثمانين .

ان تاريخ محمد علي وتاريخ أسرته خير مثال على ما تلحقه ثورة منحرفة من كوارث بانتفاضة شعب وثورة أمة .

هـ ـ بين الانقلاب والثورة

قلت في مطلع كتابي ان الثورة هي انفجار اجتماعي ينسف نظاماً كاملا بجميع ماله من مؤسسات واحزاب وقيم وعقائد وتقاليد ، بغية احلال نظام جديد بديلا عنه، اما الانقلاب فانما يرمي الى ازاحة هيئة تشرف على ادارة وتنفيذ نظام معين بغية احلال هيئة اخرى تقوم مقامها وتحكم بدلا عنها ، لكن لاتمس او تتعرض للنظام القائم في تركيبه الاقتصادي والاجتماعي ومن ثم فى اتجاهه السياسي .

بماورد تبين ان في الثورة تتبادل ، او بالاحرى تغتصب الحكم طبقة شعبية من طبقة شعبية اخرى وتوجه الحكم في كل مجالاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسة الوجهة التي تؤمن مصالح الطبقة المغتصبة للحكم، اما في الانقلاب فان ابناء الطبقة الواحدة يصطرعون فيما بينهم ويتغلب القوي منهم على الضعيف ، غير ان النتيجة لغلبة الابناء الاقوياء لتلك الطبقة لاتؤدي ابداً الى تبديل الاتجاه بالحكم وفي كل مجالاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل انها تحافظ على ذاك الاتجاه فتقتصر المنافع المادية والمعنوية للنظام القائم على الطبقة التي كانت تمثلها الهيئة المقلوبة ، ومن ثم جاءت الهيئة الجديدة لتتابع تمثيلها وتنفيذ ارادتها .

وهكذا يتبين لنا أن الانقلاب ومهامه مقصورة على معالجة المظاهر والقشور بينما ان الثورة ومهامها تتعدى معالجة المظاهر والقشور الى سحق الجوهر واقتلاع الجذور.

والانقلاب يقع عندما يتعثر النظام القائم ، اما نتيجة لسوء الادارة او الضعف او الاثرة الجامحة لبيئة معينة داخل الطبقة التي تمثل النظام القائم .

كما وان الانقلاب يحدث ايضاً عندما ترى فئة قوية من ابناء الطبقة الحاكمة ان النظام القائم كاد ينحرف عن رسالته فيتطور الى ان تصبح فوائده اكثر شمولا بحيث تتعدى تلك الفوائد ابناء الطبقة الحاكمة الى طبقة اخرى (انقلاب غواتيمالا ـ محاولات الانقلاب في سورية) اذ ان الفئة القوية ترى في مثل التطور ذاك ارهاصات لثورة اجتماعية تهدد بقاءها ونفوذها وسلطانها بالزوال : لذلك تندفع تلك الفئة القوية الى اغتصاب السلطة بغية تدعيم سلطان النظام القائم وبالتالي تدعيم الطبقة التي انبثق عن

مصالحها ذلك النظام .

لقد اصبح الآن من المتفق عليه ان الثورة الفرنسية مع جميع ماتبنته من شعارات انسانية ونادت به من مساواة وحرية واخاء ، فانها كانت (الثورة الفرنسية) في جوهرها ثورة البرجوازية الامبريالية الاوروبية الحديثة لذلك سمحت تلك الثورة ، او بالاحرى سمحت الطبقة الحقيقية القائمة على تلك الثورة ـ الطبقة البرجوازية ـ باقتلاع جذور الاقطاع والطبقة الاقطاعية بكل مافي الثورة من اندفاع ولهب وعنف ، غير أن الطبقة البرجوازية عندما رأت أن أزمة الثورة تكاد تفلت من ايدي ابنائها وان اليعاقبة وزعيمهم روبسبير يعزمون من حيث يدرون اولايدرون ان لايقصروا ثمار الثورة على الطبقة البرجوازية بل انهم يريدون ان يشركوا جماهير الطبقة العاملة في هذه الثمار ايضا قامت تلك الطبقة البرجوازية ـ بتهيئة الانقلاب على روبسبير وبدفع حكومة الدير كتوار الى مناصب الحكم ، ومن ثم وعندما رأت الطبقة البرجوازية ان حكومة الدير كتوار اضعف من ان تمارس السلطان باسمها ـ أي الطبقة البرجوازية ـ دفعت نابليون الامبراطور الى شن حرب استعمارية بغية ايجاد متنفس لرؤوس الاموال النامية للبرجوازية الفرنسية .

وما الامثلة التي ضربتها بالثورة الفرنسية سوى خير برهان وشاهد على صحة النظرية التي قررتها في مطلع بحث موضوع الثورة والانقلاب .

اذن فالثورة الفرنسية ـ وهي ثورة واضحة سهلة الدرس ـ تمثل في كل مراحلها ثورة كاملة ـ ثورة طبقة على طبقة اخرى ـ البرجوازية على الاقطاع ومن ثم تمثل انقلابين ، الاول انقلاب على قادة ثوريين ارادوا ان ينحرفوا بالثورة عن اهداف الطبقة التي احتضنتها ومن ثم انقلاب آخر على الحاكمين من ابناء الطبقة التي احتضنت الثورة وذلك نتيجة لضعف وسوء ادارة اولئك .

والآن ننتقل الى العالم العربي ـ عالمنا ـ ذي القومية الثائرة ان اول ثورة شاهدها عالمنا في النصف الاول من القرن العشرين هي ثورة الحسين ، وقد قام بالفعل على هذه الثورة مزيج من الطبقة الاقطاعية العربية يشاركها بعض ابناء طبقة برجوازية ضعيفة

في دورها الجنيني الاول ، وكانت ثورة الحسين تقتصر اهدافها على قضية التحرر السياسي وقضية الوحدة العربية ، ولم تتعد هذه الاهداف الى معالجة تركيبنا الاقتصادي والاجتماعي ، بل ان هذه الثورة اتسمت وبقيت متصفة بكونها ثورة طبقة الاقطاع في سبيل تحرير ابنائها من ربقة الاستعمار التركي . ومع ان هذه الثورة قد استهوت الجماهير ، اذ ان الرباط الثوري الذي كان يشد الجماهير العربية اليها كان رباط التحرر السياسي غير ان تلك الثورة لم تفعل او تنفعل والرغائب الغامضة للجماهير العربية في التطور والتقدم والاصلاح ، ودليلي على ذلك انه عقب ان استكملت بعض الاقطار العربية استقلالها وخاصة سورية ولبنان ومصر كان الذين يتولون مقدرات الحكم في سورية ولبنان من جنود الثورة العربية - ثورة الحسين - غير ان وعي اولئك القادة لم يتجاوز قضية التحرر السياسي الى قضايا التطور والاصلاح لذلك حدثت الانقلابات في سورية والانقلاب الابيض في لبنان .

وكلنا يذكر ثورة الشعب العربي في مصر عام ١٩١٩ وقد ولدت تلك الثورة حزباً شعبياً ثورياً ، واعني بذلك الحزب حزب الوفد ، غير أنه سرعان ما انفضت جماهير الشعب العربي في مصر عن ذاك الحزب ونسته وتناسته عقب أن لمست أن أهداف حزب الوفد لاتتعدى قضايا التحرر السياسي الى قضايا الاصلاح الداخلي لذلك وجد عبد الناصر ورفاقه الطريق ممهده أمامه عندما قام بثورته وجعلها تأخذ على عاتقها مهمة ضرب نظام الاقطاع وسحق النظام السياسي الذي يستند اليه ، وبذلك قضى عبد الناصر ورفاقه على جميع المؤسسات والاحزاب التي كانت تسند ذاك النظام - النظام الاقطاعي الملكي - وقضى بالتالي على الحزب الذى كان يسمى بحزب **الاغلبية - حزب الوفد - وسبب نجاح عبد الناصر في القضاء على تلك القوة السياسية الضخمة - حزب الوفد - تعود الى كون حزب الوفد الذي رفعته الجماهير دائماً الى السلطان في كل انتخابات حرة قد انحرف عن رسالته الشعبية اذ انه أصبح بؤرة يعشعش فيه الاقطاع وتجد فيه الرأسمالية المصرية الشرهة - اقول الشرهة - لها ملاذا وملجأ .**

نحن لانذكر أن جميل مردم مثلاً ومصطفى النحاس كانا يمثلان فئة ثورية ، غير

أن الفئة التي كانا يمثلانها شاخت وانحلت ، ولم يتمكن شباب تلك الفئة الثائرة من الموت معها ، لذلك خرج من تلك الفئة جيل ثار عليها واندمج في الشعب انفعل معه وتفاعل فيه .

طابع ثورة القومية العربية :

من الامثلة الواردة أعلاه يتضح أن طابع الثورة والانقلابات في الاقطار العربية لايزال حتى الآن طابعاً برجوازياً بكل مالهذه الكلمة من معنى . وهذا القول الذي اورده خطير وخطر ، خطير اذ انه يقرر حقيقة واقعة لايستطيع من يتبنى المنطق والمعقولية أن ينكر فيه حرفاً واحداً أو ينقض من مفاهيمه مفهوماً واحداً ، وخطر لأنه يقول بان الثورة والانقلابات التي حدثت في الاقطار العربية انما هي ولادة لثورة جديدة تنتقل بطابع الثورات والانقلابات الحالية من حيث هو طابع برجوازي الى صيرورته طابعاً جماهيرياً .

وهنا تبرز المهمة الاساسية للثوريين العرب الأصلاء ، واعني بهذه المهمة تطوير الثورة الحالية وذلك بمراقبة الطبقة البرجوازية مراقبة دقيقة وحذرة بحيث تمنع الطبقة البرجوازية من الاستئثار بثمار الانتفاضات الشعبية النابعة من الرغائب الشعبية العميقة في التطور والتقدم والاصلاح .

وهنا تبرز الحكمة المستترة وراء المادة التي جاءت في الدستور المصري والقائلة بمنع سيطرة رأس المال على الحكم . ومفهوم هذه المادة في منطق ثورة القومية العربية يتلخص في أن على الدولة الثورية الحاكمة ان تجرد رأس المال من العنصر الشخصي ، أي أن تمنع الرأسماليين من حرية اعادة توظيف الارباح في المشروعات التي تدر منافع شخصية اكثر من منافع عامة ، وهذا مايعني ضمناً ان الحكم يرى بالاخذ في سياسة اقتصادية تنهيجية ، تخضع المشروعات الفردية للمشروعات العامة وذلك عن طريق حرية الحكم في فرض واشتراع نظـــام ضرائبي يتفق وصالح الاكثرية الساحقة من الجماهير . فالحكم كما لاشك يعلم القاريء لايتمثل بالشرطي او المدير اللذين ينفذان ما لديهما من اوامر ادارية فحسب ، بل انما يتعلق بجهاز

دولة يأخذ على عاتقه تنفيذ سياسة تتوخى في هدفها النهائي صالح المجموعة الكبرى من الشعب .

والطريقة المثلى التي انصح بها الثوريين العرب في انتهاجها والطبقة البرجوازية التي هي في الوقت الحاضر في مركز بالغ الاهمية بالنسبة لثورة القومية العربية ، هي في ان توجه سياسة الدولة في صالح اغناء رأس المال لافي صالح اغناء ارباح الرأسماليين ، وذلك بغية ايجاد امكانات تحقيق عدل اجتماعي فنحن نمر كما قلت آنفاً في طريق تطورنا بمرحلة الرأسمالية ، وواقعنا الاجتماعي ، اقول الاجتماعي ، من الناحية الثقافية في وجهتي الفن والادارة يحتم علينا ان نسند الطبقة البرجوازية ، طالما ان هذه الطبقة تنشط وتقوم بوظيفة المدير ، اقول المدير فقط للمشروعات الاقتصادية وانني لواثق من انه اذا استطعنا ان نطبق هذه السياسة التي اشرت اليها آنفاً ، عندئذ يصبح باستطاعتنا ان نغير طابع ثورة القومية العربية من حيث هو طابع برجوازي الى حيث يكون طابعاً جماهيريا .

عندئذ يستطيع المتعمق في خطواتنا من الوجهة التكتيكية ان يتفهم بيسر ان مايبدو له من طابع برجوازي يطبع ثورتنا - ثورة القومية العربية - فانما هو سراب خادع ناشيء عن كون المرحلة التي نمر فيها اليوم هي مرحلة الرأسمالية - رأسمالية الدولة - غير انها تختلف عن رأسمالية الدولة بالمفهوم العلمي لهذا النوع من الرأسمالية ، وذلك من حيث ان رأسمالية الدولة في مفهوم القومية العربية هي تلك التي تحافظ على الملكية الخاصة من حيث الشكل فقط غير انها تلغيها من حيث الاصل وذلك لان الدولة الثورية المنبثقة عن مباديء واهداف القومية العربية جوهرها الجوهر لا المظهر ، فهي طالما ترى أن فوائد رأس المال وارباحه لا تعود على ابناء الطبقة البرجوازية فحسب بل انما تتعداهم على صورة اوسع الى الجماهير الشعبية وذلك عن طريق اغناء رأس المال القومي العامل لتوفير امكانات تطبيق العدل الاجتماعي .

كما وأنني انصح في الوقت ذاته بان ننهج السبيل ذاته التي تنهجه الصين الشعبية في معاملتها للطبقة البرجوازية في بلدها ، وهذا السبيل يتلخص في ان تدخل الدولة بالذات مساهمة في المشروعات الفردية وذلك في حالة توفر الاموال الكافية لدى الدولة ، ومن ثم تشتري الدولة بما يتجمع لديها من الارباح المزيد من الاسهم في المشروع المساهمة فيه ، وهذه الخطة جد حكيمة اذ انها اولا توفر للدولة رقابة فعالة على توجيه المشروعات الفردية وذلك عن طريق ممثلي الدولة في مجالس ادارات تلك المشروعات ، ومن ثم تصفي تدريجياً الملكية الفردية دون ان تثير زوابع او عواصف تجرف رؤوس الاموال خارج الوطن العربي كما وانها تتيح للدولة فرصة من الزمن تستطيع خلالها ان تدرب الاشخاص على اعمال التنظيم والادارة . اضف الى ذلك ان التفاعل بين الافكار الفردية وبين الافكار والخطط للدولة يؤديان حتما الى التوصل الى ابتكارات جديدة ووسائل جديدة تهبط بكلفة الانتاج وتزيد من فعاليات رأس المال وتنمي القدرة الشرائية لدى الجماهير ، كما وانه يتيح للدولة حين وضعها لبرامجها وتصاميمها ، هذه البرامج والتصاميم المفترض ان تنشط المشروعات الفردية ضمن نقاطها وداخل دائرتها ، اقول ان تلك الخطة تتيح لرجالات الدولة حين التخطيط فهما عمليا واقعياً يساعدهم على التنسيق بين المشروعات الفردية والمشروعات العامة بغية ايجاد انسجام ووفاق تامين بين عنصري الاقتصاد القومي ، العنصر الفردي والعنصر الرسمي .

وهناك حقيقة بارزة لا أستطيع وأنا أبحث موضوع طابع ثورة القومية العربية الا ان اتعرض اليها ، وهذه الحقيقة هي ارتباط الطبقة البرجوازية بالزراعة الواسعة « EXTENSIVE AGRICULTURE » التي تجري الآن في سهول الجزيرة العربية السورية هو ارتباط وثيق ولا أغالي اذ أقول ان الزراعة في الجزيرة **والنجاح الواسع الذي صادفته إنما كان ولا يزال بفضل رؤوس أموال الطبقة البرجوازية في الشعب العربي في سورية ، اذ أن هذه الطبقة ونتيجة للجمود الذي يسود منطقتها يجعلها دائماً وأبدا تسعى الى توظيف رؤوس**

أموالها في مشاريع قصيرة الأمد - كالمشاريع الموسمية -

عودة الى المخضرمين :

قلت ان المخضرمين من أمثال جميل مردم ومصطفى النحاس كانوا يمثلون فئة ثورية وقلت ايضاً ان طابع هذه الفئة كان يغلب عليه الطابع الاقطاعي والعائلية ، وقد تبنت هذه الفئة ثورة الشعوب العربية ضد الاستعمار في شكليه التركي والغربي غير انها أي الفئة المخضرمة - لم تأت على التركيب الاجتماعي السيء الفاسد الذي خلفه الاستعمار وراءه في الاقطار العربية التي حققت استقلالها ، وذلك لان ثورتها على المساوىء والمفاسد في التراكيب الاجتماعية التي كانت قائمة آنذاك تعني بصورة مباشرة ثورتها على نفسها أو بمعنى أدق ثورتها على طبقتهـــا بالذات وعلى النظام الاجتماعيّ الذي تمثله ويؤمن لها مصالحها الاقتصادية والسياسية ، وأعني بهذا النظام - نظام الاقطاع والعائلية .

ولما كان من ابرز طبائع الحياة الحركة والتقـدم وتوسيع دوائر المنافع ، وامتداد هذه المنافع الى الجماهير لذلك كانت الثورة والانقلابات الثورية - اقول الثورية بكل تحفظ - ضرورة محتومة ، وتطوراً تاريخياً تلزم حدوثه قوانـــين التقدم وسنن الارتقاء والنشوء .

وهناك بادرة تاريخية مذهلة ، تتنافى وقوانين الثورات التي نشبت في اوربا وذلك فيما يتعلق بعهود المخضرمين في كل من سورية ومصر ، وأعني بهذه البادرة تآخي او بالاحرى تعاون أبناء الطبقة البرجوازية في عهدها الطفولي وطبقة الاقطاع والعائلية مـــع كون المنطق التطوري للتاريخ يرفض هذا التعاون بل بالعكس يرى فيه استحالة مادية لايمكن ان تتم اوتحدث ، غير أننا نحن الذين رافقنا عهد حـــكم المخضرمين في كل من سورية ومصر قدلمسنا هذه الحقيقة لمس اليد ورأيناها تعيش في مجتمعنا ورأينا بام عيننا البرجوازية الحدثة تتعاون او بالاحرى تدعم حكم أنظمة المخضرمين في كل عهودهم فما السر في ذلك ؟

ان السر يكمن أولاً وأخيراً في الزواج المصلحي الذي كان ولايزال حـتى الآن قائماً بين كبار ملاك الاراضي واصحاب المؤسسات والمشروعات الفردية .

فعندما رأى ابناء طبقة ملاك الاراضي ان الفوائد المادية تؤمن وبصورة مضمونة في حالة توظيف بعض ريعهم من مردود الارض في المشروعات الفردية انتقل هؤلاء الملاك الى الاسهام في تلك المشروعات كما وأن كبار الزراع اخذوا يشترون او يقيمون الابنية في المدن ويؤجرونها ، كما وأن البعض الآخر منهم اخذ يمارس بصورة شخصية ودون وسيط اعمال تصدير منتوجاته الزراعية وبيعها في كل من السوقين الداخلية والخارجية - مؤسسة اصفر ونجار - في سورية اضف الى ذلك ان الطبقة البرجوازية في المدينة نفسها عندما رأت ان توظيف اموالها في مشروعات زراعية يعود عليها بالفوائد بادرت الى هذا العمل ، وكلنا يذكر الحمى التي انتابت بعض المتمولين في الدور الاول لزراعة القطن في سورية ، كما وان بعض المؤسسات المنشأة حديثاً كمعمل السكر في سورية ، اخذ بنفسه يمارس اعمال زراعة الشوندر السكري الى غير ذلك من الامثلة .

وقد ادى هذا الواقع - واقع المنفعة - الى اندماج مصلحي بين العائلية والاقطاع وبين البرجوازية الحديثة ، وهذا هو السر في التعاون المتناقض تاريخيا اقول المتناقض تاريخيا والذي كان قائماً بين الملاك الزراعيين وبين طبقة البرجوازية الحديثة .

اما في مصر ، وحزب الوفد المصري كما قلت آنفاً كان يمثل زواجاً موفقاً بين الاقطاع والبرجوازية ، فسر التوفيق في هذا الزواج يعود اولاً واخيراً الى حقيقة اولية وهي عقم توظيف الارباح التي تعود بها الزراعة في الريف المصري اذ ان تكاليف الاستصلاح الزراعي في مصر تكاليف غير تجارية ، لذلك اتجه ابناء طبقة الاقطاع بالفائض من مردود الارض الى المشروعات التجارية والصناعية ، وهذه الحقيقة ادت كما ادت في سورية الى الاندماج المصلحي بين طبقتي الاقطاع والبرجوازية الحديثة . ولما كان هذا الاندماج المصلحي بين هاتين الطبقتين لم يكن موجها في كلياته او جزءياته الوجهة التي يمكن ان تعود بالنهاية على الجماهير الشعبية بالخير والنفع ، لذلك حدثت الثورات ووقعت الانقلابات ، اذ ان بقاء الاحوال على حالها كان يعني فرض **الجمود على الحياة ، وهذا معناه التعارض والقانون الاساسي للحياة ،**

القانون القائل بان الحياة حركة متطورة تأبى الوقوف او الجمود وتندفع ابداً ودوماً الى الامام . وقبل ان اختتم بحثي في المخضرمين وعهودهم تفرض علي الحقيقة وتجردي المطلق للحق القول بان المخضرمين قد ادوا خدمات جلى للجماهير الشعبية في كفاحها السياسي ، هذا الكفاح المتمثل بالتحرر من الاستعمار ، غير انهم لم يتمكنوا – او بالاحرى – لم تمكنهم الروح الطبقية التي كانت تسيطر على منطق ووجدان طبقتهم من الاسهام في الكفاح الاجتماعي ، ولقد وقف المخضرمون من الكفاح الاجتماعي موقف المعارض لرغبات الجماهير واهدافهـــا وأصبحوا يرون في الكفاح الاجتماعي الذي تخوض غماره الجماهـــير الشعبية تعارضاً خطراً على مصالحهم الطبقية وتهديداً خطيراً لوجودهم السياسي وبذلـــك فرض المخضرمون – أو على صورة أدق – فرضت طبيعة الطبقة التي ينتمون اليها ، عليهم الانحلال والموت .

لقد رأى المخضرمون في الاستقلال السياسي الغاية النهائية لكل صراع او كفاح جماهيري ، وهذه العقيدة الخاطئة **الضالة المضللة ، هي التي قذفت بهم – المخضرمين – من السلطان ، اذ أن منطق الجماهير في امانيه الغامضة ترى في الاستقلال وسيلة الى غاية وليس بغاية مجردة اما هذه الغاية فهي التحرر من الفقر ، والتحرر من الخوف والمشاركة مشاركة فعالة في بناء الدولة وتوجيـه النظام القائم الوجهة التي تدعم كرامة الانسان وكرامة الجنس البشري.** وهذه الحقيقة ، حقيقة كون الاستقلال غاية لاوسيلة وعجز المخضرمين عن تفهمها ، هي التي أشعلت نيران الثورة في مصر وأجرت سلسلة الانقلابات الثورية – واقول الثورية ثانية بكل تحفظ – في سورية وهي التي ستؤدي في النتيجة الى اشعال الثورات واحـداث الانقلابات في بقية الاقطار العربية الاخرى .

بين الثورة في مصر والانقلابات في سورية :

شاهد العالم العربي عقب الأحـداث والمآسي التي مثلت على مسرح فلسطين

انتفاضات شعبية نابعة من أعمق أغوار نفس الجماهير العربيـة ، وكانت أول هذه الانتفاضات انقلاب حسني الزعيم ومن ثم الانقلاب على حسني الزعيم بقيادة سامي الحناوي ومن ثم الانقلاب على الحنـــاوي بقيادة الشيشكلي ، ومن ثم انقـلاب الشيشكلي على السلطة القائمة وأخيراً الانقلاب على الشيشكلي بقيادة الجيش كمجموعة تقدمية ، هذا في سورية أما في مصر فحدثت الثورة بقيادة جمـال عبد الناصر ورفاقه من الضباط واطاحت بعرش واودت بملك وهدمت نظاما اقطاعياً فاسداً ظالماً مستبداً .

كل هـذه الاحداث جرت في حقبة قصيرة ومذهلة في قصرها عقب كارثة القومية العربية في فلسطين ، لقـد نبهت هذه الكارثة اذهان الجماهير ووجـدانهم وفتحت اعينهم على التركيب الاجتماعي الفاسد الذي يلجمه رغائب الجماهـير العربية في التطور والتقدم .

والحق أن خلق دولة اسرائيل في قلب العـالم العربي قد دفـــع بالوعي الثوري في الشعوب العربية مراحل هائلة الى الامام ، ولولا اسرائيل ، وشعور الشعوب العربية بالخطر المميت الذي تشكله هـــذه الدولة على وجود العرب المادي والمعنوي ، لسارت خطوات الشعوب العربية وئيـــدة متئدة في طريق الثورة التي نعيش اليوم ساعاتها المشرقة ، ونحمل مشاعلها في كل قطر عربي ونستضيء بنورها في سراديب السياسة الدولية .

لقد ارغمت اسرائيل جماهير الشعوب العربية على التفتيش عن اسباب النكبة، وبذلك أضرمت اسرائيـل جذوة الثورة في نفوس العرب ، فأخذ القوميون العرب الذين أشعلت النكبة في فلسطين جذوة الثورة المقدسة في وجدانهم وضمائرهم ومنطقهم بمراجعة جميع ما تملك من مؤسسات ومن أنظمة ودراسة كل ما لهـذه الانظمة من مشتقات تتمثل في سلطات تشريعية وتنفيذية وطبقية . نعم ان النـار التي اشعلها الاستعمار والصهيونية في فلسطين والتي أكلت حقوق ومقدسات شعب عربي أبي ، قد اضاءت وهي ترعى في أجساد أخواننا الطريق لنا ، الى سحق

الفاسد وتدمير الانظمة الاجتماعية التي كانت تعيش في كل من سورية ومصر ، وانني لأرى بعين الامـــل الوطيد ، وألمس بيد القناعـة الراسخة ، وأشعر بكل مالي من حواس بحرارة الثورة - ثورة القومية العربية ، منبعثة من لهب الثورة المقدس المتصاعد عالياً عالياً والذي يرعى نهاشرها غاضباً حاقداً ، كل المظالم الاجتماعية في كل قطر عربي ، في عالم باكمله عالم يمتد من المحيط الاطلسي وينتهي بالخليج العربي ليبدأ من جديد امتداده اللانهائي في عالم الانسانية على ظهر هـــذا الكوكب والكواكب الاخرى ، في هـــذا النظام الشمسي وفي الانظمة الشمسية الاخرى .

هذه المراجعة الاليمة والدراسة التاريخية العميقة التي اوجبتها علينـــا ارادة الحياة اولا والاستعمار والصهيونيـة ثانياً كان لها الفضل كل الفضل في دفـــع موكب الثورة الى الامام ، لذلك ماكاد المذيع في صباح الثلاثين من مارس عام ١٩٤٩ يعلن عن ان انقلابا عسكريا قد جرف السلطة القائمة برئيسهـــا وبرلمانها وحكومتها حتى انطلقت الجماهير لتعانق الجنود مؤملـــة ان ترى في قبضاتهم المعاول التي ستهدم تركيباً اجتماعياً فاسداً لتبني نظاماً اجتماعياً جديداً يحوي كل صالح وينفي كل طالح ، وبذات المشاعر وبنفس الاحـــاسيس استقبلت الجماهير العربية في القطر المصري يوم ٢٣ تموز عام ١٩٥٢ .

غير ان هذه الحقيقة لم تنف ان ما قام في سورية كان انقلاباً ذا طابع ثوري ولم يكن كما كان في مصر ثورة ذات طابع ثوري أصيل بكل مالثورة من معنى وحقيقة ومفهوم ، ومع هذا فان الحدثين التاريخيين الهامين اللذين وقعا في كل من مصر وسورية خلفا ذات النتائج الثورية وراءهما مع اختلاف نوعيها علماً ومفهوماً . فما هو السر في ذلك ؟ وماهو السبب او الاسباب التي جعلت عملين مختلفين في أصلهما وطبائعهما يؤديان نفس النتائج ويأتيان بردود الافعال ذاتها في كل من سورية ومصر ، أضف الى ذلك ان الانقلابات العسكرية ، مع كونها انقلابات وليست بثورات ، قـــد غاصت عميقا عميقاً

بالوعي الثوري في نفوس الجماهير العربية في القطر السوري وجعلت المفهوم الثوري للشعب العربي في سوريا اكثر اكتمالا وعمقا وشمـــولا منه للمفهوم والوعي الثوريين لدى الشعب العربي في مصر ؟

ما هو اذن السبب الاصيل الذي دعى الى حـدوث ثورة في مصر وانقلابات في سورية ؟

ان الجواب على هذه الاسئلة يتلخص في اختلاف العوامل في المناخـــات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ومن ثم النفسية بعضهـا عن بعض في كل من سورية ومصر ، اذ ان كل ثورة ناجحة هي تلك التي تتعامل وماهو كائن بغية تطويره الى ماتريد له ان يكون ، وهذا مايعني « تأقلم » الثورة روحاً ومادة .

ان اولى الحقائق هي ان سورية لم تكن كمصر بحاجة الى ثورة ، وذلك لان نظامها ـ نظام الحكم فيها ـ كان نظاماً اكثر تقدمية واشد قابلية للانطلاق بالجماهير من النظام الذي كان قائماً في مصر ، فسورية جمهوريـــة ومصر كانت حتى الثورة ملكية اقطاعية ، سورية كانت مبتلاة بنظام عائلي له طابـــع الاقطاع السياسي أكثر من طابع الاقطاع الاقتصادي ، ومصر كانت مبتلاة بنظام ملكي له الطابع الحقيقي للاقطاع في ميدانيه الاقتصادي والسياسي ، لذلك لم يكن من طريق امام الثوريين العرب في مصر الا هدم النظام الملكي المستند ، او بالاحرى المنبثق عن نظام اقطاعي يحسن تنظيم المظالم ويبدع في توزيع الاضرار والشرور . وطبيعة هذا العمل اقتضت الثوريين العرب في مصر انشاب ثورة تهدم الملكية لتهدم الاقطاع في حقليه الاقتصادي والسياسي ، فالملك لم يكن في مصر رأس السلطات بل كان بالاضافة الى ذلك اكبر ملاك للاراضي المنزرعـــة في القطر المصري قاطبة ، وهو بهذا يكون رأس طبقة كبار الملاك وعليه لهذه الطبقة التي هو رأسها وممثلها الفعلي واجبات الحماية والرعاية . وهو حينما يقوم بهـــذه الواجبات فانه بذلك لايحمي او يرعى ابناء الطبقة الاقطاعية فحسب ، بل انما

يقوم في الوقت ذاته بحماية نفسه ورعاية مصالحه وتدعيم اسبـــاب بقائه ، لذلك كان التركيب في السلطة القائمة قبل الثورة ذا هدف واحد وغاية واحدة تتمثل في الحفاظ على التركيب الاجتماعي الموجود ، دون التحسس بما يلحقه مثل هـذا التركيب الاجتماعي بالشعب من كوارث ونكبـــات وامتهان للكرامة الانسانية .

فمثلا لم يكن من الممكن ابداً ان يمر او يقر قانون كقانون الاصلاح الزراعي الا على جثة نظام سياسي كامل يتمثل بالنظام الملكي وبشخص الملك بالذات الذي كان المالك الأكبر للاراضي المنزرعة ، وكنا يذكر أن من الاسباب الرئيسية لسقوط وزارة على ماهر في الايام الاولى للثورة العربيـــة في اقطر كان قانون الاصلاح الزراعي القاضي بتحديد الملكيـة ، كما واننا نذكر ان كبار الملاك بذلوا المحاولات الحثيثة ورجال الثورة كي يجنبوا قادة الثورة من استصدار مثل هـــذا القانون وذهبوا في محاولاتهم تلك الى حد اقتراح رفع الضرائب على اراضيهم حتى نسب خيالية مـــع الاحتفاظ بحقوق الملكية لاقطاعاتهم الواسعة ، غير ان هذه المحاولات كانت جهوداً مهدورة وذلك لانهـا تتنافى ومنطق الثورة وتتعارض وضميرها ، فالثورة الشعبية عندما تندلع نيرانها لا تستهدف فقط نسف الاسس الذي يرتكز عليها النظام الاقتصادي بل ان الثورة عندما تقوم بنسف وتدمير مثل هذه الاسس فانما هي تقوم بالوقت ذاته بنسف وتدمير القواعد التي يرتكز عليها النظام السياسي ايضاً ، ولهذا رأت الثورة في مصر في محاولات رجـال الاقطاع تلك محاولات تتوخى الابقاء على السلطان السياسي للاقطاع اذ ، أنه يكفي ان يبقى للاقطاعيين حق الملكية كي يبقى لهم اثر هائل ونفوذ جبار في فرض سلطانهم السياسي عن طريق انتخابات نيابية او غيرها ، اذ ان بقاءهم كطبقة لملاك الاراضي وخاصة في بلد كمصر ريفه يكاد ينفجر بسكانه ، يجعل من رجالات الاقطاع قوة مرهوبة الجانب من الفلاحين

العاملين في اقطاعاتهم ، وهذا مما يبقي لهؤلاء حتى ولو جردتهم الثورة من الكثير من امتيازاتهم وحريتهم في ادارة الاراضي وتأجيرها وتحديد اسعار استئجارها وحماية الفلاح من التهجير والطرد الخ .. اقول ، ان احتفاظ رجالات الاقطاع بحق الملكية يعني بقاءهم قوة سياسية ذات شأن حاضراً فمستقبلاً ، ومن ثم ابقاء العقبات في طريق الجماهير الشعبية الى ممارسة سلطانها والمشاركة مشاركة فعلية في الحكم وتوجيه نظام الحكم في صالح الجماهير ، كما وانها تؤدي بالتالي الى اتاحة الفرصة لرجالات الاقطاع لاستجماع صفوفهم وتركيز قواهم وترقب اللحظة المناسبة للانقضاض على الثورة وتصفيتها .

لقد رأى رجالات الثورة في مصر ان من واجباتهم الاساسية ان لايتردوا في الشباك التي نصبها الاقطاع ، اذ ان ضمير الثورة لايرتاح ولن يرتاح نتيجة لما يدخل صندوق الحكومة من واردات نجيء نتيجة للعمل باقتراح الاقطاع ـ رفع الضريبة على اراضيهم ـ بل انما يرتاح فقط في ايجاد طبقة جديدة من صغار الملاك متحررة من الخوف اولا ومن العوز ثانيا كي تمارس حقوقها السياسية دون رهبة او وجل ، لذلك كان أمام الثورة ان تجرف في طريقها طبقة كاملة حكمت مصر لقرون عديدة حكما مليئاً بالمظالم والفساد والافساد والجور ، وان تأتي على نظام سياسي انبثق عن مصالح هذه الطبقة وعن تفرغه لخدمة هذه المصالح ولهذا اتصف الحدث الذي قام به الجيش العربي في مصر بكل صفات الثورة الاصيلة ، اذ انه هـــدم نظاماً اقتصاديا وآخر سياسياً بغية الاصلاح في التركيب الاجتماعي .

أما في سورية فان النظام السياسي كان اكثر تقدمية من النظام السياسي في مصر ، كما وان القواعد الاساسية التي استند اليها الدستور السوري السابق لدستورنا الحالي كانت في مجملها اكثر ديمقراطية واشد قابلية للتطور ومجاراة الجماهير

الشعبية في انطلاقاتها الثورية في مجالات التطور والتقدم من تلك التي كان يقوم عليها الدستور المصري .

أضف الى ذلك ان الديمقراطية في سورية من حيث التطبيق ، كانت حتى انقلاب حسني الزعيم اكثر تحققاً من الديمقراطية التي كانت تطبق وتنفذ في مصر .

ولذلك وبينما كنا نشاهد في سورية وخاصة في الولاية الثانية للسيد شكري القوتلي عناصر شعبية تتسلل الى الحكم او بالاحرى يرتفع بها الشعب الى هيئة التشريع ، بقي الطابع الاساسي للحكم في مصر طابعاً ارستقراطياً بكل مالمفهوم الارستقراطية من معنى ومفهوم . ولقد نشأت هذه الحقيقة عن ان نظام الحكم في سورية ، وأعني بذلك النظام الذي كان قائماً حتى انقلاب حسني الزعيم ، كان في روحه اكثر تسامحاً واكثر اتاحة للفرص من النظام الذي كان يسود مصر حتى قيام ثورة ١٩٥٢ .

وخير دليل على صحة ما أوردته آنفاً هو ذاك الجواب الواعي والذي اجاب به المغفور له سعد الله الجابري بعض رجالات الرجعة ، عندما طالبوه باتخاذ تدابير زجرية ضد المعارضة . لقد كان جوابه رحمه الله بما معناه :

« يجب ان نجعل المواطن يدرك الفروق بين عهدي الاستعمار والاستقلال والطريقة المثلى لتحقيق هذا الامر هي في اتاحة الفرصة له في انتقاد تصدفات الحكومة واعمال مؤسساتها . »

هذه لمحة سريعة على الفروق في العوامل السياسية التي كانت تكتنف النظامين الدستوريين في كل من مصر وسورية ، وهناك فروق اخرى بالغة الاهمية شديدة الخطر تتصف بكل صفات الحسم والتقرير وذلك في التركيب الاجتماعي القائم في كل من القطرين العربيين .

واول هذه الفروق كون طبقة الاقطاع في مصر اكثر تماسكا من مثيلتها في

سورية ، وبذلك كانت تلك الطبقة اكثر فعالية واشد قوة ، وكان لها نظام سياسي ممثل برأس الدولة الملك ـ يسندها ويدعمها ، كما وان البرجوازية المصرية الناشئة تكتلت في اكثريتها الساحقة وانضمت كما قلت في موضع آخر من هذا الكتاب الى رجالات الاقطاع القائمين على الامر في مصر . وقد تجلى تكتلها واضحاً في حزب الوفد المصري ، اضف الى ذلك ان القوى الثورية الناشئة في مصر كانت ضعيفة الى درجة جعلتها تلتمس الحماية بين صفوف الوفد وذلك نظراً لما كان لهذا الحزب من ماض ثوري في الميدان السياسي .

وقد يقول قائل ان حزب الوفد كان ماضيه حافلاً بالخلافات بين رجالاته وبين الملك ـ رأس الاقطاع ـ وهذا مايعني ان « الوفد المصري » كان على خلاف والاقطاع ؟ !

وهنا اجيب ان تلك الخلافات لم تكن يوما ما في جوهرها تدور حول قضايا أساسية بالنسبة لمصالح الشعب اذ انها لم تتعد في حقيقتها التناحر والتنافس بين الملك والوفد على الاستئثار بالسلطة والسلطان ، اما الشعب العربي في القطر المصري فكان غريبا عنها ، غير ان رغبته الغامضة في الاصلاح وقناعته بان النظام القائم هو المسؤول الاول عما يلحقه من مظالم **وتفهه السطحي لموقف حزب الوفد من الملك** ، كل هذه الامور جعلت الشعب العربي في مصر يرتفع عقب انتخابات حرة بحزب الوفد الى مراتب السلطان ، وذلك لكون حزب الوفد الحزب الوحيد بين الاحزاب المصرية ذي الماضي الصراعي والملك .

لقد كان بامكان حزب الوفد ان يوفر على مصر تدخل الجيش والقوات المسلحة الاخرى لانهاء النظام القائم وذلك لو انه كان بامكان الجناح اليساري في حزب الوفد وأعني بالجناح اليساري ، تلك الفئة الثورية من شباب مصر التي التمست لنفسها الحماية بين صفوفه ـ اقول لقد كان بامكان حزب الوفد المصري ان يوفر على مصر لو أن الفئة الثورية من شبابه تولت مقاليد الامور في الحزب ، غير ان حقيقة

ما حدث كان عكس ذلك تماماً ، اذ أن الجناح اليميني في حزب الوفد ممثلاً بعائلتي سراج الدين والبدراوي وغيرهما من العائلات ، هو الذي كان حتى قيام الثورة يسيطر سيطرة تامة على حزب الوفد ومقدراته .

وبذلك غدا حزب الوفد معقلاً للرجعية وحصناً للاقطاع بالرغم من المتناقضات الطبقية التي كانت تكتنف تركيبه الاساسي .

أما الفئة الثورية في سورية ، تلك الفئة التي أخذت تتبلور شيئاً فشيئاً عقب الاستقلال ، فأنها ونظراً لروح التسامح التي كانت تطغي على النظام السياسي القائم في سورية آنذاك لم تكن بحاجة الى التماس الحماية لدى الهيئة الحاكمة او الهيئة المعارضة للحكم ، ولذلك لم تدخل ، او بالاحرى لم تضطر الى الدخول ، في مساومات او مهادنات وبالتالي لم تصب بكبت عقائدي ، بل انها تابعت نشاطها في هدم مفهوم النظام القائم وتطوير جوهره تطويراً وان جاءت خطواته احيانا متخبطة ، واخرى متعثرة ؛ غير ان ارادة الحياة في الشعب كانت تصحح سيرها وترشدها وتلهمها يوماً بعد آخر خبرة وحساً سليما .

فاذا اضفنا الى الحقائق الواردة اعلاه حقيقة جوهرية اخرى وهي ان الفرد العربي في سورية ، ونتيجة لمختلف العوامل التي كونت نفسيته وفعلت في مشاعره جعلته يتمتع بفردية اشد بروزاً من فردية اخيه العربي في مصر ، وبالتالي اضفت عليه هذه الفردية روح المغامرة والثورة على الانظمة السياسية والاجتماعية وجعلته اسرع تفاعلا والاحداث . ولذلك كانت الحركة العربية تلقى لها ابداً ودوماً استجابة أعمق من تلك التي كانت تلقاها في مصر ، أضف الى ذلك ان الاستعمار من تركي وغربي لم يتمكن بالرغم من حثيث محاولاته ان يعزل الشعور العام في سورية عن الشعور العربي العام ، ففشلت حركة السوريين القوميين في العهد الحديث ، كما فشلت كل حركة أرادت ان تقنع العرب في سورية بان مصيرهم غير مرتبط بمصير اخوانهم العرب في مختلف اقطارهم ، والحق ان الانظمة

السياسية في مصر كانت حتى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قد حققت بعض النجاح في فصل الشعب العربي في القطر المصري وعزله عن بقية اجزاء الامة العربية في الاقطار الاخرى ، فنمت الحركة الفرعونية وتضخم عدد القائلين بمصر للمصريين حتى جاء عبد الناصر ورفاقه واكتشفوا الحقيقة الازلية الابدية بان الشعب في القطر المصري هو جزء من الامة العربية . ينفعل معها ويتفاعل ، تربطه بالعروبة والعرب اواصر لا انفكاك لها او انفصام ، يشترك وبقية اجزاء الامة العربية في مصير واحد ويسير واياها الى هدف مشترك ، ينظم تعامل العرب في مصر وبقية اخوانهم المساواة التامة الكاملة في الحقوق والواجبات .

فاذا اضفنا الى تلك العوامل عاملا اساسياً وهو ان سيطرة قبضة الاستعباد الاجتماعي في مصر كانت تضرب جماهير العرب بقسوة وعنف لم تشهد لها سورية في كل حقبات تاريخها مثيلا ، استطعنا عندئذ ان نتبين الفوارق في العوامل التي جعلت الفردية العربية في سورية اشد بروزاً واكثر قابلية للالتهاب والثورة على المظالم منها في مصر .

انني لا انحرف عن الموضوع - موضوع الفارق بين الثورة والانقلاب - اذ اتطرق الى حقيقة بارزة شاهدناها وما زلنا نشاهدها في تركيباتنا الاجتماعية القائمة في معظم الاقطار العربية ، واعني بهذه الحقيقة المظالم الاجتماعية التي شيد عليها الاستعمار التركي المجتمعات العربية ، ومن ثم جاء من بعده الاستعمار الغربي ليدعمها ويزيد فيها قسوة وحيفاً وجوراً .

فعقب انحلال الامبراطورية الاسلامية او بالاحرى جامعة الشعوب الاسلامية ، وعقب ان تمكن الاتراك من السيطرة على البلاد العربية واستعمارها ، ادرك المستعمرون من العثمانيين ان لاسبيل الى بقاء نفوذهم في دنيا العرب ولا سبيل الى اخضاع العرب الى حكمهم وسلطانهم الا باستعباد العرب استعباداً اجتماعياً ينزل بالعرب افدح المظالم واشدها اهدارا للكرامة الانسانية ، وقد ادرك العثمانيون ان تحقيق

هذه الغاية لايتم الا اذا تحكمت فئة قليلة وغريبة عن العرب بأسباب الوجود المادي للجماهير العربية ، فكان ان اقدم العثمانيون على استيراد الدخلاء الغرباء عن العروبة والعرب الى البلاد العربية واقطعوهم الاقطاعيات الواسعة واباحوا لهم حرية التصرف ، فكان هؤلاء الاقطاعيون لايتصرفون وينهبون ويسرقون اتعاب ومجهودات الجماهير العربية التي اقتطعت لكبار الملاك مع اقطاعياتهم فقط ، بل ان هؤلاء المجرمين كثيرا ماكانوا يمتهنون الكرامات ، ويزدرون كل المقدسات الانسانية ؛ لقد عاش اولئك المجرمون مخالب للاستعمار وركائز لسلطانه .

والمدقق بانساب كبار الملاك في معظم البلاد العربية ليدرك ان معظمهم ، ان لم يكن جميعهم ، غرباء دخلاء على العرب والعروبة .

وهنا أيضا توجب علي الامانة والصدق أن أتطرق الى بحث الفوارق في سلوك طبقتي الملاك في كل من مصر وسورية ، ان طبقة الملاك في مصر عاشت ابداً غريبة عن الشعب في أحاسيسه الوطنية وذلك في حقل التحرر السياسي ، وموقف هذه الطبقة من حركة أحمد عرابي خير مصداق لما أوردته . وهي لم تنضم الى العمل السياسي في حزب الوفد المصري الا لتعطل نشاطاته ولتلجمه او بالاحرى لتمنعه من ولوج مجالات الاصلاح الاقتصادي ، وهي ايضاً لم تنفعل ونشاطات التحرر السياسي الا عندما وجدت ان هذه النشاطات ستكون لها نتائج ايجابية وان من صالحها ان تساند هذه النشاطات وتغذيها ، وان عليها احيانا ان تندمج فيها بغية المحافظة على الطابع الارستقراطي لنظام الحكم القائم ، ولذلك فنحن اذا دققنا النظر بالزعماء الحقيقيين الذين قادوا حركات التحرر السياسي في مصر لوجدنا غالبيتهم اما من ابناء طبقة الفلاحين او ابناء الطبقة الوسطى - احمد عرابي - سعد زغلول - مصطفى النحاس - غير انه من المؤسف ان حزب الوفد المصري لم يستطع طيلة مراحل حياته ان يحافظ على مغزى الصراع الجماهيري وان يخطو بمغزاه الى مفهوم القضاء على الاستعباد الاجتماعي ، فكان الطلب الاول لمصطفى النحاس الذي جاء الى الحكم آخر مرة وعقب انتخابات ثورية اشعرت فاروق واشعرت النظام القائم

آنذاك بدنو أجله ، أقول كان المطلب الاول لمصطفى النحاس من الملك فاروق السماح له بتقبيل يدي « ولي الأمر » ، وهذه الحادثة وان خالها البعض ملقاً وتملقاً من رئيس منتخب من أغلبية **ساحقة من الشعب العربي في القطر المصري ، انما تدل في جوهرها على الانحلال النهائي الذي بلغه حزب الوفد ، هـذا الانحلال الذي لم يجعله فقط خادماً للاقطاع بل جزءاً اساسياً منه ، لقد كان بامكان مصطفى النحاس وعقب تلك الانتخابات** الثورية ان يفرض على الملك ارادة الشعب في التحرر والاصلاح ، وكان فاروق خائفاً هلعاً ومستعداً للاستجابة للمطالب الشعبية ، لكن أننا لحزب الوفد أن يفعل ذلك ، وهو كحزب قد استسلم استسلاماً مطلقاً للاقطاع والرجعية .

وهنا وقبل أن استرسل في بحثي اود أن اقرر حقيقة اؤمن بها وأدين بما تنص عليه من عقيدة ومبدأ ، وهي انني كعربي ، حينما بحثت موقف الدخلاء على العرب والعروبة من قضايا جماهير الامة العربية ، هؤلاء الدخلاء المتمثلين بطبقة كبار الملاك ، فانما تطرقت الى بحث هذا الموضوع مدفوعاً فقط بتقرير حقيقة تاريخية كان لها بالغ الأثر على التركيب الاجتماعي في معظم البلاد العربية ، والله يشهد انني آخر من يؤمن بالتفرقة العنصرية وآخر من يريد للقومية العربية ان تغدو قومية عدوانية تؤمن بتفوق العنصر او الجنس . وأنا لا استطيع ان انكر او اتنكر لبعض القوميات التي اندمجت في القومية العربية وأخلصت لقضايا العرب وخط أبناؤها وأبناء العروبة تاريخاً متألقاً بجلائل الاعمال مشرقاً بانصعها انسانية واغزرها حباً للخير والجنس البشري ، كاخواننا الاكراد مثلاً . هـذه حقيقة لابد من تقريرها وذلك كي لا أتهم بانني أرى الانسانية تنتهي عند حدود العالم العربي .

اذا أضفنا الى جميع هذه العوامل الآنفة الذكر عوامل التطور الاقتصادي الهائل الذي شاهدته سورية عقب الحرب العالمية الثانية وقابلنا هـذا التقدم وانعكاساته على المجتمع العربي في القطر السوري بالتطور البطيء نسبياً للاقتصاد

المصري ، او بالاحرى بقلة المردود الذي عاد على جماهير العرب في مصر نتيجة لذاك التطور ، لادركنا آنذاك الاسباب التي جعلت الثورة محتومة في مصر وجعلت الانقلابات العسكرية في سورية تعطي النتائج ذاتها من حيث الوعي والادراك الثوريين في كل من القطرين العربيين ، ومن ثم جعلت بالتالي للثورة في مصر زعماء يوجهونها ويقودون الجماهير على الطريق الثوري المحتوم ويفرضون ارادة الثورة فرضاً بينما حرمت الشعب في القطر السوري من مثل هـــذه الظاهرة ـ ظاهرة الثورة ذات الزعامة ـ .

واول هذه العوامل كون امكانات التقدم الاقتصادي وبالتالي التطور الاجتماعي في القطر العربي السوري اكثر غزارة واشد دفقا واقل نفقة . وهنا ارى من المفيد ان اعود فأنقل مقالا كنت قد كتبته في جريدة « النضال » المحتجبة بتاريخ ٣ حزيران عام ١٩٥٦ وفي العدد رقم ٣٤١٥ .

وانني لاستميح القراء الكرام عذراً اذا ورد في هذا المقال تكرار لبعض الحقائق التي كنت قد ذكرتها في صفحات سابقة من هذا الكتاب . قلت آنذاك مايلي : يتساءل الكثيرون عن الاسباب التي ادت الى نجاح الثورة في مصـــر وفشل الانقلابات العسكرية في سورية ، (هذا الفشل المتمثل بالانقلاب على كل انقلاب) ويحاول هؤلاء ان يردوا هـذه الاسباب الى كون الشعب العربي في اقليم مصر اعمق رغبة في التطور والاصلاح من شقيقه في سورية . غير ان هذا القول يتنافى وجميع القوانين التاريخية ويتعارض وابسط بديهيات سنن التطور والنشوء ، هذه السنن التي تنبع من اعماق الرغبات الشعبية في حياة كريمة وفي مجتمع سعيد يكفل الانسان من المهد الى اللحد ويقضي على الشبح الذي مازال يروع الانسانية ويقض مضجعها منذ الفجر الانساني الاول حتى يومنا هذا ، واعني بهذا الشبح شبح الخوف من الغد .

وهذه الرغبات الشعبية تستحيل يوما بعد آخر الى ارادة ، ارادة اذا ضاقت بها القيود الاجتماعيـــة والاقتصادية ، ووقفت في طريقها اثرة طبقية ، وسدت

السبل امامها انظمة سياسية اوجدت لحماية القيود الاجتماعية والاقتصادية واوقفت نشاطاتها على حماية الاثرة الطبقية عندئذ تتسلح هذه الارادة بسواعد الشعب الفولاذية لتحطم جميع العقبات الآنفة الذكر ولتكنسها من طريقها بمكنسة الحياة .

وهذه العملية يطلق عليها التاريخ والمؤرخون اسم الثورة ، وهي احيانا ينجزها الشعب واخرى يقوم بها الجيش باسم الشعب ، ولهذا فان الثورة الشعبية او الثورة الشعبية ذات الطابع العسكري لاتقف عند حدود السلطة القائمة بل تتعدى هذه الحدود الى تحطيم الانظمة الاقتصادية والاجتماعية ، هذه الانظمة التي كانت في مصر تشد الشعب الى نظام اقطاعي جائر استنزف اسباب بقائه ؛ لذلك فان اللطمة الاولى التي اكسبت الحركة العسكرية في مصر مزايا الثورة وأضفت كل صفات الثورة عليها كانت متمثلة بقانون الاصلاح الزراعي ، هذا القانون الذي انهى عهد الاقطاع في مصر .

أما فيما يتعلق بانهاء التنظيم الرأسمالي للاقتصاد المصري في وجهتيه الصناعية والتجارية فان جمال عبد الناصر ورفاقه لو أقدموا على مثل هذه الفعل لكانت عندئذ الثورة قد انحدرت انحداراً مروعاً الى مرتبة الانكارية فالفوضوية ومن ثم العدمية . وذلك للاسباب الآتية :

أ ـ كون الرأسمالية المصرية لاتزال في الطور الجنيني .

ب ـ كون الجهود الفردية لاتزال ضرورة ملحة ولازمة لتطوير رأس المال القومي وزيادة فعالياته .

ج ـ كون المجتمع المصري ملزماً بالمرور في مرحلة الرأسمالية في طريقة الى الاشتراكية والعدالة الاجتماعية .

د ـ كون الادارة الفردية للمشروعات الاقتصادية قد اثبتت انها اكثر فعالية وحيوية ومن ثم اغزر انتاجاً من الادارة الحكومية .

هـ ـ كون الحكومة المصرية وكل الحكومات العربية وحتى حكومات بلدان الشرق الاوسط لاتزال تفتقر الى الجهاز او الاجهزة الادارية والفنية التي تمكن تلك

الحكومات من ادارة المشروعات الفردية ادارة جماعية .

و ـ كون الانماء الاقتصادي في منطقة الشرق الاوسط بمسيس الحاجة الى التعاون المخلص بين المجهودات العامة والمجهودات الفردية واتخاذ اجراءات ذات طابع « توتليتاري » مما يؤدي حتما الى انكماش المجهودات الفردية .

ز ـ كون العقلية والتربية الاقتصاديتين لمعظم الشعوب العربية وشعوب منطقة الشرق الاوسط لاتزالان حتى اليوم في مرحلة بدائية وذلك فيما يتعلق بالمشروعات الاقتصادية الواسعة .

ح ـ كون ثقة الافراد لاتزال حتى الآن مزعزعة بالمشروعات العامة وحتى الخاصة ايضاً ولذلك لاتزال تعتبر المساهمة في المشروعات الاقتصادية من عامة وخاصة مغامرة اكثر منها عملية اقتصادية مضمونة الربح .

ط ـ كون منطقة الشرق الاوسط عامة والبلاد العربية خاصة بمسيس الحاجة الى رساميل أجنبية تنشط في المجالات الاقتصادية العربية بغية الاسراع في السير على طريق الاشتراكية والعدالة الاجتماعية .

هذه الاسباب مجتمعة ومنفردة حالت وتحول حتى الآن دون اتخاذ اجراءات ذات طابع توتليتاري بالنسبة للاقتصاد الصناعي وسياسة التصنيع في مصر والبلاد العربية ومنطقة الشرق الاوسط .

ولو ان حكومة الثورة في مصر لم تراعي هذه العوامل بل انها اندفعت وراء النظريين والمثاليين فضربت بالعنف ذاتـــه الرأسمالية كما ضربت الاقطاع لانحدرت آنذاك حكومة الثورة بالثورة من حيث هي حركة بناءة الى صيرورتها حركة طوباوية انكارية عدمية ، ولكان مصير الثورة في مصر مشابها تماماً لمصير « كومون باريس » ، ولكانت حكومة الثورة حتى ولو اختزنت صدور رجالها كل ماهنالك من نوايا طيبة قد عاشت منفصلة عن جميع الطبقات الشعبية وذلك لتنكرها للقوانين الحديدية التي تسير وتوجه جميع عمليات التطور .

وهنا قد يتساءل القاريء ايضاً عما اذا كان هناك من الاسباب مايخطيء حكومة

الثورة في مصر بضرب الاقطاع تلك الضربة القاصمة .

وعلى هذا اجيب بان ضرب الاقطاع وانهاء عهوده في مصر كان ضرورة تاريخية وملزمة أساسية من ملزمات التقدم والتطور ، وذلك لان بقاء الملكية الواسعة مع تزايد السكان المطرد والضيق الخانق في الرقعة المنزرعة من القطر المصري ، كل هذه الامور كانت تشكل مظالم اجتماعية غدا من الواجب ازالتها ورفعها عن كاهل جمـــاهير الشعب العربي في مصر بضرب الاقطاع وانهاء عهوده .

وهنا قد يتساءل القاريء ايضاً عما اذا لم يكن بالامكان الحفاظ على الملكية الواسعة عن طريق تهجير السكان الى مناطق زراعية أخرى والاستعانة بالزراعة الميكانيكية لاستثمار الاراضي التي رحل سكانها ، وهذا العمل لو تم كما يخيل للقاريء لازدادت فعاليات الاقتصاد الزراعي والاقتصاد العام للدولة .

وهنا ايضا اجيب بان هذا الامر لم يكن بالامكان ايضا وذلك للاسباب الآتية :

أ ـ كون الاراضي المنزرعة في مصر لاتزيد مساحتها عن ٢٤ مليون دونم .

ب ـ كون عمليات استصلاح الاراضي في مصر عمليات باهظة التكاليف وغير تجارية (مديرية التحرير) فتكاليف استصلاح الفدان الواحد (٤,٢ دونم) تتجاوز الالف والخمسمائة ليرة سورية .

ج ـ كون طبقة معينة ـ طبقة الاقطاع ـ وعدد افرادها لايتجاوز الخمسين الف نسمة تملك وحدها ثلث الاراضي المنزرعة (٨ ملايين دونم) .

د ـ كون تفتيت الملكية الواسعة مما يساعد موقتاً وفقط موقتاً على ارتفاع المستوى المعاشي لفئة معينة من طبقة الفلاحين ، غير انه يحرر الفلاحين جميعاً من ربقة الاقطاع السياسي .

هـ ـ كون ضرب الاقطاع في مصر مما يساعد على تهذيب الرأسمالية الناشئة ويشعرها بان هناك يداً هائلة القوى تسير الادارة وتخطط المناهج مما يتفق والصالح العام للشعب .

هـ ـ كون المراديد الزراعية او بالاحرى جـــزء ضخم منها كان ينتقل من

الريف الى المدينة وهذا مما كان يؤدي الى تدن مستمر في المستوى المعاشي للفلاحين وكان يزيد في بأساء هذا التدني تكاثر مخيف في النسل بين الفلاحين . من هذا يتضح لنا بان الثورة على الاقطاع كانت قدراً تاريخياً محتوماً .

والآن قد يتساءل القاريء ولكن هل لو اتخذت الانقلابات في سورية الاجراءات التي اتخذتها الثورة في مصر فهل يمكن لهذه الانقلابات ان تكتسب مزايا الثورة وصفاتها ؟ (وذلك في الريف —)

وهنا أجيب ايضاً اجابة قد يدهش منها القاريء وأقول : كلا والف كلا، وذلك لان الظروف الاقتصادية وبالتالي الاجتماعية تختلف في الكثير من وجوهها عن ظروف مصر بدليل :

أ — الاراضي المنزرعة في سورية تعادل مساحتها ٣٥ مليونا من الدونمات (مصر ٢٤)

ب — الاراضي المنزرعة في مصر تزرع جميعها كل عام أما في سورية فان الاراضي التي تترك « بورا » تقارب عشرة ملايين دونم .

ج — كثافة السكان في الريف المصري كثافة خيالية أما في سورية فان الريف بحاجة الى سكان .

د — الاراضي القابلة للاستصلاح السريع في سورية تقارب مساحتها الاربعين مليون دونم وهنا يتوجب على الدولة القيام بعمليات تهجير السكان بغية اقامة توازن ديغرافي .

هـ — الرساميل العاملة في الزراعة في سورية تهاجر من المدينة الى الريف بينما يهاجر جزء كبير من الرساميل من الريف الى المدينة في مصر .

و — الزراعة الواسعة في سورية زراعة رأسمالية بكل مالهذه الكلمة من معنى ومفهوم بينما ان الزراعة الرأسمالية في مصر والزراعة الواسعة تكاد تكون معدومة .

ز — قام الفرد في سورية او بالاحرى المجهودات الفردية عقب الحرب العالمية الثانية باستصلاح مساحة من الارض تزيد على ١٢ مليون دونم منها ١,٥ مليون دونم « سقي » .

أضف الى ذلك ان الريف السوري شاهد ثورة في التقدم والتطور الزراعيين وقد انعكست نتائج هذه الثورة على جميع نواحي الحياة العامة من اقتصادية واجتماعية بدليل :

الانتاج من القمح كان عام ١٩٤٩ ٣٠٦٠١١ طنا فاصبح عام ١٩٥٣ ٧٨٠٠٠٠ طن ؛ أما الشعير فكان عام ٤٩ ، ٦٦٢٦١ طنا فقفز عام ١٩٥٣ الى ٤٧٢٤٥٧ طناً ؛ أما القطن فكان عام ١٩٤٩ ، ٣٤٨٢١ طنا فقفز عام ١٩٥٣ الى ١٣٢٨٥٩ وبلغ عام ١٩٥٥ مبلغاً قدره ٢٣٥٣٣٨ .

أما الميزان التجاري وأثر هذه الثورة عليه فكان كما يلي :

	الصادرات	(بملايين الليرات السورية) الواردات	العجز
عام ١٩٥١ :	٢٩٢	٤١٨	١٢٦
عام ١٩٥٣ :	٤٠٨	٤٨٤	٧٦

أما أثر هذه الثورة على العمليات المصرفية فكان كما يلي :

بلغ مقدار عمليات الحسم والقروض والسلف مبلغاً قدره ١١٥,١ مليون ليرة سورية وذلك عام ١٩٥١ وقفز هذا الرقم الى ٣٥٤,٦ مليون ليرة سورية عام ١٩٥٦

كانت الرساميل العاملة في المصارف عام ١٩٥١ تقدر بـ ٢٥,٩ مليون ليرة سورية وقفز هذا الرقم عام ١٩٥٤ الى ٩٤,٦ مليون ليرة سورية .

اما الموازنات العامة فكان اثر هذه الثورة عليها كما يلي :

كانت واردات الموازنة العامة لعام ١٩٥٠ تقدر بـ ١٤٣٤٩٦٨١٠ ليرة سورية وقفز هذا الرقم عام ١٩٥٦ الى ٣٢٤٠٥٤٠٠٠ ليرة سورية . اما اثر هذه الثورة على الحياة الثقافية في سورية فكان على هذا الوجه

بلغ عدد الطلاب الذين نالوا شهادة البكالوريا عام ١٩٤٥ ٣٧٥ طالباً وقفز هذا الرقم الى ١٠٥٩ طالبا عام ١٩٥٤ ؛ اما الكفاءة فكان عددهم عام ١٩٤٥ يبلغ ٨١٠ طالبا وقفز عام ١٩٥٤ الى ٤٠٩٥ طالبا ؛ واما الابتدائية فكان عام ١٩٤٥ ٤٠١١ ،

وقفز عام ١٩٥٤ الى ١٨٨٨٥ طالبا .

مما ورد يتضح ان سورية قد استطاعت عقب الاستقلال ان تحقق قفزات رائعة وان تخطو خطوات عملاق في حقلي التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، وهذا مايعني بصورة مباشرة وصريحة ان الاسس التي كان يرتكز عليها النظام العام في سورية كانت أسساً سليمة من حيث الجوهر ، لذلك فان الانقلابات العسكرية التي حدثت في سورية لم تكن لها من نتائج ايجابية في دفع موكب التطور سوى من حيث انها قد حررت الشعب السوري من اقطاع سياسي يتمثل في عائلية طاغية وقبلية زميمة ، وهذا التحرر بالغ الاهمية اذ انه خلق وعيا شعبيا ومكن للجماهير من ان تمارس فعليا سلطتها في توجيه سياستها وتقرير مصيرها دون النظر الى اية اعتبارات لمصالح طبقة ارستقراطية كان ابناؤها يتوارثون الهيمنة والسلطان على مصائر الشعب ابناً عن اب واباً عن جد .

كما وان الانقلابات العسكرية قد فتحت اعين الشعب على حقيقة هائلة وهي ان الدولة تملك قوة ممثلة في الجيش وقواتها المسلحة ، وان هذه القوة من الضخامة والجبروت بحيث انه بامكانها فيما لو احسن توجيهها ان تسحق كل عنصر او عامل او مجموعة من العناصر او العوامل تقف في طريق الشعب الراغب في التحرر اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا . ولكن ومن المؤسف المؤلم ان قادة الانقلابات العسكرية في سورية ، متأثرين بالعوامل الشخصية وبالاطماع الذاتية وبالانانيات الفردية او الحزبية ، اساءوا فيما مضى استعمال هذه القوة ، فبدلا من ان يوجهوها لخدمة اغراض الشعب وخدمة مصالحه حاولوا توجيهها لخدمة اغراضهم الشخصية ومصالحهم الذاتية ؛ فارتفع حسني الزعيم الى منصب رئاسة الجمهورية وحذا اديب الشيشكلي حذوه واخذ هذان القائدان يوجهان هذه القوة الضاربة لمصادرة الحريات وتكميم الافواه واعتقال شباب الطليعة من المفكرين وقادة الرأي ، ولما كان الجيش العربي في سورية في جوهره جيشا وطنيا يتحسس بآلام الشعب ويتبنى آماله ، لذلك انقلب الجيش على قادة الانقلابات السابقين ووضع لطغيانهم حداً مفجعاً

محزنا وحزيناً .

والسبب في ذلك ان سورية كانت قد حققت كل اغراضها الثورية في الحقل الداخلي ، فهي كانت تتطور بسرعة مذهلة وتقفز في مجالات التقدم قفزا ، والشعب بلغ درجة جد رفيعة في وعي ذاته ووعي وجوده ووعي مقاصده ، لذلك كانت الاجراءات الاستثنائية التي اتخذها قادة الانقلاب اجراءات شاذة وسبب شذوذها يعود اولا واخيرا الى كونها غير ضرورية ابدا وغير مجدية لانتفاء كل اسباب جدواها ولانعدام كل مبرر لها ، وهذا ماضفى على الانقلابات العسكرية في سورية الطابع الشخصي والاثرة الفردية ، وذلك لان الانقلابات العسكرية التي جرت في سورية حققت كل اغراضها منذ الانقلاب الاول الذي قام به حسني الزعيم وذلك في الحقل الداخلي ، اذ ان الانقلاب الاول لم يأت فحسب على الروح الطبقية التي كانت تسير الحكم في سورية حتى فجر الثلاثين من آذار عام ١٩٤٩ بل انه اتى ايضا على الشعور الغامض من الاحترام والرهبة الذي توحيه الطبقة الحاكمة ذات الطابع الارستقراطي آنذاك ، وبهذا استرد الشعب ثقته بذاته وغدا اكثر شجاعة واندفاعا في الاستجابة لمشاعره الاصيلة في ثوريتها. لذلك فان جميع الانقلابات التي حدثت عقب انقلاب حسني الزعيم كانت ، اذا ضربنا صفحا عن العوامل الخارجية انقلابات ، مفتعلة في انعكاساتها على الشؤون الداخلية ، هذه الشؤون المتعلقة بمؤسساتنا الديمقراطية وبنظامنا الديمقراطي الذي استطعنا في ظله ان نحقق المعجزات في حقلي الوعي والتقدم الثوريين . فلقد كان باستطاعة الجيش ان يرقب السياسة الخارجية بدقة وحذر وان يمنع اية محاولة من شأنها ان تنحرف بالسياسة الخارجية عن مقاصدنا واهدافنا القومية والانسانية ، وذلك دون اللجوء الى رفع حسني الزعيم او اديب الشيشكلي الى منصب الرئاسة الاولى في الدولة .

والجيش له الحق كل الحق في ان يكون مسموع الكلمة حين تخطيط السياسة الخارجية ، وذلك نظراً للارتباطات الوثيقة والوثيقة جداً بين السياستين

الخارجية والدفاعية ، والجيش العربي في سورية يجب عليه في المستقبل ان يقف في وجه كل محاولة يقوم بها قائد عسكري او مجموعة من القادة العسكريين او هيئة او جماعة او حزب بحيث يكون من نتائج تلك المحاولة تسخير الجيش لتنفيذ اغراض شخصية او حزبية ، اذ ان الواجب القومي يفرض على كل مواطن مخلص لوطنه ان يسعى جاهداً للاحتفاظ وتنمية كفاءآتنا العسكرية الممثلة في الجيش والطريق الاوحد لتحقيق هذه الغاية هو العمل المخلص لوجه الله والوطن ، لتدعيم الوحدة بين صفوف الجيش ، وهذه الغاية القومية ان تتحقق اذا سمحنا للاشخاص او الهيئات او الجماعات السياسية بان تجد لها مرتعاً خصباً لتجنيد الانصار من بين صفوف الجيش . لهذا يغدو الواجب الاساسي للثوريين العرب الاصلاء ان يعملوا وخاصة في سورية ونظراً لظروفها الخاصة والفريدة في نوعها ، اقول يتوجب على الثوريين العرب الاصلاء المزودين بالعقيدة الصابرة المكافحة ان يحافظوا على الارادة الدفاعية للشعب موحدة في الجيش وان يبتعدوا عن كل عمل من شأنه ان يؤدي مباشرة او غير مباشرة الى توزيع الارادة الدفاعية العامة للشعب ، فالانقلابات العسكرية الاخيرة قد علمتنا وعلمت جميع الاحزاب والجماعات في سورية ان الجيش لايمكن ان يكون ملكا لفرد او جماعة او هيئة او حزب ، اذ ان الشعور الاصيل الذي يسيطر على جميع افراده هو انه ملك للقومية العربية في كل اقطارها وملك للعرب في جميع طبقاتهم .

انني عندما الح على ابعاد الحزبية والتشيع عن صفوف الجيش فانما اقوم بهذا العمل مدفوعاً بغايتين اساسيتين :

الاولى : الحفاظ على وحدة الارادة الدفاعية العامة للشعب

الثانية : ضرورة الانتقال بالوعي السياسي بين الجماهير الى مرحلة التنظيم الثوري لكتل الجماهير في احزاب سياسية تنمي الوعي السياسي في نفوس الجماهير وتغذي هذا الوعي بلبان الثورة وتحضر للدولة المناهج والبرامج ومن

ثم تخرج للدولة رجال الادارة والحكم .

وهذه الغاية لن تتحقق اذا حاول فرد او جماعة او حزب ان يقحم الجيش في السياسة ، وذلك لان مثل هذا الاقحام ومايرافقه وينتج عنه من اجراءات ذات طابع « توتليتاري » مما يردم المنابع التي تغذي النظام الديمقراطي ، هذا النظام الذي يمثل الهدف النهائي لثورة القومية العربية وبالتالي يؤخر تطورنا ويعطل ركبنا المنطلق على سبل الحضارة الانسانية ، كما وانه يقتل الاباء في الفرد وينسف الاسس الاخلاقية للنظام لديمقراطي . والاستفتاء الذي اجراه اديب الشيشكلي على دستوره ، والاصوات التي نالها اديب الشيشكلي وحسني الزعيم حينما انتخبا لمنصب رئاسة الجمهورية ، تدلنا على مدى الانهيار الاخلاقي الذي لحق نظام الادارة آنذاك .

والخط المستقيم لايبدأ معوجاً ثم يستقيم بل انه يبدأ مستقيما ويبقى مستقيما

ان المهمة التاريخية التي القيت على عاتق الثوريين العرب الاصلاء في هذه الحقبة تتلخص في ارساء قواعد وركائز واسس من الحق في اطلاقه والعدالة في شمولها لمجتمع الفرد فيه كريم خير وسعيد ، وهذه المهمة تلزم الثوريين العرب الاصلاء ان يسيروا في كل خطوة يخطونها على هدى الامور الآتية :

١ - الوجود القومي المصلح .

ب .. الوجود الانساني المصلح .

ج - الايمان العميق والمطلق بان الحقوق خاصات يملكها الافراد بحكم انسانيتهم وهي لهذا ليست مجرد مطالب يمكن للدولة ان تعترف بها او لاتعترف .

د - الايمان العميق بان حقوق المواطنين ليست نتاج القانون ، بل ان القانون هو نتاجها ومهمته ان ينظمها ويوجهها الوجهة التي تؤمن لها التفاعل لايجابي والانسجام ومن ثم التدرج بها في سلم الاكتمال والكمال .

وهذه النقاط الاساسية الاربعة لاتوجد ولن توجد الا في النظام الديمقراطي ، هذا النظام الذي يقوم على حرية الرأي في المناقشة وعلى التنافس في خدمة

الصالح العام .

مما ورد يتبين ان المهمة الاساسية الملقاة على عاتق الثوريين العرب في هذه المرحلةهي، بالاضافة الى مهمتي التحرر والوحدة ، اقول هي ارساء قواعد ثابتة لنظام ديموقراطي في حقول الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، وهذه المهمة غير قابلة التحقيق اذا لم يتمكن الثوريون العرب الاصلاء من الفصل بين السلطات الثلاث اولا وتكريس جهود كل مؤسسة من مؤسساتنا لتحقيق الاغراض الحقيقية التي اوجدت من اجلها ، واهم هذه المؤسسات لابل اقدسها هي الجيش. ولقد ادرك الرئيس عبد الناصر هذه الحقيقة ولذلك اوجب على كل ضابط يريد ان يعمل في السياسة وان يرشح نفسه عضواً في مجلس الامة المصري الاستقالة من الجيش ، وهذا العمل جد حكيم اذ انه يؤدي الى تكريس جميع افراد الجيش كل جهودهم لشؤون التدريب واكتساب الخبرة والمهارة العسكريتين .

وقد يقول قائل غير ان عبد الناصر قد أنشأ ما يعرف بالاتحاد القومي، وهذا الاتحاد هو بمثابة الاخذ بسياسة الحزب الواحد ، وهذه الحقيقة كما قد يسترسل القارىء فيستنتج مما تتعارض وروح النظام الديمقراطي الذي قلت انه هو الهدف النهائي لثورة القومية العربية ، وهنا ايضاً قد يستطرد القارىء فيسألني عما اذا كنت انصح باتباع نفس الطريق في سورية ،هذا الطريق الذي افضى بعبد الناصر الى انشاء ما يعرف بالاتحاد القومي الآن ؟

انني اجيب على هذا بلا ولا ولا ، وذلك نظراً لاختلاف الاسباب والعوامل الاجتماعية والسياسية في مصر عنها في سورية ، وهذا الاختلاف يتمثل بالامور الآتية :

أ ان احزاب الاقطاع والرجعية في مصر كانت بحاجة الى ان تسحق وتدمر وتستأصل جذورها كي تتوارى عن مسرح الوجود السياسي .

ب - ان احزاب الاقطاع والرجعة في سورية ماتت معظم القوى فيها نتيجة للتطور والوعي الشعبيين وما بقي منها لا يمثل الا فلولاً وشراذم هي في

طريقها اما الى الموت او الى الثورة على نفسها لتنسجم والثورة في القطر السوري.

ج ـ ان القوى الثورية الشعبية في مصر كانت تكاد تكون معدومة الاثر في الحياة السياسية في القطر المصري ، ومعظمها كما قلت في موضع آخر من هذا الكتاب التمست الحماية في صفوف حزب الوفد واندمجت فيه .

د ـ ان القوى الثورية الشعبية في سورية كانت بالغة الاثر في الحياة السياسية في القطر السوري ومعظمها عاش بمعزل عن التعاون والنظام ذي الطابع الارستقراطي الذي كان يهيمن على مقاليد الامور حتى فجر الثلاثين من آذار عام ١٩٤٩ .

هـ ـ ان القوى الرجعية في مصر كانت منتظمة في أحزاب منظمة وذات أجهزة واسعة الاثر والنفوذ لذلك بقيت هذه القوى متماسكة وفعالة في الميدان السياسي وسدت السبل على قوى جديدة كانت تتطلع الوصول الى الحكم .

و ان القوى الرجعية في سورية لم تكن في معظمها منتظمة في أحزاب وبالتالي لم تكن متماسكة موحدة الاهداف في الجزئيات كما هي موحدة الاهداف في الكليات ، وذلك بدليل ان البرلمانات التي شاهدتها سورية منذ فجر الاستقلال حتى يومنا هذا كان معظم اعضائها من المستقلين وغير الحزبيين ، وهذا مما يسر لقوى جديدة الوصول الى الندوة التشريعية ـ اكتساح البعثيين لمقاعد حماة النيابية ـ انتخاب احمد الحاج يونس نائباً عن حمص وانتخاب رياض المالكي نائباً عن دمشق وأخيراً انتخاب كمال كلاليب نائباً عن حمص ايضاً وهزيمة الاقطاع والرجعية أمام هذه العناصر التي تطغى عليها الصفات التقدمية .

ومع أن القوى التقدمية في القطر السوري لم تبلغ بعد من الاكتمال مايمكنها من ملأ الفراغ الناشيء عن احتضار الاقطاع السياسي والرجعية في سورية ، غير أن هذه الحقيقة لاتبرر أبداً عدم اتاحة الفرص اللازمة وعن طريق التطور الطبيعي الوئاب في سورية لهذه القوى ، لاكتمال نموها في جو داخلي هادىء مطمئن وذلك لان من اهم أهداف الثوريين العرب الاصلاء هو اتاحة الفرص

كل الفرص للامة العربية لتمارس حكم نفسها عن طريق احزاب واضحة المناهج محدودة الاهـــداف معروفة المقاصد ، وهذا الامر يقتضينا بـــل ويلزمنا ايضاً بأن لا نقحم الجيش في سورية في السياسة بغية امـلاء الفراغ الناشيء عن زوال المخضرمين .

يستثنى من هذه القاعدة الاساسية انحراف حكومة ما أو برلمان ما بسياستنا القومية عن أهدافها التقدمية في الداخل والانسانيـة في الخارج . في هذه الحالة يتوجب على الثوريين العرب الاستعانة بالجيش كهيئة ثورية لتصحيح الانحراف او لمنع وقوعه .

وهذا العمل يتوجب وقوعه في الاحوال الآتية :

أ - في حال اقرار حكومة ما للصلح مع اسرائيل .

ب - في حال تمنع حكومة ما اوبرلمان ما عن اقرار اتفاقات اقتصادية غير مشروطة ودولة أجنبية تختلف او تتفق معنا في المذاهب السياسية .

ج - في حال الانحراف عن سياسة عدم الانحياز .

د - في حال وقوف حكومة ما او برلمان ما موقف المعارضة من مساع قومية تستهدف تحقيق الاتحاد او الوحدة بين قطرين عربيين او اكثر ، تساوياً في درجة الاكتمال في التحرر والسيادة .

هـ - في حال تآمر حكومة ما او برلمان ما على قضايا تحرر قطر عربي بغية جني فوائد شخصية او قطرية .

في مثل هذه الحالات فقط يحق للثوريين العرب الاستعانة بالجيش في الحقل السياسي وذلك لمنع الانحراف او لتصحيحه ، أما فيما عدا هذه الحالات فان أية محاولة تستهدف جـــر الجيش الى ميدان السياسة فان هذه المحاولة تعتبر محاولة تخريبية مجرمة .

الفصل الثاني

الدولة القومية والثورة

١ ــ ماهي الدولة القومية ؟

ارى اولاً في الدولة القومية الاداة ، التي تستعملها الشعوب العربية الموحدة المصير في الامة العربية ، حين ممارسة هذه الشعوب لسلطاتها . اما وظيفة الدولة فهي ان تقيم تعاونا مخلصاً بين المؤسسات الرسمية والمؤسسات الشعبية ، ليعكس هذان النوعان من المؤسسات واللذان يشكلان الدولة القومية ، اقول ليعكسا وينفذا في تعاونهما ، ارادة الامة العربية ، في التحرر اولا ، وفي التقدم ثانياً وذلك كله ، بغية الاسهام في خدمة الانسان ، والاشتراك اشتراكا فاعلا في صيانة وتدعيم وبناء الحضارة الانسانية .

لهذا تعتبر الدولة القومية ، كما افهمها ، التنظيم والتنظيم في كل نواحيه السياسة ممثلة في الاحزاب ، والاقتصادية ممثلة في التعاون بين المشروعات العامة والمشروعات الفردية ، والاجتماعية ممثلة بالنقابات والجمعيات والنوادي .

اقول لهذا تعتبر الدولة القومية التنظيم القاعدة الرئيسية للدولة ذات النظام الشعبي جوهراً ووجوداً .

ولهذا ايضاً قد ترى الدولة القومية ، خلال المرحلة الانتقالية ، الى التحرر والوحدة والعدل الاجتماعي ، اقول لهذا قد ترى الدولة القومية في قطر عربي ما ، دولة قومية ناقصة الصفات القومية في قطر عربي آخر ، وذلك لأن تلك الدولة الناقصة لاتعكس ولا تنفذ مؤسساتها الرسمية رغبات شعبها المتحدة والموحدة

والنابعة من الينبوع ذاته الذي تنبع منه رغبات وارادات الشعوب العربيـــة الاخرى ، هـذه الارادات المجتمعة حول التحرر والوحدة والعدل الاجتماعي .

ولهذا ايضاً ترى الدولة القومية في الديكتاتورية عدواً لدوداً يقف في طريق ارادتها . لانه يهدم مبدأ التنظيم وينسفه كاساس لنظام شعبي ويحل بين البيئات اقول البيئات لا الطبقات ـ الاكراه محل التراضي والوفاق .

والدولة القومية ، عندما ترى في الديكتاتورية عدواً لدوداً لها ، فانمـــا تفعل ذلك ، لانها تؤمن بان في قيام الديكتاتورية ، زوال مبدأ جوهري من مباديء وجودها ، واعني بهذا المبدأ مبدأ التعاون بين المؤسسات الرسميـــة والمؤسسات الشعبية ، اذ ان التعاون بين هذين النوعين من المؤسسات في ظل النظام الديكتاتوري امر مستحيل استحالة مطلقة ، **وذلك لان التعاون لايقوم ابداً بين اثنين بحيث يكون من حق الاول ان يأمر ومن واجب الثاني ان يطيع ، ومانشأ عن هذا الامر فهو مبدأ التبعية لامبدأ التعاون .**

والدولة القومية ، اذ تكافح الديكتاتورية ، فانما تفعل ذلـــك ، لان النظام الديكتاتوري ينحرف بسلطات الامة ، من حيث هي تجسيد لارادتهـا الى حيث هي تجسيد لارادة الديكتاتور .

والدولة القومية ، اذ تكافح الديكتاتورية ، فانما تفعل ذلـــك ، لتنسجم وضمير ثورة القومية العربية ، هذه الثورة الممثلة بجهادهـــا للاستعمار في كل اشكاله ، من مباشر وانتداب ووصاية .

لذلك ، فالديكتاتور عدو لدود للدولة القومية لانه يعتبر نفسه وصياً على الامة ، والامة التي تقبل بوصاية احد ابنائها او فئة من ابنائها ، تقبل ايضاً بوصاية المستعمر عليها ، لان الامة تكون حينذاك ، امة غير مكتملة ، بل مجموعة من الناس يشكلون مجتمعا لايعي ذاته وبالتـالي لايعي وجوده . ومن ثم غير قادر على ممارسة وجوده كقوة قومية فاعلة ، وكقوة انسانية بناءة .

ارى ثانياً في الدولة القوميـــة ، كما افهمهـــا ، المجتمع ذا الحكومـــة

التي تؤمن باصالة الخير في النفس البشرية عامة ، وفي النفس العربية خاصة ، لذلك ترفض الدولة القومية أن تضع خططاً ومناهج معينة للنفس البشرية ، بل أنها ترى أي الدولة أن واجبها الاساسي يتركز على تحرير الخير في النفس العربية ، واطلاق سراحه من سجون الشر المتمثل بالاثرة والاطماع الناشئة عن غريزة حفظ البقاء ، هذه الغريزة التي ما زالت تتدفق **بالخوف، منذ الفجر الاجتماعي** فالمجتمعي الاول .

لذلك فان نشاط الدولة القومية ، يجب وفي كل الاحوال ، ان لا يستهدف صنع قوالب للاخلاقية العربية ، بل أن على هذا النشاط أن يستهدف تحرير النفس العربية من القوالب الفاسدة التي صنعها لها الخوف ، الخوف على المصير في شكليه المادي والمعنوي .

وذلك لان ضمير ثورة القومية العربية يريد الدولة القومية ان تكون الاداة ، التي تستعملها العناصر الخيرة في النفس العربيه ، لتحقيق أغراض هذه النفس والسير بها نحو غاياتها الانسانية ، وبهذا تغدو الدولة القومية نتاجاً طبيعياً لاصناعياً للنفس العربية ، ولا تغدو ، كما تريدها فلسفة « البرجماتزم » نتاجاً « للذكاء المنظم » الممثل في الدولة ، اذ ان العناصر الخيرة في النفس البشرية موجودة قبل وجود الدولة ، والدولة حينما تمارس وجودها صالحاً ، فانما تمارسه نتيجة للوجود الازلي الابدي للطبيعة الخيرة في النفس البشريه وبذلك يتحكم الجوهر فيما حوله من موجودات ، ولا يتحكم ما حول الجوهر من موجودات في الجوهر ، كما ويكيف الجوهر ما حوله من موجودات تكييفاً ، يجعلها تلتئم وطبيعته ، ولا يتكيف الجوهر وما حوله من موجودات ليلتئم وطبيعتها ، وبهذا يتخذ الجوهر دوو الفاعل في الموجودات ، ولا يتخذ ابداً دور المنفعل معها ، وهذا ما يفسر قول الله القائل لقد خلقت الانسان على صورتي اذ أن حقيقة مركز الانسان من الموجودات ، تكاد تعطي الانسان القدرة الناقصة على الخلق ، فالانسان يكيف الاشياء ويروض العناصر ، غير انه لايخلق الاشياء

والعناصر ، وهذا ما أعني به القدرة الناقصة على الخلق ، وهذا ايضاً السر الحقيقي في عظمة الانسان وفي امتيازه على كل مخلوق آخر ، اذ أن الانسان هو الذي يكيف الاشياء والعناصر الاخرى غير أنه لا يتكيف ، لان بحثه عن المعرفة ، وحبه المعرفة هـذا الحب الاصيل الكامن منذ الازل في طبيعته الخيرة جعلته مكيفاً تكييفاً نهائياً ، بحيث هو دائم الاستعداد لمقابلة تحدي اسرار الكون له لاكتشافها وترويضها ووضعها في خدمته وخدمة النظام الكوني .

مما ورد يستنتج ان الدولة القومية الصالحة ، ليست تلك التي تفرض الصلاح ، أو بالاحرى تخلق الصلاح في النفس البشرية ، بل انما هي - أي الدولة القومية - تلك التي تساعد الصلاح على التحرر من الخوف ورواسبه الفاسدة المفسدة ، هذا الخوف الذي مازال حتى الآن الرباط الوحيد الذي يشد الانسان الى المجتمع والمجتمع الى الحكومة والاثنين معاً الى الدولة والدولة الى الانسانية .

والخوف كما ارى يمثل الوعي الحيواني للوجود ولحفظ البقاء ولكنه لا يمكن للانسان ان يسمح للخوف بان يمثل وعيه وينظم وجوده .

اذن فالدولة لا تصنع الأمة ، بل ان الفرد ذي الغريزة الاجتماعية فالمجتمعية وذي الفطر الخيرة التي تسيطر على وجدانه وذكائه ، فتجعله انسانا ، هو الذي يصنع باتحاده وتعاونه مع اخوانه من ابناء قومه الامة ومن ثم الدولة ، والفرد يستمد قدرته على صنع الدولة القومية الصالحة من تدفق صلاحه وتفاعل هـذا الصلاح مجتمعياً وصلاح أبناء قومه في الامـــة ، فتنشأ نتيجة لهـذا التفاعل ورغبة في تنظيمه ، الدولة القومية .

اذن فالدولة القومية هي نتيجة للمقدمات الآنفة الذكر ، والنتيجة لايمكن ان تتحكم في مقدماتها تحددها او توجهها ، لانها هي وليدة هذه المقدمات وليس والدة لها ، والنتيجة التي تحاول ان تتحكم بمقدماتها يجب ان تتنازل اولا عن جوهرها كنتيجة الى صيرورتها مقدمة او مقدمات . ولما كان هذا الامر مستحيلا بالنسبة للدولة الصالحة ، التي تمثل فردا صالحاً والتي هي نتيجة لصلاح الفرد المصلح

في المجتمع ، وصلاح المجتمع المنصلح بالفرد ، لذلك فان كل محاولة تقوم بها الدولة بغية « قولبة » النفس البشرية هي بمثابة محاولة من يريد تجسيد الوجود في العدم ، وهذا الامر مستحيل استحالة مطلقة ، اذ ان الدولة تتخذ بذلك صفة الخالق ، والانسان ذو موهبة تتركز في الاكتشاف والتكييف لا الخلق ، فنحن نستطيع ان نحسن الحسن الى الاحسن لان نخلق الاحسن من لاشيء كما وان وجود الاحسن كامن في الحسن ذاته ، اذ انه النمو الطبيعي للحسن . اذن فعلى الدولة القومية ان تترك للنفس العربية حرية الانطلاق على سجيتها ، اذ ان في انطلاقها - اي النفس العربية - على هذه الصورة الفعل الخير كل الفعل الخير ومن ثم التنظيم العاقل كل التنظيم العاقل واخيراً النظام البناء الصالح كل النظام البناء الصالح .

انني اذ يراني القاريء اذهب بايماني بجوهر الخير في طبيعة النفس البشرية عامة وطبيعة النفس العربية خاصة الى محراب التعبد والعبادة ، فانما افعل هذا الامر لاننا كأمة ناشئة او بالاحرى امة تستعيد ذاتها وتستعيد وجودها ، ارى من اضروري لابل من الالزام ان نيسر في كل مراحل تطورنا الحرية كل الحرية للامة العربية وان نقيم اساس نظامنا العام على قاعدتي المناقشة والاقناع لاعلى قاعدتي الاملاء والاكراه ، وذلك لايماننا العميق بان الانسان في حالة اقتناعه ستندفع به فطرة الخير في نفسه وسيقفز عندئذ في سلم التطور قفزا ونحن قد نكره الانسان على عمل ما ولكن لايمكننا ان نكره حماسه لتبني هذا العمل وانجازه ، لهذا كان من واجب الدولة القومية الفاعلة حقا ان لاتجند القوى المادية للانسان فحسب بل ان تجند حماسه ايضا ومثل هذا الامر لن يتحقق اذا كان الاكراه لاالقناعة هو الوسيلة لتعامل الدولة والانسان .

وهناك رأي خطر وخطير يطغي اليوم على بعض علماء الاجتماع وهذا الرأي يتمثل في قول احد ائمتهم وهو العالم الاجتماعي الاميركي المشهور البروفسور « هادلي كانتريل » القائل :

« ان الطبيعة البشرية كما تميز ايما جماعة في ايما وقت معين هي ماهي بسبب الظروف التي نضج فيها الافراد في تلك الجماعـــة . والطريقة الوحيدة لايجاد الطبيعة البشرية التي نريد هي ان نضمن بطريقة علميـــة نوع البيئة الاقتصادية والاجتماعية التي تقدم افضل الظروف لتطور للطبيعة البشرية في الاتجاه الذي نعينه نحن ، الاتجاه الذي يميز الحرية من نزاع الجماعة والحريةمن التطور الشخصي » .

ان هذه الفلسفة المتعلقة والمفسرة للطبيعة البشرية فلسفة تتعارض في كل مبدأ من مبادئها وحقائق وجود الطبيعة البشرية وصفات هـذه الطبيعة ومميزاتها وذلك في القواعد الفلسفية المطلقة والميزات الجوهرية للطبيعة البشرية فالعقل الواعي لا يميز جوهر الطبيعة البشرية على ضوء الظروف التي نضجت فيها كما يقول البرفسور هادلي كانتريل وكما تنادي به فلسفة البرجماتزم بل انمـــا يميز الطبيعة البشرية على أساس فطرة الخير في جوهرها ، وذلك لاننا اذا فعلنا كالبروفسور « كانتريل » او كالذرائعين « البرجماتزم » نكون قد اعطينا صفات الجوهر للمظهر ، ونكون ايضاً كمن يتخذ لون عنصر من العناصر ، مفهوماً للقوى الكامنة في العنصر ، فاذا طلينا قطعة من الفولاذ باللون الاحمر فان هذا لا يعني ان لون الفولاذ احمر ، وان فعله ـ فعل الفولاذ ـ أصبح يعادل فعل اللون المطـلي به ، كما وأن طبيعة اللون الاحمر لا تشكل بالضرورة او بالاحرى لا تشكل أبـــداً طبيعة الفولاذ ذاته .

كذلك حالنا والطبيعة البشرية ، فالظروف قد تلونها ولكنها لا تحدد أبداً كما يقول كانتريل نوع الطبيعة البشرية ولا تحدد اتجاهاتها وذلك لان نوع واتجاهات الطبيعة البشرية محددة تحديداً لانهائياً ونوعها مصمم تصميماً ازلياً خالداً، لا يتغير أو يتبدل نتيجة للظروف ، بل أنه كالنبتة التي تفلق الصخرة وتشقها لتخرج الى اجواء الحياة مدفوعة بقوى الحيـــاةالكامنة فيها ، لذلك فان جميع الانظمة التي مرت بها البشرية لم تفعل أبداًفي تبديل نوع الطبيعة البشرية أو في تغيير اتجاهاتها الصاعدة الى الخير علاء ، بل انها حبست نموها عن الوجود أحياناً

واوقفت ولبعض الوقت فقط خطاها ، لكنهـا لم تحرف اتجاهها او تنحرف باتجاهاتها ، بل أنهـا تابعت ـ أي الطبيعة الخيرة ـ عملهـا تحت ضغط ظروف شديدة اقتضتها جهوداً اكثر لتشق طريقها ولتتابع سيرها في الخط الذي رسمه لها جوهر الخير فيها .

فالطبيعة البشرية لم يتبدل نوعها في عهد الاقطاع ولم تنحرف اتجاهاتهـا في ذاك العهد وذلك نتيجة لظروف الاقطاع ، بل انما كل ما جرى هو ان الطبيعه البشرية قد انكمشت على نفسها كما ينكمش الاسد حينما يتحفز وأصيبت كالاسد حينما يتحفز ، بجمع كل اجزاء جسدها لتستجمع كل قواها للوثوب في اتجـاه الخير ساحقة العقبة التي تعترض طريقها الى الحياة ، والمفكر السطحي يرى في انكماش الطبيعة البشرية تبدلاً في نوعها وسطحيته ناشئة عن اعتقاده بان التغير في الكم ينتج تغيراً في الكيف .

ان الظروف قد تعترض ـ بالاحرى ـ اعترضت وتعترض طريق الطبيعة البشرية ، وهذا الاعتراض لايشكل ابداً تبديلا في الطبيعة البشرية المحددة الاهداف والمقاصد بل انما يشكل عقبات اما تنسفها الطبيعة البشرية في طريقها المرسوم او تدور من حولها لتتابع سيرها على طريقها المرسوم وهذا الدوران ، يخاله « كانتريل » وتخاله فلسفة البرجماتزم انحرافاً كلياً وتاماً في الاتجاه وفي الطريق ان « كانتريل » يرى فيه مفرق طرق ، بينما انه في الحقيقة منعطف في طريق مرسوم داخل الطبيعة البشرية تشقه الطبيعة البشرية حينما تمارس وجودية جوهرها في الوجود .

فكانتريل يرى على ضوء الانية القصيرة النظر نوع الطبيعة البشرية واتجاهها وهذا الرأي ضال مضلل او بالاحرى كاذب .

فمثلا اذا جئت انسانا عرف بالكرم والعطاء وذلك لان كرمه وعطـاءه اصيلان في طبيعته ، اقول اذا جئت هذا الانسان وهو في ظروف عسـيرة لايملك فيها مايعطيه فرجعت خائباً فان رجوعي خائبـاً من لدن ذاك الانسان

لايعني ابداً ان ذاك الانسان قد تبدل نوعه فاصبح شحيحاً بخيـــلاً ، ولا يعني ايضاً ابداً ان ذاك الانسان قد انحرف اتجاه طبيعته فاصبح الشح بدلا من الكرم وغدا النجل بدلا من العطاء جوهر طبيعته ونحن نظلم ذلك الانسان ونفتري عليه اذ ننعته بماهو مناف لطبيعته ، ان كل ماحدث لذاك الانسان هو انكماش اليم في طبيعته وتوقف لاانحراف في اتجاهها ، ولكن الآنية والنفعية تفسران هذا التوقف بالانحراف وتعللان ذاك الانكماش بالتبدل الطارىء على نوع طبيعته الاصلية . وهذا كما ارى ولاشك يرى القارىء معي ايضاً ليس بخاطيء فحسب بل محاولة تزوير للطبيعة البشرية ايضاً وبالتالي فرض طبيعة بشرية مزورة واحلالها محـــل الطبيعة البشرية الاصلية .

من هذا كله نستنتج ان الطبيعة البشرية خيرة خالدة الخير في جوهرها وان **قابليتها** ـ ورغبتها في الاستجابة لنوازع الخير ـ اقول قابليتها ـ فيها لايتبدل نوعها او اتجاهها نتيجة للظروف الاقتصادية والاجتماعية ومن ثم السياسة ، وهذا مايعنى مفهوم الحقيقة في ذاتها لامفهوم الحقيقة في فعلها المنكمش وهـذا مايعني ايضاً ان على الدولة القومية ان تبني الاخلاقية العربية لاعلى اساس المنفعـــة المادية المباشرة بل على اساس قابلية الطاقة الخيرة الكامنة في النفس البشرية .

أرى **ثالثاً** ، في الدولة القومية ، تلك التي تجعل من المحبة والتعاطف والتعاضد لامن الاستغلال ، ولاحتى من التبادل المتكافيء للمنافع ، القانون الذي ينظم علاقات الفرد بالفرد ، أو الجماعة بالمجتمع ومن وثم الدولة .

وذلك لان علاقات الفرد بالفرد ، أو بالجماعة والمجتمع والدولة اذا سيطر على تنظيمها روح التبادل وحتى المتكافيء منه للمنافع ، فعندئذ تنعدم الروح الانسانية في علاقات المواطنين بعضهم ببعض ويتلاشى المبدأ الاساسي للمحبة ، وتصبح محبة الانسان لأخيه الانسان ، تقاس بمقياس المنفعة لابمقياس العطاء .

وبهذا ، تنهار الفضائل الانسانية السامية كالتضحية والشهامة والنخوة ، هذه الفضائل التي تشكل القواعد الاساسية « للفروسية » « Chivalry » . كما وتنعدم

القيم في ذاتها ، وتصبح القيم تقدر وتقاس بما تدره من فوائد مادية دون النظر الى مافي هذه القيم من جوهر ثابت .

ان دستور المحبة كما أفهمه ينص في كل قاعدة له على ان لكل انسان الحق في الحياة ، والحياة الكريمة السعيدة بالذات ، وان هذا لايقرره أو يحـــدده مايستطيع الانسان أن يقدمه ، من خدمات ومنافع ، لأخيه الانسان ، أو لمجتمعه أو دولته ، بل انما يقرره ويحدده كون الانسان انسانا .

ووعينا الكامل لهذه الحقيقة الجوهرية ، وعملنا المخلص وفق منطوقهـــا ، يمكناننا من أن نجعل العدالة تنبثق عن الرحمة ، حينما نضع للقومية العربية « ايدولوجيتها » الحديثة وحينما نخطط للدولة العربية نظامها ودستورها .

ونحن اذ نريد للعدالة ، في ايدولوجية القومية العربية ، ان تنبثق عن الرحمة فانما نريد أن تكون عدالتنا عدالة انسانية حية ، وذلك لأن العـــدالة التي تنبثق عن الرحمة ، انما لاتنبثق عن العقل فحسب ، بل انما هي تنبثق عن العقل والضمير والعاطفة النبيلة ايضاً ، وبهذا تشترك جميع القيم السامية في الانسان في تحديد مفاهيم العدالة ، وطريقنا ، الى تحقيق هذه الغاية ، هو طريق المحبة والمحبة فقط .

ان أخطر انحراف قد تصاب به القومية العربية ، في ثورتها الخلاقة البناءة ، هو أن يعتمد الثوريون العرب مبدأ النفعية ، لامبدأ العطاء من القلب ، وذلك لان في اعتماد مثل هذا المبدأ ـ مبدأ النفعية ـ التخلي الكامل عن الروحانية التي امتازت به الحضارات التي قامت في منطقة الشرق ، وخاصة الحضارة الاسلامية .

أنا لاأنكر ان كل حضارة ، يجب ان تقوم على عناصر وعوامل مادية ، وأعرف ان العوامل المادية جد ضرورية ، وأنها تتمتع بالاهمية ذاتها التي تتمتع بها العوامل الروحية ، كما وأعرف ايضاً ان المادة هي التي تجعل الحضارة في متناول العقل والحواس ، غير أنني أرى في طغيان المادة على الروح تقويضاً مروعاً للمثل العليا ، وانكاراً آثماً مخيفاً وبشعاً لحقائق الوجود الانساني ، هذه الحقائق الكامنة في الفطرة الخيرة للنفس البشرية ، والتي تستفز وتشحذ في الانسان سلاح المعرفة

في ضلاله وقصر تجاربه ، تقوده نحو حقائق الوجود التي يكافح لاكتشافها ، كي يستخدمها لخيره وكماله .

ان الانسانية عاشت وتعيش في كل تقاليدها السامية النبيلة ، وفي كل حضاراتها وفي كل مساعيها وجهودها وجهادها في سبيل التطور نحو الاكتمال فالكمال ، وهي تسترشد بوحي الروح والهامه ، تاركة للعقل ومنطقه ، معالجة وتنظيم ماتصل اليه من حقائق الوجود ووقائعه .

ان النفعية ، أو بالاحرى ، التبادل المستمر المتزايد والدائم للمنافع بين المواطنين هو احدى نتائج المحبة ، وليس كل نتائجها ، والمحبة وحدها هي القادرة القديرة على تنمية التبادل في المنافع ، وهي التي توجده ، حينما يكون التبادل ، غير ممكن ، نتيجة لظرف أو ظروف طارئة ، وذلك لان العطاء الذي هو فعل المحبة ، ليس بقوة تستهلك فقط من قبل المعطى بل تستثير الامكانات النافعة فيه ، كما وانها تدعم أمله وتوطدالايمان في نفسه بالانسانية ، وتنمي فيه روح التعاطف والتعاضد والتعاون .

ان العامل الرئيسي في انحراف الحركات القومية الاوروبية ، هو أن هذه الحركات اعتمدت في نموها وتبلورها مبدأ النفعية ، وتنكرت للروح تنكراً سافراً في كل خطوة من سلوكها ، وهذا الانكار البالغ للروح في الحركات القومية الاوروبية ، جرد الامم الاوروبية من أرفع الصفات الانسانية ، وبالتالي أدى الى نشوء الرأسمالية البشعة الجائرة التي تكتوي بنيرانها اليوم بعض الشعوب الاوروبية كما ونتج عنها ماشاهدته الاجيال السابقة لجيلنا ، ومانشاهده نحن اليوم من استغلال نهم شره ، واستعمار أسود مجرم

ان المحبة وحدها ، هي التي تستطيع ان تحفظ على الامة ضميرها ، وان تحافظ للأمة على وجدانها ، والمحبة ، محبة الشيء في ذاته ، هي التي تحول العظمة من كونها عظمة إسمية الى صيرورتها عظمة حقيقية ، كما وان المحبة وحدها هي التي بامكانها ان توفق بين الحرية والسلطة ، وبين ثنائية الحياة في الفرد ، الحياة كفرد ، والحياة كمجتمع . لقد حاولت شتى الفلسفات الاوربية وسعت عبثاً ،

الى التوفيق بين الحرية والسلطة ، وجاهدت معظم الانظمة الاوروبية للتوفيق بين ثنائية الحياة في الفرد ، ولم تستطع الفلسفات الاوروبية والانظمة التي انبثقت عن هذه الفلسفات ان تحقق هذا الغرض السامي ، غرض التوفيق بين الحرية والسلطة ، ومن ثم التوفيق بين ثنائية الحياة في الفرد ، وسبب اخفاق الشعوب الاوروبية في تحقيق هذا المطلب الانساني يعود اولا واخيرا ، الى كون هذه المساعي كانت تعتمد في كل خطوة من خطواتها مبدأ « النفعية » المتدفق من المادة والمادية ، والمتنكر للروح والروحانية . لذلك شاهدنا في اوروبا تلك المساعي تنتهي ابداً بالراديكالية ، آنا تطغي « الأنا في الفردية » على الجماعة والمجتمع والدولة وحينا تطغي الجماعية على الفردية فتطمس كل مافيها من « الأنا » او بالاحرى تسحقها سحقا عنيفاً قاسيا ، يجعل المرء يخال ان الجماعية في روحها تجهل ان الفرد هو اصلها وهو جوهرها .

ان الواجب الاساسي للقومية العربية ، في ثورتها الحالية ، هو ان تقيم التوازن بين ثنائية الحياة في الفرد ، وعليها ان تنجح فيما اخفقت القوميات الاوروبية في كل حركاتها وانظمتها ، وطريقنا الى النجاح لتحقيق هذا الهدف الانساني الرفيع ، هو في ان نترك للروح ، وللروح الانسانية فقط حرية العمل في تنظيم القيم الاخلاقية والفعاليات المادية ، وفي تحديد علاقات الفرد بالجماعة والمجتمع والدولة ، اما اذا تركنا للمنفعة والنفعية هـذه المهمة ، فعندئذ ستنتهي كل مساعينا الى ماانتهت اليه مساعي الحركات القومية في اوروبا .

ان الروح ، والروح وحدها ، هي التي تشد الانسان الى الله ، وهي بالتالي التي تجعل الانسان في محاورة دائمـة مع خالقه ، منها تنبع العقائد وفيها تولد الفضائل ، تحيا وتعيش ، وهي وحدها التي تضفي على المجتمع البشري الصفات الانسانية ، وتحول دون انحدار المجتمع الى غابة تصطرع فيه الوحوش ، يعمل بعضها ببعض عضا وتمزيقا ونهشا ، والروح تنشط ، وتنشط دائماً ابداً ، لاتأخذ بل لتعطي ، وعطاؤها فيض دفاق ، وهي عندما تعطي لاتسأل عما سيعود به

عطاؤها عليها من فوائد ، بل انما تعطي لانها لاتستطيع الا العطاء ، ولانها لاتعيش الا فيه ، ولا تمارس وجودها الا فيه ايضاً ، وذلك لانها النتاج الاصيل للمحبة .

لقد ادرك الفيلسوف الالماني « شبنجلر » السر في اخفاق الحركات القومية الاوروبية ، وسر عطل الحضارة الاوروبية من العظمة الحقيقية ، وذلك حينما قال :

« ان الامم في نهوضها تعبر طريقين مختلفتين ، طريق العقيدة وقوة النفس ، وتلازمه بساطة الظواهر وعظمة الضمائر ، وطريق الفخامة المادية والوفرة العددية ، وفيه تنحل الضمائر ، وتخلفها العظمة التي تقاس بالباع والذراع ، وتقدر بالقنطار والدينار ، وكانت من قبل ذلك تقاس بما لايحس من العزائم والاخلاق » .

انني كلما تأملت في كلام « شبنجلر » المدون اعلاه ، عدت في خاطري الى ماكان لنا من ماض حضاري وتساءلت في عقلي ووجداني عن الاسباب التي ادت الى انهيار الامبراطورية الاسلامية وبالتالي تلاشيها وزوالها ، والحق انني لم اجد حتى الآن من سبب سوى تنكر الخلفاء الذين خلفوا عمر بن الخطاب ، لمبدأ المحبة والتعاطف والتعاضد ، وتنكرهم هذا ادى الى طغيان روح مادية بشعة على ادارة شؤون جامعة الشعوب الاسلامية .

لقد بدأ هذا الانحراف بعثمان بن عفان ، وفي عهد خلافة عثمان بن عفان ولدت الخلية السرطانية الاولى التي اتت على جسد العملاق العربي الجبار آنذاك انني اقرر هذه الحقيقة وانا المسلم السني ، لأن الامانة للحقيقة والتاريخ تفرض هذا الامر وتستوجبه . لقد اندفعت الجيوش العربية من الجزيرة العربية ، وهي لاتملك سوى العقيدة ، وكان الهدف الاسامي لكل عربي طيلة عهود النبي وابي بكر وعمر بن الخطاب ان ينشر راية العروبة والاسلام فوق كل صقع وناد ، غير آبه بالمغريات المادية ، وغير مكترث لما تعود عليه اندفاعاته من

فوائد آنية ، فتابعت جيوش العرب سيرها ، متنقلة من ظفر الى نصر ، لاتتطلع لى ماحولها من ذهب براق وهاج يخطف بريقه الابصار ويعميها ، بل تابعت زحفها المظفر وابصارها مركزة على السماء تستلهمها قوة وعزيمة ، وتطلبها ظفرا ونصرا ، تحمل الى البلاد المفتوحة نظاما جديدا لحمته الحرية وسداه العدالة والمساواة .

ولكن ماكاد بن الخطاب يوسد قبره حتى انحرف عثمان بن عفان بأهداف العرب والاسلام وانحرف الامويون من بعده ، فكان أن أخذت هذه الروح بالخمود ، درجة فدرجة حتى غدت في العصر العباسي الاخير رماداً خابياً مربداً .

وأنا هنا سأسوق أمثلة تاريخية تبين مدى خطورة الانحراف الذي لحق بالقومية العربية على يد عثمان بن عفان واقربائه من الامويين الذين تولوا الحكم من بعده وسأبدأ بايراد بعض سير عمر بن الخطاب ، هذا الخليفة العربي المسلم النموذجي في عروبته واسلامه ، لاورد بعدها سيرا عن عثمان تاركا للقاريء الكريم اكتشاف التناقض بين سلوك الرجلين .

(١) عقب أن ذبح عمر ناقة عمياء وطبخها ودعا الى مائدته الانصار ، تمنى هؤلاء عليه لو أنه كل يوم يقوم بمثل هذا الامر فقال عمر .

« لاأعود لمثلها أبداً ، انه مضى لي صاحبان عملا عملا وسلكا طريقاً ، اني اذا عملت بغير عملها سلك بي غير طريقهما . »

(٢) دخل عمر بيته وقد أصابه الغرث (الجوع) فقال عندكم شيء ؟ فقالت امرأته ، تحت السرير ، فتناول قناعاً فيه تمر فأكل وشرب ثم مسح بطنه ثم قال ويح لمن أدخله بطنه النار .

(٣) قال ابو عمر الجوني : والله ما مكان يصيب عمر من الطعام هو وأهله الا تقوتا .

(٤) كان يجلس لدى عمر حفص بن أبي العاص وكان يحضر طعامه ولايأكل فقال له عمر مايمنعك من طعامنا ؟ فقال طعامك جشب غليظ ، واني راجع الى طعام

لين قد صنع لي فأصيب منه .

فقال عمر : اني لاراك عالماً بطيب العيش ، والذي نفسي بيده لولا تنقص حسناتي لشاركتكم في لين عيشكم ، لكنني استبقي طيباتي ، لاني سمعت الله تعالى يقول عن اقوام :

« أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها . »

وأمر غلاماً له أن يعمل عصيدة وقال :

أنضج كي يذهب حرارة الزيت ، فان اناساً تعجلوا طيباتهم في حياة الدنيا .

(٥) قال علي بن أبي طالب :

رأيت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ازاراً فيه احدى وعشرون رقعة من أدم (جلد) ورقعة من ثيابنا .

(٦) قال أنس :

لقد رأيت في قميص عمر اربع رقع بين كتفيه .

(٧) وعن أبي عثمان الفهدي :

رأيت عمر يرمي الجمر وعليه ازار مرقوع بقطعة جراب .

(٨) وعن غيره :

ان قميص عمر فيه اربعة عشر رقعة احداها من أدم (جلد) .

(٩) أبطأ عمر جمعة بالصلاة فخرج فلما أن صعد المنبر اعتذر الى الناس وقال :

انما حبسني قميصي هذا ، لم يكن لي قميص غيره .

(١٠) وعن نافع قال :

سمعت بن عمر يقول :

والله ماشمل النبي في بيته ولاخارج بيته ثلاثة اثواب ، ولاشمل ابابكر في بيته ثلاثة أثواب ، لقد رأيت النبي يرقع ثوبه ، ورأيت ابابكر يخلل بالعباء ورأيت عمر يرقع جبته برقاع من أدم (جلد) وهو أمير المؤمنين .

(١٢) كتب عمر الى أبي موسى :

اذا جاءك كتابي هـــذا فاعط الناس اعطياتهم واحمل الي مابقي مع زياد ، ففعل فلما تولى **عثمان بن عفان** الخلافة كتب الى أبي موسى كتابا مماثلا ، ففعل وجاء زياد بما معه ووضعه بين يدي عثمان فجاء ابن لعثمان فأخـذ شيئاً من فضة فمضى به ، فبكي زياد فقال عثمان مايبكيك ؟ فقال :

اتيت عمرا بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخـذ درهماً فأمر به فانتزع منه حتى ابكى الغلام ، وان ابنك هذا جاء فأخذ هذه ، فلم أر أحداً قال له شيئاً فقال عثمان

ان عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله ، وانني أعطي أهلي واقربائي ابتغاء وجه الله ولن تلقى مثل عمر ! ولن تلقى مثل عمر ! ولن تلقى مثل عمر !

(١٣) أعطى عثمان أهله بعض الجواهر والمجوهرات كانت في بيت المـال وهو يقول :

« لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وان رغمت انوف قوم » .

(١٤) زوج عثمان أربعاً من بناته لنفر من قريش وأعطى كل واحد من أزواجهن مائة الف دينار .

(١٥) أعطى عثمان مروان بن الحكم الاموي خمس الغنيمة التي غنمها في افريقية .

(١٦) أعطى عثمان عمه « الحكم » ثلاثماية الف دينار .

(١٧) أعطى عثمان الحارث بن « الحكم » ثلاثماية الف دينار .

(١٨) ارسل عثمان الحارث بن الحكم لجمع الصدقة من قضاعة فلما عاد الحارث وهبها له .

(١٩) أعطى عثمان عبد الله بن خالد بن اسيد ثلاثماية الف دينار واعطى كل واحد من الذين وفدوا مع خالد مائة الف دينار .

(٢٠) أعطى عثمان بن عفان الزبـير بن العوام ستماية الف دينار .

(٢١) أعطى عثمان بن عفان طلحة بن عبيد الله مائة الف دينار .

(٢٢) حج عمر بن الخطاب ـ أقول عمر بن الخطاب ـ فانفق في حجه ستة

عشر ديناراً فالتفت الى ولده وقال : أسرفنا في سفرنا هذا .

(٢٣) جاء عقيل بن طالب أخاه علياً مسترفداً فقال علي لابنه الحسن :

اذا خرج عطائي فسر مع عمك الى السوق ! فاشتر له ثوباً جديداً ونعلين جديدتين !

فذهب عقيل الى معاوية في دمشق فاعطاه معاوية مائة الف دينار . ولعل ابلغ قصة تمثل الانحراف الخطير الذي طرأ على المباديء الاساسية للقومية العربية هي القصة التالية :

دخل سعد بن أبي وقاص على معاوية فبادره قائلاً : السلام عليك ايها الملك فضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا اسحق لو قلت ياأمير المؤمنين ؟! فقال سعد ، أتقولها جذلان ضاحكاً ؟! والله ما أحب أن وليتها بما وليتها به .

هذا غيض من فيض ، غير انه يعطي صورة واضحة للانحراف الذي بدأ بعثمان بن عفان لينتهي بالعباسيين ، تلك النهاية الاليمة التي قوضت جامعة الشعوب الاسلامية ، وجرفت العرب كعنصر فاعل وفعال في تلك الجامعة ، الى ظلمات التاريخ وزوايا النسيان الداكنة .

وهذه الامثلة تبين بجلاء ، ان اشد الضربات التي يمكن ان تنزل بعقيدة ناشئة ، هي تلك المتمثلة بطغيان المادة على القيم الروحية ، اذ ان الانسان عندما لايستطيع ان يقاوم مغريات المادة يستسلم لشهواته ويستسلم « للأنا » المغلقة وينحرف خطوة فخطوة عن خط سيره ، فيضل ويضلل ، ولا يستيقظ من ضلاله او تضليله الا وهو في قعر الهاوية .

لقد كان عثمان يحب اقرباءه ، وكل مافعله انما كان باعثه « المحبة » ، لكن محبة عثمان هذه تختلف عن المحبة التي يجب على القومية العربية ان تأخذها حجر الزاوية في النظام الذي تريد ان تشيده للأمة العربية ، فمحبة عثمان كانت محبة ضيقة غير رحبة ، وهاتان الصفتان تتناقضان وجوهر المحبة ، لان المحبة هي امتداد مطلق لانهائي ، لاتنتهي عند الاقرباء او الانصار بل انها تشمل الكون كله وقد

نتجاوزه وتتعداه ، لانها هي الشمس الكونية ، التي يدور الكون حولها ، منها يستمد نوره ومنه يستمد اسباب وجوده .

ان المحبة ، اذا لم يتصف امتدادها باللانهـــائي ، تنقلب عدوانا ، وتنقلب استعمارا وتنقلب استبدادا ، وتنقلب مظالم وتنقلب طغياناً .

فانا احب نفسي عندما احب قومي ، واحب قومي عندما احب البشرية واحب البشرية عندما احب كل مافي الكون . وحبي يجب ان لاتقرره المنفعة بل المحبة والمحبة وحدها ، بهذا فقط وبواسطة هذه العقيدة والايمان استطيع ان امارس وجودي كانسان خلقني الله على صورته .

والقومية العربية اذا استطاعت في ثورتها الحالية ان تدفع بشعوبها الى اعتناق هذا المبدأ الاساسي ، فعندئذ تستطيع الامة العربية ان تتزعم الامم الاخرى وان تقود العالم في الاتجاه الصحيح .

ان العالم اليوم ، وعقب التطور المخيف في امكاناتـــه المادية ، غدا يناقش وجوده ، ويناقش معضلاته على ضوء العلم المادي الحديث ؛ وهـذه المناقشة ، اذا استمر جريانها على المجرى الحالي الذي تجري عليه ، فان مصير البشرية على ظهر هذا الكوكب الى دمار شامل وفناء محتوم .

ان العالم يفتقر اليوم الى زعامة روحية ، زعامـــة تستطيع ان تنظم امكانات العالم الضخمة وتوجهها في صالح الانسانية ، ومثل هـــذه الزعامة لايمكن ان تولد الا اذا كانت المحبة منها الأم والوالد .

اننا نحن معشر العرب بقدورنا ان نتولى مقاليد مثل هـذه الزعامة ، وفي تاريخنـــا الحضاري من الامثلة مايدلل على قدرتنا على تحقيق هـــذه الغاية ، وانني لواثق من ان شعوب العالم سترحب بنا ، بل وسترفعنا الى مرتبة الزعامة والقيادة ، وذلك في حالة اقناعنا هـــذه الشعوب بان القومية العربية وفي كل مراحل حياتها منذ عهد البطل القومي الاول النبي محمد حتى يومنا هـذا ، انما انبعثت عن المحبة الصافية المجردة عن كل غرض او غاية ، وانها من اجل المحبة

ونشرها تعيش ، وفي المحبة تنمو وتترعرع .

لقد استطعنا فيما مضى نحن معشر العرب ان نؤلف بين شتى الالوان والاجناس وبين مختلف البلدان والاقطار ، وان نصنع من السامي والحامي والآري امة واحدة وان نصنع من تلك الاقطار دولة واحدة يسودها العدل وتوجهها الرحمة ، لقد استطعنا ان نفعل ذلك فيما مضى لاننا اعتمدنا المحبة قانونا لنا ودستورا ، فساوينا بين جميع العناصر والعرب ، وساوينا بين جميع الالوان والعرب ، واعتمدنا الكفاءآت دون ان ننظر الى لونها او جنسها ، وتسامحنا تسامحا مطلقا وارغمنا معظم المستشرقين المنصفين من الاجانب على الاعتراف بان العرب كانوا اوسع الفاتحين تسامحاً ورأفة واكثر الحاكمين عدلا وانصافا . لقد سلكنا طريقنا آنذاك بنجاح وظفر ، لاننا حينما كنا نعمل لانفسنا كنا نعمل للانسانية جمعاء .

انه لمما يدمي القلب ان يشاهد المرء عقب ان نجح الاتحاد السوفياتي في اطلاق الاقمار الصناعية ان يستقبل مثل هذا الحدث الثوري الخطير بالذعر والخوف والوجل من قبل العالم الغربي ، وان يقابل الشرق ذعر الغرب ووجله بالتهكم والسخرية ؛ وهكذا ، وبين ذعر الغرب وتهكم الشرق ، ضاعت المعاني الانسانية الحقيقية لمثل هذا الحدث الرائع الذي وضعنا على اعتاب الكون .

وهذا الامر ليس بعجيب او مستغرب في عالم استسلم استسلاماً مطلقاً للمادة وأهمل الروح .

ان العالم بحاجة الى من يصرخ في آذان الشرق والغرب معاً صوتاً مدوياً ويقول :

فليستقبل جميعكم اطلاق القمر السوفياتي بالفرح والغبطة لا بالخوف والذعر والوجل ، فهذا الحدث حدث انساني لا قومية له أو جنس ، انه لي ولك وله ، انه لنا جميعاً !

فهل نكون نحن معشر العرب هذا الصوت ؟ وهل تكون قوميتنا له

الصدى ! أنا واثق من أننا سنكونه ، اذا اعتمدنا المحبة لنا قانوناً ودستوراً .

السلطة في الدولة :

أن المهمة الاساسية للسلطة في الدولة ، تتمثل في بعث الفضائل في النفس البشرية ، لا في غرسها أو ايجادها ، فالفضائل كما قلت سابقاً موجودة وكامنة في نفس كل انسان ، لكنها تكون أحياناً غافية لا تمارس وجودها ، وعدم ممارستها لوجودها لايعني أبداً أنها غير موجودة ، لهذا يتوجب على السلطة في الدولة إيقاظ هذه الفضائل ، ايقاظاً يجنب النفس البشرية الاذى والامتهان أو الانكماش . لذلك يفترض في السلطة الحكمة والحذر المترافقين بالعطف والاعتدال والرحمة .

ووظيفة السلطة كوظيفة الأم تماماً ، والأم العطوف هي تلك التي توقظ طفلها من نومه برفق وحنان ، كي ترسل به الى المدرسة ليبدأ نهاراً مدرسياً جديداً . كذلك يتوجب على السلطة أن توقظ حماس الشعب وضميره .

لذلك يتوجب على السلطة في الدولة القومية الابتعاد عن كل اجراء غير ضروري ، بحيث يكون من شأن هذا الاجراء ان يؤدي بالنفس البشرية الى الانكماش والتبلد ومن ثم الى الخضوع والتبعية . ان علاقات المواطن او المواطنين بالسلطة لاتقوم ولا يجوز ان تقوم في الدولة ذات السيادة ، على اساس حاكم ، ومحكوم ، بل انما تقوم فقط على اساس موجه وموجه . كما وانه ليس من واجب السلطة ان تجر الشعب أو الامة وراءها ، فالسلطة لايمكن ان تملك هذه القوة وتستخدمها استخداما ناجحا ، بل انما الواجب الاساسي للسلطة يتمثل في ان تستفز السلطة نوازع الخير في الشعب وان تدفع بهذه النوازع الى مجالات النشاطات والعمل ، ومن ثم تتدخل في توجيهها - اي نوازع الخير - لاعن طريق الارغام بل عن طريق المناقشة والاقناع ، وذلك لان مهمة السلطة الواعية مركزة على التعامل وشعب يرغب رغبة عميقة في التحرر والتقدم ، لاشعب فاقد الرغبة في التحرر والتقدم .

ولما كانت اهداف السلطة تلتقي باهداف الشعب الراغب في التحرر والتقدم، لانها تنبثق عن الشعب وتنبع من ضميره وارادته ، لذلك كان الاكراه والارغام على شيء او عمل ، يريده الشعب اصلا ، امراً لايستوجبه عقل او منطق ، وكل مايستوجبه هو مناقشة فاقناع وذلك في حالة غموض اهداف السلطة ومراميها للشعب .

ان السلطة لاتملك سوى الشعب كأداة لتنفيذ اهدافها التي هي بالاصل اهدافه . لذلك يتوجب على السلطة وفي كل الاحوال ان تنبذ المبدأ القائل بان على السلطة ان تفرض هيبتها ، لان السلطة الواعية لاتعيش على مهابة الناس لها ، بل انما تعيش على محبة الناس ، وايمان الشعب بفائدتها .

أما السلطة التي تسترشد بمبدأ فرض المهابة والهيبة ، فهي سلطة تتفجر قواها حماقة ورعونة وطيشاً ، ومثل هذا النوع من السلطات لايمكن أن يدوم أو يعمر .

لهذا يتوجب على السلطة أن تفرض احترامها لامهابتها ، فالاحترام مبعثه المحبة والايمان ، أما المهابة فمبعثها الخوف والاذعان .

والقوة قد تخضع ولكنها لاتقنع ، والاستعمار ، أو النظام الاستبدادي ، هما وحدهما اللذان يعمدان الى الاخضاع ، بسبب التعارض الجوهري القائم بين مصالحها ومصالح الامة المحكومة .

أما طريق السلطة الى اكتساب احترام الامة ، فيكون في اقناع الامة بان في بقاء السلطة القائمة بقاء لتدفق الخير في المجتمع ، وأن في زوالها توقف للخير في دفقه ، ومثل هذه السلطة يحترمها الشعب ويذود عند الضرورة عن حياضها بكل غال ورخيص ، فيضحي الشعب آنذاك بماله ورخائه دفاعاً عنها ، ويحتمل في هذا السبيل مالايجرؤ أشد الانظمة استبداداً أن يفرضه عليه .

الدولة والتركيب المجتمعي :

قلت ، فيما سبق ، ان الدولة القومية هي الاداة التي تستعملها الشعوب العربية ،

الموحدة المصير في الامة العربية ، حين ممارسة هذه الشعوب لسلطاتها ، وقلت أيضاً ان الدولة القومية هي تلك التي تؤمن باصالة الخير في النفس البشرية عامة ، وفي النفس البشرية خاصة ، وأنها لذلك ترفض ، وفي كل الاحوال ، أن تضع خططاً أو مناهج معينة تسير النفس البشرية وفقها ، بل نرى ان واجبها يتركز على تحرير الخير في النفس العربية واطلاق سراحه من سجون الاثرة والاطماع ، واخيراً قلت ان الدولة القومية هي تلك التي تجعل من المحبة والتعاطف والتعاضد ، لامن الاستغلال ، ولا حتى من التبادل المتكافيء للمنافع ، دستوراً لها وقانوناً .

والآن ، وقبل ان ابدأ بحثي المتعلق بالدولة والتركيب المجتمعي ، أرى أنه من المفيد أن استعرض نظريات الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ والاشتراكية ، والفاشستية ، والفوضوية ، في هذا الموضوع . ومن ثم سأسوق ماأراه صالحاً من آراء شخصية مقترحاً العمل بها ، في هذه المرحلة التي تحاول فيها القومية العربية أن تنشيء دولة اتحـــادية ترسي اسسها على قواعد ، توفر علينا مستقبلاً الثورات والانقلابات وما قد يرافق هذه من انحرافات واخطاء فنكسات فخسائر

١ ـــ نظرة الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ في الدولة :

ترى الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ ان الدولة ليست بقوة تفرض من خارج المجتمع ، بل أنها قوة تنبثق عن التركيب الطبقي في المجتمع ، أو بالاحرى عن المتناقضات المصلحية التي تسود التركيب المجتمعي بالذات ، وتقول الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ بان مهمة الدولة ، والحال هذه ، تتركز على تخفيف حدة النزاع بين الطبقات ، هذا النزاع المحتوم نتيجة للتعارض المصلحي بين الطبقات ، ولهذا فان الدولة تضع نفسها **بالظاهر فقط** فوق المجتمع ، وتوجهه الوجهة التي تجنبه انفجاراً يدمر كل أسسه وتركيباته .

والواجب الاساسي للدولة في المجتمع لايتمثل في حل هذه المتناقضات ، الحل الذي يذهب بالتعارض المصلحي بين طبقات الامة ، وبالتالي ينهي حالة النزاع

الطبقي الناشيء نتيجة لهذا التعارض ، بل ان الواجب الاساسي للدولة يتمثل في تهيئة الجو الملائم ، والقضاء على كل مايعكر هذا الجو ، كي تتابع الطبقة الحاكمة استغلال جميع ماالمجتمع من قوى وخيرات ، استغلالاً يحصر عوائدها ومراديدها (القوى والخيرات) بابنـاء الطبقة الحاكمة ..

وبهذا يقول فريدريش انجلز في الصفحتين ١٧٧ و ١٧٨ من كتابه المعروف باسم « اصل العائلة ، والملكية الخاصة والدولة » مايلي :

« لاتمثل الدولة مطلقاً قوة مفروضة من الخارج على المجتمع ، كما أنها ليست ، البتة ، « واقع الفكرة الاخـلاقية » ، « صورة العقل وواقعه » كما يدعي « هيغل » ، الدولة نتاج للمجتمع في مرحلة من مراحل تطوره ، وهي تشكل الاقرار بان هذا المجتمع قد تعثر في تناقض مع نفسه يمتنع عن الحل ، انه انقسم الى متضادات لايمكن مصالحتها ، متضادات يعجز عن التخلص منها ، ولكنه أصبح من الضروري - كيلا تلتهم هـــذه المتناقضات هذه الطبقات المتناقضة المصالح بعضها بعضاً ، وتلتهم المجتمع في صراع مجدب - وجود قوة تخفف من حدة النزاع باقامة نفسها فوق المجتمع ظاهريا وتحفظه في حدود « النظام » .

هذه القوة المنبثقة عن المجتمع ، لكن الواضعة نفسها فوق المجتمع ، المبتعدة اكثر فا كثر عنه ، هي الدولة . »

وفق هذه القاعدة التي أوردها انجلز في كتابه الانف الذكر تحدد الاشتراكية العلمية - الشيوعية - مفهوم الدولة . وهي لهذا تفسر الدولة في عهود الاقطاع بكونها قوة سياسية ، قامت وتقوم لحمـــاية طبقة الاقطاع وتيسير السبل لهذه الطبقة - طبقة الاقطاع - لاستغلال واستعباد الفلاحين .

كما وانها - أي الاشتراكية العلمية، تفسر الدولة في عهود التنظيم الرأسمالي ، بكونها - أي الدولة - القوة السياسية التي تحمي الطبقة الرأسمالية وتهيء لهذه الطبقة الاجواء التي تمكنها من متابعة استغلال الطبقة العاملة - البروليتاريا -

مما ورد يفهم أن الدولة، في نظر الاشتراكية العلمية ، هي اداة ارغام بيد الطبقة الحاكمة ، وأنها قوة ساحقة ، ماحقة ، تسحق وتمحق كل عقبة تعترض سبيل الطبقة الحاكمة الى جني الفوائد والمكاسب .

وترى الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ أنه لما كانت الطبقة العاملة ـ البروليتاريا ـ هي التي تشكل الاكثرية الساحقة من الامة ، وهي ايضاً التي تنتج كل مافي المجتمع من فوائد وضرورات للحياة والعيش ، لذلك فان العدالة في ابسط مفاهيمها تقضي بان تنبثق الدولة عن الطبقة العاملة ، لتدير وتوجه الفعاليات الاقتصادية الوجهة التي تؤمن تحقق مصلحة الطبقة العاملة ، لهذا تنادي الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ بضرورة ثورة الطبقة العاملة على كل دولة غير مبثقة عن الطبقة العاملة ، بغية الاستيلاء على الحكم والسلطان .

وترى الاشتراكية العلمية في الثورة ، أو بالاحرى ، في الحرب الاهلية الوسيلة الوحيدة للطبقة العاملة للوصول الى الحكم وادارة المجتمع في كل مرافقه لصالح الاكثرية الساحقة من الامة ، هذه الاكثرية المؤلفة من الطبقة العاملة « البروليتاريا » . وقد ورد هذا الامر واضحاً صريحاً في « البيان الشيوعي » الموقع من قبل فريدريش انجلز وكارل ماركس ، حيث يقولان مايلي :

« وحين نخطط مراحل تطور البروليتاريا بصورة اجمالية ، فاننا نرسم في الوقت نفسه تاريخ الحرب الاهلية ، الاكثر أو أقل خفاء ، المحتدمة في قلب المجتمع حتى الساعة التي تنفجر فيها بشكل ثورة علنية ، فيضع انهيار البرجوازية الاسس لسيطرة البروليتاريا . ان المرحلة الاولى في ثورة العمال ، كما رأينا آنفاً ، هي رفع البروليتاريا طبقة سائدة ، الاستيلاء على الديمقراطية .

وستستخدم البروليتاريا سيادتها السياسية لانتزاع رأس المال من البرجوازية شيئاً فشيئاً ، ومركزة جميع أدوات الانتاج في أيدي الدولة ، يعني في ايدى البروليتاريا المنظمة في طبقة حاكمة ، وزيادة كمية القوى المنتجة وانمائها باسرع ما يمكن . »

أما لينين الذي اسس اول دولة تقوم على اسس الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ فانه يعرف الدولة بما يلي وذلك في الصفحة ٣٧ من كتابه « الدولة والثورة »

« ان الدولة هي التنظيم الخاص للقوة ، انها تنظم العنف لاضطهاد طبقة معينة . فماهي اذن الطبقة التي ينبغي للبروليتاريا أن تضطهدها؟ انها طبعاً الطبقة المستثمرة الوحيدة. يعني البرجوازية . لايحتاج الشغيلة للدولة الاكي يقهروا مقاومة المستثمرين ، ولكن قيادة هذا القمع وتحقيقه عملياً لايمكن ان يقوم بهما سوى البروليتاريا ، وهي الطبقة الثورية حتى النهاية ، الطبقة الوحيدة القادرة على توحيد سائر الشغيلة وسائر المستثمرين ـ بفتح الميم ـ في النضال ضد البرجوازية لخلعها التام .

ويستطرد لينين في كتابه الآنف الذكر فيتحدث عن عقيدة نضال الطبقات فيقول في الصفحة ٣٥ منه مايلي :

« ان عقيدة نضال الطبقات المطبقة من قبل ماركس على الدولة والثورة الاشتراكية تقود بالضرورة الى الاعتراف بالسيطرة السياسية للبروليتاريا ، بدكتاوريتها ، يعني بسلطة لاتقاسم احدا فيها ، سلطة تعتمد بصورة مباشرة على القوة المسلحة للجماهير . ان قلب البرجوازية لايمكن تحقيقه سوى بتحويل البروليتاريا **الى طبقة سائدة** ، قادرة على سحق المقاومة التي لامفر منها ، المقاومة اليائسة التي ستبديها البرجوازية ، وعلى تنظيم سائر الجماهير العاملة والمستثمرة ـ بفتح الميم ـ في سبيل نظام اقتصادي جديد . »

وتقول الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ أنه وعندما تستولي البروليتاريا على الحكم فيتوجب عليها آنذاك ان تحطم آلة الدولة الممثلة في الجهاز البيروقراطي ، وان لاتنقل هذا الجهاز من يد الى اخرى حتى ولوكانت تلك اليد يد البروليتاريا بالذات ، وذلك لان تنظيم الجهاز البيروقراطي الموروث قد تم تصميمه وفق المصالح التي أملتها الدوله السابق وجودها لوجود دولة البروليتاريا .

وبهذا يقول لينين في كتابه المعروف باسم الدولة والثورة ، وذلك في الصفحة ٦٠ منه :

ان تحطيم هذه الآلة (الآلة البيروقراطية) وتدميرها ، هذا ما كان حقاً في صالح الشعب ، صالح غالبيته ، العمال ومعظم الفلاحين : هذا هو « الشرط المتقدم » للاتحاد الحر بين الفلاحين الفقراء والبروليتاريين . »

ويستند لينين في عقيدته هذه على الخطاب الذي خطه ماركس بتاريخ ١٢ نيسان ١٨٧١ الى كوجلمان ، حيث جاء فيه مايلي :

« اذا ماأعدت قراءة الفصل الاخير من كتابي ١٨ برومير ، فسوف تجدني اؤكد ان الثورة في فرنسا ينبغي لها قبل كل شيء **ان تجرب لانقل الآلة البيروقراطية والعسكرية الى ايد اخرى – الامر الذي حدث على الدوام حتى الآن – بل ان تحطمها** » .

ويسترسل كارل ماركس في خطابه الى كوجلمان فيقول :

« ههنا بالضبط يقوم الشرط المتقدم (تحطيم الآلة البيروقراطية) لكل ثورة شعبية حقا في القارة . وهذا أيضاً مايحاول ان يحققه رفاقنا الابطال في الحزب في باريس » مما ورد يفهم ان الاشتراكية العلمية – الشيوعية – تقول بان على البروليتاريا حين وصولها الى السلطان ان لاتقتلع جذور الانظمة السابقة لوجود حكمها بل ان عليها ان تدمر جميع مشتقات هذه الانظمة تدميرا كاملا بغية احلال مشتقات اخرى تكون منها البروليتاريا الجوهر والمظهر معاً ؛ فالجيش يجب ان يستبدل بالشعب المسلح ، والبرلمان يجب ان ينتخب من قبل «الكومونات» او السوفيات – الجمعيات .

وترى الاشتراكية العلمية – الشيوعية – ان وصول البروليتاريا الى الحكم لايعني فقط فرض الطبقة العاملة طبقة سائدة ، بل إنما يعني بالضرورة ايضا زوال التركيب الطبقي في المجتمع ، وقيام دولة لاتعرف نظام الطبقات المألوف تاريخياً وبذلك يتلاشى كل تعارض او تناقض يمكن ان يصيب او يكتنف التركيب المجتمعي في الدولة . وعندئذ تتطور الدولة فتصبح جمعية .

وبذلك يقول ماركس في كتابه المعروف باسم « بؤس الفلسفة » (هذا

الكتاب الذي رد فيه ماركس على كتاب « برودين » المعروف باسم « فلسفة البؤس ») اقول يقول ماركس في الصفحة ٢٥١ منـــه عن تطور الدولة البروليتارية مايلي :

« ان الطبقة العاملة ستستبدل ، في مجرى تطورها ، المجتمع البرجوازي القديم بجمعية تنفي الطبقات وتضادها ، ولن تكون (اي الدولة) عندئذ سلطة سياسية بكل معنى الكلمة ، مادامت السلطة السياسية هي بالضبط التعبير الرسمي عن تضاد الطبقات في المجتمع البرجوازي » . ونقول الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية بان دولة البروليتاريا عندما تبلغ آخر مرحلة من مراحل تطورها فعندئذ تفنى الدولة بكل مالها من مفهوم ويصـــر الاشتراكيون العلميون **على كلمة فناء لا الغاء** وعندئذ تصبح « الدولة » (وذلك اذا سمح لنا باستعمال كلمة « دولة » اذ ان الشيوعية لاتعترف بوجود دولة) اقول تصبـــح الدولة البروليتارية في آخر مراحلها دولة شيوعية تنتفي فيها موجبات قيام الدولة واسبابها .

ويتم هـذا التطور الآنف الذكر ـ فناء الدولة ـ حينما تتحقق الشروط الاربعة التالية :

أ ـ زوال الطبقات زوالا تاما وزوال بقاياها وعوالقها وامتداداتها .

ب ـ تطور هائل ونمو عظيم في القوى المنتجة .

ج ـ تخطي تقسيم العمل الموزع بين اعمال مادية واعمال عقلية .

د ـ سعادة الانسان الحر في مجتمع حر .

وقد وصف فريدريش انجلز فناء الدولة من وجهة النظر الشيوعية وضعا دقيقا في كتابه المعروف باسم « ضد يوجين دوهرنج » وذلك من الصفحة ٣٦٠ الى الصفحة ٣٦٢ ، وقد جاء في وصفه ذاك مايلي :

« تستولي البروليتاريا على سلطة الدولة وتحول وسائل الانتاج باديء ذي بدء الى ملكية الدولة . ولكنها بذلك تقضي على نفسها بصفتها بروليتاريا ، تقضي على سائر الفوارق الطبقية وسائر التضادات الطبقية **وتقضي بالتـالي على الدولة بصفتها**

دولة . ان المجتمع كما هو ، المتحرك عبر تضادات الطبقات ، كان يحتاج في كل عصر الى الدولة ، يعني الى منظمة خاصة بالطبقة المستثمرة ـ بكسر الميم ـ في سبيل الحفاظ على شروط انتاجه الخارجية . وعلى الاخص في سبيل الحفاظ بالقوة على الطبقة المستثمرة ـ بفتح الميم ـ في شروط الاضطهاد التي يتطلبها اسلوب الانتاج (العبودية ، نظام الرق ، العمل المأجور) .

ويسترسل انجلز فيقول :

« لكن الدولة اذ تصير أخيراً الممثل الفعلي للمجتمع بأسره فانها تصبح هي نفسها زائدة عديمة النفع .

ويستطرد أنجلز قائلاً :

« ان الدولة لم تلغ انها تفنى . »

وقبل ان اختتم بحثي هذا عن الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ في نظرتها الى الدولة وأسباب نشأتها ووظائفها ومن ثم فنائها أرى من المفيد ان أستعرض استعراضاً سريعاً عاجلاً للاسس الفلسفية التي تنهض عليها الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ .

تستند الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية الى فلسفة تعرف بفلسفة المادية الديالكتيكية.

وهذه الفلسفة تحكمها وتوجهها ثلاثة قوانين حديدية وهي :

القانون الاول : **قانون وحدة المتناقضات .**

ينص هذا القانون على ان التناقض هو ينبوع كل حركة وحياة في العالم ، ويقول إن كل شيء يوازي نفسه وينفيها معاً .

فالزهرة ، مثلاً ، هي زهرة ونفي للزهرة في الوقت ذاته ، وذلك بقدرة الزهرة على ان تصبح ثمرة .

وفي حال اشتداد المتناقضات واشتداد صراعها في كائن ما ، مجتمع أو دولة ، ينتاب آنذاك المجتمع أو الدولة تفككك ومن ثم انهيار فتلاش فزوال ، مفسحاً

الطريق لقيام دولة أخرى أو مجتمع آخر .

وكان أول من اكتشف هذا القانون هو الفيلسوف الالماني هيغل .

القانون الثاني : **قانون العبور من الكمية الى الكيفية** :

ينص هذا القانون على ان كل تبدل يطرأ على المجتمع يكون باديء ذي بدء تبدلاً كمياً ثم يزداد هذا التبدل حتى يصل الى ما يسميه هيغل « بالعقدة » ، أي حيث ان الشيء (المجتمع) لايقدر أن يتحول فيبقى ذاته وهذا ما ينافي القانون الاول – قانون وحدة المتناقضات وهنا يحدث انفجار (أي حين وصول التبدل الكمي الى العقدة) فينشأ عن هـذا الانفجار تبدل كيفي ، أي أن التنظيم الرأسمالي عندما يبلغ أعلى درجاته ، وهي الاحتكار ، عندئذ يبلغ آخر درجات انحلاله ، فتحدث ثورة بروليتارية ، تبدل التنظيم الرأسمالي الى تنظيم اشتراكي ، وهـذا التبدل ناشيء عن كون « كم » التنظيم الرأسمالي وصل العقدة ، فانفجر فأدى انفجاره الى تغيير في « الكيف » في المجتمع .

ويضرب الاشتراكيون العلميون – الشيوعيون ، للتدليل على صحة هـذا القانون ، مثلاً **بالماء** ، فيقولون إنك اذ ارتفعت بدرجة حرارة الماء الى مافوق درجة المئة ، فعندئذ يتحول الماء الى بخار .

القانون الثالث : **قانون نفي النفي** :

يحدد هذا القانون القضية والنقيض والمركب :

« THESE, ANTITHESE, SYNTHESE »

يقول هـذا القانون ان القضية (These) تنهار تحت تأثير المتناقضات التي تقوم عليها وتكتنفها ، وفي انهيارها هذا تخلي الطريق ، او بالاحرى المكان ، للنقيض (Antithese) وبذلك يصبح النقيض **نفياً للقضية** ، ويحاول النقيض (نفي القضية) أن يوفق بين المتعارضات التي تكتنف وجود القضية (These) غير أنه لا يوفق في ذلك ، فيرث عندئذ النقيض (Antithese) عن القضية عناصر النزاع وأسباب الصراع . وعندما يبلغ الصراع والنزاع في النقيض ذروتهما ،

أي عندما يبلغ « العقدة » ، يحدث الانفجار (الثورة) ليطيح بالنقيض وليحل المركب (Synthese) محل النقيض ، وبذلك ينفي المركب نفي القضية في النقيض فيصبح عندئذ المركب نفياً لنفي القضية .

وهذا ما يسمى بقانون **نفي النفي** .

ويضرب الاشتراكيون العلميون ـ الشيوعيون على ذلك مثلهم التقليدي ، مثل البذرة التي تصبح شجرة ، فيقولون :

« الشجرة التي تعطي الثمرة هي نفي للبذرة ، والثمرة الناجمة عن الشجرة هي نفي لها ، فهي ـ أي الثمرة ـ اذن **نفي للنفي**

ويطبق الاشتراكيون العلميون ـ الشيوعيون ـ هذا المثل على التطور الاجتماعي ايضاً فيقولون : ان النظام الرأسمالي قد ألغى المتناقضات في النظام الاقطاعي ، غير أنه لم يوفق في التخلص من آثارها الاجتماعية ، فاكتنفه نتيجة لذلك مناقضات اخرى وستؤدي هذه المناقضات الى هدم النظام الرأسمالي وانهياره ، ويؤدي هذا الانهيار الى قيام النظام الاشتراكي .

وبذلك يعتبر الاشتراكيون العلميون ـ الشيوعيون ـ النظام الاقطاعي بمثابة القضية (These) والنظام الراسمالي بمثابة النقيض (Antithese) والنظام الاشتراكي بمثابة المركب (Synthese) . هذا ملخص مقتضب لفلسفة المادية الديالكتيلكية التي تنهض على أسسها الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ من حيث هي عقيدة ونظام . والآن سأنتقل بالقارىء الى استعراض الاسس التي تقوم عليها الاشتراكيات الاخرى (غير الشيوعية) .

ب ـ نظرة الاشتراكية (غير الشيوعية) في الدولة :

اذا أردت أن اكون دقيقاً في بحثي هذا ، فالامانة تلزمني أن أبدأ البحث بقولي : إنه ليس هناك اشتراكية واحدة موحدة الاساليب والوسائل ، متفقة في العقائد والايدولوجيات ، بل أن هناك اشتراكيات ، أحيانا تكون متفقة في الاساليب

والوسائل والعقائد ، وأحيـان اخرى تكون متعارضة متناقضة . وسبب ذلك انما يعود الى ان الاشتراكيات الاخرى ـ ماعدا الشيوعية ـ اشتراكيات غير ذات فلسفة **واضحة وايدولوجية تنبع من نظره فلسفية متكاملة ، في الوجود الكوني واسبابه ودوافعه** . (Welt - Anschau)

وقد شبه أحدهم الاشتراكية بنبتة نمت وترعرعت وكبرت ومن ثم أصبحت شجرة باسقة متعددة الفروع متشابكة الاغصان .

والحق أن هذا التشبيه جد موفق ، اذ أنه يمثل واقع الاشتراكيات في العالم اليوم . فهناك مثلا حزب العمال ، وهناك الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، وهناك الحزب الاشتراكي المسيحي ، وهناك الحزب الاشتراكي الوطني الخ . . .

غير ان جميع هذه الاحزاب الاشتراكية تلتقي عند نظرة واحدة ، وهي ان العامل الاقتصادي ذو اثر بالغ الاهمية في نشوء الدولة والانظمة السياسية المتعاقبة في التاريخ . ولما كان من المتعذر علي ان بحث أبين دفتي هذا الكتاب المفاهيم المختلفة للاشتراكيات في العالم ، وذلك لان مثل هذا البحث يحتاج الى مجلدات ومجلدات ضخام ، ولما كان العالم العربي لم يشهد حتى اليوم قيام حزب نستطيع ان نصفه وننعته بالحزب الاشتراكي ونحن مطمئنون فكرا ووجداناً لذلك ، فسأقصر بحثي على الاشتراكية البريطانية ، اذ ان هذه الاشتراكية تعتبر وبحق اكثر الاشتراكيات الاخرى وضوحاً في الايدولوجية والمناهج .

ترى الاشتراكية البريطانية ان مبدأ حرب الطبقات الذي تنشأ عنه الدولة في نظر الماركسية هو مبدأ خاطيء ، وان الاشتراكيين الذين ينادون بمثل هـــذا المبدأ هم جماعات مثلهم مثل الجماعات الممعنة في التأخر الديني التي تعبر عن علومها اللاهوتية بعبارات استعملت قبل أن يعرف علم طبقات الارض . كما وان الخصم الحقيقي للاشتراكية هو ذاك الذي ينادي بمبدأ الطبقة الواحدة .

وبذلك يقول « رمزي مكدونالد » الرئيس الاسبق للحكومـــة البريطانية « وزعيم الدولة الثانية » في الصفحة (١٠٣) من كتابه المعروف باسم « الحركة

الاشتراكية » وترجمة محمود حسني العرابي ، مايلي :

« ان نظرية حرب الطبقات هي ميراث آخر يرجع الى النظريات الناقصة التي كانت تقود الاشتراكيين الاوائل . وهذا وصف سطحي لاحدى الحقائق التي لدينا منها صور في كل يوم . يتحد الاجراء في نقابات ، ويتحد اصحاب العمل في اتحادات ، وتعلن الاضرابات ، وتوقف الاعمال ، وتقوم الاضطرابات بشأن الاجور وساعات العمل والاستغلال وغير ذلك . فيميل الاغنياء للتجمع معاً ، ويميل الفقراء الاذكياء العاملون للتجمع معاً . فتتحرك الهيئات التي تنظمت للفصل ، فيجد المستأجرون اصحاب الاراضي والملاك على قدم الاستعداد لحماية ايراداتهم والاعلان في مهاجمتهم تهديداً للبناء الاجتماعي ، وهذا الطريق الذي يسير فيه حرب الطبقات » .

غير ان « رمزي مكدونالد » مع اعترافه بان مثل هذه الحال تؤدي الى الحرب المحتومة بين الطبقات ، غير انه يرى في هذه الحرب وسيلة غير مجدية وغير شرعية ، وبالتالي ضارة لذلك يسترسل « مكدونالد » بمعالجة هذا الامر الناشيء فينادي في الكتاب ذاته وفي الصفحة ذاتها بما يلي :

« على الاشتراكي ان يتدبر قيمة هذه الحقائق من اجل ذيوع دعوته ومن اجل تحقيق دولته السامية » .

ثم يتساءل « مكدونالد » قائلا :

« ماذا تعني هذه الحقائق (الحقائق التي تؤدي الى حرب الطبقات) والى أي شيء تشير ؟ »

ويجيب مكدونالد على اسئلته تلك بقوله :

« انها تعني شيئاً واحداً في غاية الوضوح . فقيام حرب **الطبقات ليس بذي أهمية للاشتراكية** ، الا عندما توقظ الخصومة الذهنية والادبية ، لان هذه الخصومة هي الوحيدة التي تؤدي الى الانقلاب التجديدي ، **وهذا يفسر سبب حكم الاشتراكي على عدم صلاحية هذا الكفاح (حرب الطبقات) الذي بات مبغوضاً**

لانه يخلق حالات ظالمة ويؤدي الى الفوضى ، ويخيب تحقيق دولة الهناء والسلام السامية التي نصبتها الروح البشرية الهادية ، على الدوام كغرض أمامها . »

ثم يستطرد « رمزي مكدونالد » فيصف القوة المحركة للاشتراكية في المجتمع بما يلي :

« ان القوة المحركة للاشتراكية اذن ليست الكفاح (حرب الطبقات) ، ولكنها **العقل المبدع والاحساس الادبي الذي قضى بعدم صلاحية الكفاح** . ان النزاع حادث في تطور التنسيق الاجتماعي ، وعامل التطور ليس **اقتصاديا ولكنه ذهني وأدبي** . وعليه فليس في مكنة الاشتراكي ان **يخاطب احساس الطبقة أو تغرضها** ، بل يلزمه في الواقع أن يبتعد عن هذا ،لان أي نصر يكسبه نتيجة لميله مع حزب آخر في الكفاح سيثبت **مايرغب في استئصاله** . فالنداء الصالح لطبقة نداء للنظام القائم سواء أكان موجهاً للاغنياء أم للفقراء . »

مما ورد يستنتج أن الاشتراكية ، والاشتراكية البريطانية على وجه أدق ، تتبع في فلسفتها من نظرة هيغل « في الدولة » أي أن الدولة كما يقول « هيغل » هي واقع الفكرة الاخلاقية وهي على حد تعبيره صورة العقل وواقعه ، وهي عند « مكدونالد » نتاج العقل المبدع والاحساس الادبي .

وهذه الحقيقة الواردة أعلاه هي التي تشكل التعارض الجذري القائم بين الاشتراكية ـ الاشتراكية البريطانية ـ وبين الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ ووفق هذا المبدأ عينه ترى الاشتراكية البريطانية التي تريد أن تقيم ـ على حد تعبير مكدونالد ـ الدولة السامية ، ان الوسيلة الوحيدة لبلوغ الطبقة العاملة مراتب السلطان والتربع عليها ليست الثورة ، بل انما هي الديمقراطية ، الديمقراطية في مفهومها للحرية ، حرية الانتخاب ، اذ ان الحرية السياسية تقود بالتالي الطبقة العاملة الى فرض سلطانها وتسلمها لمقاليد الحكم .

وبهذا يقول مكدونالد في كتابه الانف الذكر وفي الصفحة ٧٨ منه مايلي :

« ان الروح الاشتراكية ،ووجهة نظرها ، قد يثير الخصوم دعاية عنيفة ضدها ،

الا ان كل احزاب الدولة لابد ان تأخذ بارشاداتها وان تسن قوانينها طبقا لها» .

ثم يتساءل مكدونالد قائلا :

وهل يغير ميل التيار في المستقبل وجهته ؟ (اي هل يأتي يوم ترفض احزاب الدولة العمل بروح الاشتراكيـــة) ، ويجيب مكدونالد على السؤال الآنف الذكر بقوله :

« ان هذه مسألة تخمينية يصرف فيها الكسالى كثيراً من الوقت في الجدل .»

ثم يستطرد مكدونالد مقرراً مايلي :

« ان الاتجـــاه يجري اليوم واضحاً وقوياً ، لا لأن الناس يؤمنون بالاشتراكية ، ولكن لان الاشتراكية نتيجة الديمقراطية . »

ممـــا ورد يستنتج أن الوسيلة الوحيـــدة ، لتحقق الدولة الاشتراكية ، ليست في حرب الطبقات ، بل انما هي النتاج الطبيعي للديمقراطية السياسية ، وهذه النقطة تشكل التعارض الجذري الثاني بين الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ وبين الاشتراكية البريطانية .

ويحدد مكدونالد واجبات الدولة الاشتراكية في الحقلين الادبي والمادي بما يلي :

١ ـ ان الاشتراكية من الناحية الادبية عبارة عن وسيلة لبناء الحرية الفردية الحقة .

٢ ـ ان الاشتراكية من الناحية الاقتصادية عبارة عن نظام سيوضع تحته نهاية للاستغلال . وهذا النظام هو الذي سيضع الحدود لحيازة الملكية الخاصة .

لاشك ان القاريء يلاحظ مما جاء أعلاه ، وخاصة في تحديد واجبات الدولة الاشتراكية في الحقل الاقتصادي ، التعارض الجذري الثالث بين الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ وبين الاشتراكية البريطانية ، وهـــذا التعارض ممثل في اعتراف الاشتراكية البريطانية **بحق الفرد في الملكية الخاصة** ، فالشيوعية كما لاشك يعرف القاريء الكريم تنكر الملكية الخاصة وتعتبرها وسيلة من وسائل استغلال الانسان لاخيه الانسان .

ويحاول « مكدونالد » أن يبرر اعتراف الاشتراكية البريطانية بحق الفرد في الملكية الخاصة ، معتمداً على كاوتسكي الذي ينعته **خطأ** بأنه أصلب الماركسيين . وكان كاوتسكي هذا الذي يعتبره لينين من أخطر المنحرفين عن الماركسية قد أقر حق الافراد بتملك حدائقهم وبيوتهم الخاصة ، غير أنه (أي كاوتسكي) طالب في الوقت ذاته بوضع نظام ضرائبي خاص يمنع الدخل غير المكتسب .

أما الخـــلاف الجذري الرابع بين الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ وبين الاشتراكية البريطانية ، فهو ناشيء عن اختلاف وجهتي النظر بينهما في سياسة توزيع المنافع الاقتصادية .

فبينما ترى الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ أن سياسة التوزيع يجب أن تقوم على أساس كون الانسان انسانا يعطيه الحق بالحصول على جميع احتياجاته المجتمعية، وان هذا الحق يجب ان لايقاس بقدرة الانسان على تقديم الخدمات ، تقول الاشتراكية البريطانية بان ما يقدمه الفرد من خدمات هـــو الذي يقرر مقدار ما يستحق الفرد من منافع .

ومكدونالد واضح في هذا الامر كل الوضوح ، وذلك حينما يقول في الصفحة ٨٧ من كتابه الانف الذكر :

« الاشتراكيون يفكرون في التوزيع عن طرق الكسب الشخصي، والشيوعيون يفكرون في التوزيع عن طريق الحقوق الانسانية في الحياة . »

قد يتساءل القائل لماذا تعمدت أن استعين « بمكدونالد » فقط حين بحثي موضوع الاشتراكية ـ غير الشيوعية ـ والدولة ، وقد يسأل ايضاً لماذا لم استعن بآراء وتفسيرات العالمين الاشتراكيين البريطانيين « سدني وبياترس وب »

وعلى هذا السؤال أجيب :

لقد تعمدت هذا الامر ، أمر الاقتصار على آراء « رمزي مكدونالد » في الاشتراكية وشروحه لها ، وذلك بسبب أن رمزي مكدونالد هو بالاضافة الى كونه أحد الفقهاء البارزين في ايدولوجية الاشتراكية البريطانية ، قد شغل

ايضاً منصب رئاسة مجلس الوزراء البريطاني، وهذه الحقيقة أضفت على « مكدونالد » صفة لم تضفها على « سدني » أو « بياترس وب » ، اذ انها مكنته من تكوين نظرياته في الاشتراكية على ضوء خبرته في الحقلين النظري والتطبيقي .

أما فيما يتعلق بالجهاز البيروقراطي والعسكري للدولة ، فان الاشتراكية البريطانية لاتتحدث عنه اطلاقاً ، ولا تقرر أن الجهاز البيروقراطي والعسكري هو أحد اشتقاقات التنظيم الرأسمالي للمجتمع ؛ ولا تذهب ، كما ذهبت الماركسية، فتنادي لابضرورة انتقال هذا الجهاز من أيدي طبقة الى ايدي طبقة أخرى فحسب ، بل بضرورة تدميره تدميراً ساحقاً ايضاً . وبذلك توافق الاشتراكية البريطانية موافقة ضمنية على بقاء الجهاز البيروقراطي والعسكري الذي كان يعمل خلال مرور المجتمع بمرحلة التنظيم الرأسمالي .

وهذا الامر مما يشكل التعارض الجذري الخامس بين الاشتراكية العلمية ـ الشيوعية ـ وبين الاشتراكية البريطانية .

أضف الى ذلك ان الاشتراكية البريطانية لاتقول بفناء الدولة كما تقول به الشيوعية ، بل ترى في الدولة حقيقة أبدية . وكل مايطرأ على علاقات الفرد بالدولة في ذروة الدولة الاشتراكية السامية على حد تعبير مكدونالد ، هو ما يصفه مكدونالد في الصفحة ٧٧ من كتابه الآنف الذكر بما يلي :

« وهذا الانقلاب الجوهري في الروح السياسية (يعني مكدونالد التجسد الكامل للدولة الاشتراكية) التي تأتي بالتحرير للشعب العادي ، والتي تجعل الديمقراطية شيئاً اكثر من « هيئة حكومية » فتقلب العلاقة بين الدولة والفرد . لأن الناس لما يفكرون في الدولة كسلطة تقول « لنعمل هذا معاً » بدلاً من السلطة التي تقول « يجب ان لاتعمل هذا » ، يتغير الموقف من حيث النظر الى المستقبل . اذ يصير التقدم مسألة تعاون مشترك بدلاً من نتيجة كفاح من أجل الحياة . »

وأخيراً يقرر « ماكدونالد » أن الاشتراكية والديمقراطية أمران مترافقان

متلازمان لايفترقان أبداً ، ويعبر عن ايمانه هـذا باسلوب شعري طريف أرى من المستملح نقله :

« اذ لما كانت الحياة رفيقة لساعات الربيع ، حيث في الربيع تقترب الشمس الى الارض فيسخن النسيم فتزدهر جوانب الطريق ، فكذلك الاشتراكية رفيقة الديمقراطية . وسيعتاد الناس المباديء الاشتراكية حتى ولو تصوروا أنهم يتجنبونها لانهم في الواقع يتبعونها . »

ج ــ نظرة الفاشستية في الدولة :

ترى الفاشستية ان الدولة تنشأ رغبة في التوفيق بين الطبقات المتعارضة المصالح في المجتمع ، وترى الفاشستية ايضاً ان الواجب الاساسي للدولة يتركز على ايجاد توازن بين القوى الاجتماعية . وتعتبر الفاشستية وجود الطبقة الوسطى امراً حيويا وبالغ الاهمية ، وذلك لان الطبقة الوسطى تشكل في نظر الفاشستية عازلا يمنع اصطدام الطبقة الفقيرة في المجتمع بالطبقة الغنية المالكة لوسائل الانتاج ، وترى الفاشستية ان من وظائف الطبقة الوسطى بالاضافة الى كونها قوة عازلة بين الطبقتين الفقيرة والغنية ، اقول ترى الفاشستية ان من الوظائف الحيوية للطبقة الوسطى فتح مجالات التقدم الاقتصادي والسياسي امام الطبقة الفقيرة .

ولذلك تؤمن الفاشستية بان التركيب الطبقي في المجتمع امر حيوي لبقاء المجتمع وثم شرط اساسي لوجود الدولة .

وتؤمن الفاشستية بان السلطة تنحصر دائماً وابداً بايدي فئة قليلة ، وان التبدلات التي تطرأ على الانظمة السياسية انما تجيء نتيجة لما يسمى بقانون **تداول الصفوة الممتازة للحكم** . وان هذا القانون يقرر ان كل ماهناك من خلاف بين نظام ديمقراطي وآخر ديكتاتوري ، فانما هذا الخلاف لايتعدى المظاهر او القشور الى اللب ، وذلك لان

الحكم والسلطة في كلا النظامين مركزان في ايدي قليلة .

وتقول الفاشستية انه من الوهم ان يفهم من « حكومة الفرد » انها حكومة يديرها فرد واحد ، لان الفرد لايستطيع ادارة الآلة الحكومية ولاكسب النفوذ مالم تؤيده « طبقة حاكمة » ، كما وانه من الوهم ايضاً ان يفهم من كلمة الحكومة النيابية ان الكثرة الغالبة هي التي تدير دفة الحكومة بالاصالة او بالنيابة ، فليس بالصحيح ان الناخبين اتفقوا على اختيار نائب عنهم ، وانما الصحيح ان قلة صغيرة جعلتهم ينتخبونه .

وتقول الفاشستية ان لكل طبقة من الطبقات شعارات تدعو الجماهير الى الالتفاف من حولها ، وتستخدم هذه الشعارات لتدعيم سلطانها ، واقناع الجماهير بصلاحها .

وتقول الفاشستية انه ليس من الضروري ان تكون هذه متفقة والمنطق والحق ، بل انها يكفي ان تكون قديرة على تجنيد الجماهير من حولها لدعم سلطان « الطبقة الحاكمة » .

اما بقاء « الطبقة الحاكمة » فمرهون ببقاء افرادها متمتعين بصفات القيادة والزعامة .

وتقول الفاشستية بان خير الطبقات الحاكمة هي تلك التي تخدم المصلحة العامة ولاتجوز فيها المطامع الشخصية على المصالح الكبرى .

وتقول الفاشستية ان تحقق الخير لايتم بواسطة تشريع الدساتير او سن القوانين وانما يتحقق الخير في الطبقة الحاكمة بفضل القوى الاجتماعية التي تسند الطبقة الحاكمة في توازنها ، ومن ثم بفضل الحصانة الشرعية ، وتعني الحصانة الشرعية في مفهوم الفاشستية قدرة القوى الاجتماعية على الوقوف ومقاومة المطامع الشخصية التي قد يعمل لها الرؤساء والحكام .

وسبب نشوب الثورات في مفهوم الفاشستية يعود اولا واخيراً الى اختلال التوازن بين القوى الاجتماعية ، بحيث تطغى قوة اجتماعية اخرى على بقية القوى .

وتحدد الفاشستية القوى الاجتماعية بمايلي :

١ - قوة العقيدة - ٢ - قوة الرأي - ٣ - قوة العرف - ٤ - القوة العسكرية - ٥ - القوة الزراعية - ٦ - القوة الصناعية - ٧ - القوة التجارية - ٨ - قوة العمل ، وقوى اخرى ثانوية غير تلك .

وهذه القوى في نظر الفاشستية تدخل في التركيب الاجتماعي بنسب متفاوتة ، ووظيفة الدولة ان توازن بين هذه النسب في المجتمع .

اما شكل الحكم فيجب ان يكون مطلقاً بكل مالكلمة الاطلاق من معنى ومفهوم ، وبهذا يقول الفيلسوف الفاشستي « دي جورمونت » مايلي :

« لو اتيح لنا ازالة القوانين البتة لاصبح ارتقاء المتفوقين الممتازين هو القانون الوحيد ، واصبح حكمهم المطلق المشروع غير منازع فيه ، **فالحكم المطلق لازم لكبح البلهاء ، والانسان الذي لاذهن له عضاض** »

ويوافق الفيلسوف الفاشستي الايطالي « جاتيانو موسكا (١٨٥٨ - ١٩٤١) على هذا الرأي ؛ غير انه يقترح استبدال « كلمة » المتفوقين الممتازين « بكلمة » الاقوياء ، ولفظة البلهاء بلفظة الضعفاء .

مماورد يستنتج ان الفاشستية هي الرأسمالية المتسلحة بفلسفة القوة « نيتشه » وباخلاقية « ميكيافللي » وهي لذلك متجردة من كل معنى انساني .

اني لا استطيع ان اختتم بحثي في الفاشستية قبل ان اورد للقارىء الكريم تعريف ازوالد شبنجلر الفيلسوف النازي للدولة ، فاسمع ايها القارىء هـذا التعريف الذي تقشعر منه الابدان وتتأفف منه كل نفس انسانية ! وقل بربك هل تستطيع بعد ان تقرأه ان تميز بين المجتمع والغابـة ؟ ! يقول شبنجلر في تعريف الدولة مامعناه :

« ان الدولة ماهي الا الصورة ذاتها التي تتخذها الحركة التاريخية ، فالتاريخ هو الدولة تتحرك . فالدولة اذن حقيقة واقعية ، ويجب ان تتخذ لنفسهـا « صورة » وان تكون مستعدة للنضال دوماً . امـا دستور الدولة فيجب ان

يكون دستور المحارب ، ولانريد دستوراً مكتوباً على القرطـــاس . ان الحرب ينبوع لكل شيء عظيم ونبيـل ، وكل شيء عظيم ناشيء عن الحرب واصله من الحرب ، وكل شيء وجدناه ذا معنى ناشيء عن الحرب واصله من الحرب . والدولة هي صورة الامة ، هي فكرة في حيز العمل ، هي شعب تبلورت حياته العامة على صورة « واحدة » .

والدولة هي من صنع الرجال ومن صنعهم وحدهم ، تحافظ عـــلى الجميع وتحافظ على الشرف واحترام الذات . وهي اداة الانتصار على التعدي ، تتوقع الاخطار قبل حدوثها . انها الهجوم بمعناه الكامـــل الحقيقي ، وهو هجوم طبيعي واضح بنفسه الى كل حياة في حدود .

ويسترسل شبنجلر في عزف هذا اللحن المرعب حتى يقول :

« للدولة الحق في ان تثبت وجودها ، وان تظهر قوتها الى حيز الوجود بالشكل الذي تراه ، وما الحرب الا ضرورة من ضرورات وجود الدولة .

د ـــ نظرة الفوضوية في الدولة .

تبدأ الفوضوية في نظرتها (WELTANSCHAU) من حيث تنتهي الشيوعية ، أي من حيث تفنى الدولة كما يقول أنجلز . وذلك لأن الفوضوية ترى في الدولة اداة ارغامية وسلطة الزامية تقيد حرية الفرد وتحد من تمتعه بحريته ، هـــذه الحرية التي تراها الفوضوية الحق الازلي الابدي للانسان ، ولذلك ترى الفوضوية أن أي قيد من شأنه أن يقيد هذه الحرية هو أمر غير مشروع ومن واجب الفرد أن يثور عليـه وأن يحطمه ، فهدف الانسان كان وما زال الحرية المطلقة ، والمطلقة اطلاقاً لا مدى له أو حدود .

وتفرق الفوضوية بين أسباب نشوء المجتمع والدولة فتقول ان الدولة قـــد نشأت نتيجة لشرور الانسان وسوء اعماله ، اما نشوء المجتمع فسببه حاجات الانسان ، لذلك فان الدولة شر وشر مطلق والمجتمع خير وخير مطلق .

وتقول الفوضوية بضرورة توزيع المجتمع وتقسيمه الى أجزاء صغيرة ، أو بالاحرى تفتيت المجتمع الى مجتمعات وأن على هذه المجتمعات المتفرعة من المجتمع أن تتجنب قدر طاقتها اقامة علاقات بعضها ببعض وذلك كي تتمكن من المحافظة على ما تسميه بالاعتدال والنزاهة ، اذ ان المحافظة على هذين الامرين لا تتم الا في حدود المجتمع الصغير الضيق .

ومن ثم على أبناء المجتمع الصغير الضيق ، والمتفرع من المجتمع الكبير ، أن يوزعوا الثروة فيما بينهم توزيعاً عادلاً ، وفي حالة انجاز هذا الشرط فان أبناء المجتمع يتحررون من وساوس الحاجات اليومية - أي من شبح الخوف من الغد ، كما ويتحررون ايضاً من البحث عن الأموال وتجميعها ، وعندئذ ينظرون الى العمل نظرتهم كما يقول الفوضوي البريطاني (وليم غودوين ١٧٥٦ - ١٨٣٦) نظرتهم الى فرصة ماتعة ، أو مران يرمون من ورائه الى المحافظة على قواهم الجسدية .

وينادي الفوضوي البريطاني « غودوين » بعدم اللجوء الى أي نوع من انواع العنف ، وذلك لان انتصار العقل كما يقول غودوين أمر آت لاريب فيه ، وهذا الانتصار يتمثل في سيادة المجتمع الفوضوي. وينادي غودوين أيضاً بضرورة انشاء محكمة لا تستمد أحكامها من أية شريعة أو أي قانون ، بل انما يجب ان تستمد أحكامها من هدي العقل .

وتفرض الفوضوية - وخاصة فوضوية غودوين - على أتباعها اخلاقية صارمة ، اذ أن هذه الفوضوية لا ترمي الى تحرير الانسان بكل ما فيه من عقل وغرائز ، بل انما ترمي الى تحرير عقله ووعيه وجعل العقل يراقب الغرائز ويكبتها . هذه لمحة سريعة على الفوضوية ولم أرد أن أتوسع فيها وذلك لعدم جدوى مثل هذا الامر .

والآن سأنتقل الى بحث نظرة القومية العربية في الدولة .

٥ ــ نظرة القومية العربية في الدولة

لم يكن هناك قبل الاسلام من وجود قومي أو عقيدة قومية تنتظم العرب في أمة موحدة المشاعر والاحاسيس . ولم يكن **الحس الجماعي** في الفرد العربي يتجاوز نطاق قبيلته الى القبائل الأخرى فالامة . بل كان الفرد العربي يرى في قبيلته أمة كاملة ويرى في رقعة الارض التي ترتادها انتجاعاً الماء والكلأ وطنه وموطنه ، عن حياضه يذود ، وفي سبيل توسيع رقعته يكافح ، ومن أجل اعلاء شأن عشيرته يمتشق حسامه ويخوض غمرات الغزوات والمعارك . وكانت كل قبيلة ترى في القبيلة الاخرى عدواً لها ومنافساً ، لذلك شاهدت الجزيرة العربية طيلة قرون طوال احتراب القبائل بعضها ضد بعض ، وغارات العشائر بعضها على بعض . وبقيت هذه الحال حتى ظهور النبي محمد (صلعم) وانتشار الاسلام في ربوع الجزيرة كدين ونظام ، ومن ثم سيطرة الاسلام سيطرة كاملة على جميع القبائل وتوحيدها في أمة واحدة واذكاء جذوة القومية في نفوس ابنائها ، ووضع هذه القومية في خدمة رسالة انسانية سامية هي الاسلام ، وهكذا قفز الاسلام بالعرب من حيث هم أمة راعية وفي الطور البدائي من التطور الى حيث هم أمة تريد أن تنشيء حضارة لتدفع بمواكب الانسانية خطوات وخطوات الى الامام ، وبهذا شهد التاريخ ولادة القومية العربية على يد دين ونظام ، دين يهدم الاصنام والآلهة التي تمثلها هذه الاصنام ، ونظام يسحق الروح القبلية ، ويتخطى بمشاعر الفرد وأحاسيسه الجماعية نطاق القبيلة او العشيرة الى نطاق الامة فالانسانية ، والانسانية بكل مالها من شمول .

وهنا علينا أن نتساءل عما اذا كان الاسلام ، وعما اذا كانت الثورة التي شهدتها الجزيرة العربية على يد الاسلام جاءت نتيجة لصراع طبقي ، أو نتيجة للتناقض الذي كان يسود التركيب الاجتماعي في الجزيرة العربية ، أم أن الاسلام جاء اولاً وأخيراً نتاجاً لقوة خارقة ، قوة هائلة ، قوة التوق الازلي الابدي **في النفس البشرية للاندفاع في الخير المطلق الذي هو الله .**

جاء الاسلام ، واذا به يدعو الى الخير والخير المطلق ، ويقول :

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . »

جاء الاسلام واذا به يعتمد الانسان افضل مخلوقات الله فينادي :

« لقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا » .

جاء الاسلام فاذا به يأمر بالتعاون والتكافل والتعاضد فيقول :

« المؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

جاء الاسلام فاذا به يأمر بالمساواة بين الشعوب والامم والاجناس فيقول :

« ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

جاء الاسلام فاذا به ينسف نظرية الحق الالهي ، هذه النظرية التي ثارت عليها الشعوب الاوروبية عندما بدأت بذور القوميات الاوروبية تختمر في تربة بلدان الغرب لتدفع بالنبتات القومية الى الوجود . جاء الاسلام ليقول وهو يخاطب نبي الاسلام ورسوله :

« قل : انما ادعو ربي ولا اشرك به احدا . قل اني لااملك لكم ضراً ولا رشدا . قل : اني لن يجيرني من الله احد ، ولن اجد من دونه ملتحداً » .

جاء الاسلام ليقرر للانسانية حقيقة لم تكتشف في اوروبا الا في اواخر القرن الثامن عشر ، حقيقة تقول بانه ليس هناك من دم ازرق ومن دم عادي ، وليس هناك من نبلاء واشراف ، ودهماء ووضعاء ، بل ان هناك اناسا متساوون في كل شيء ، متساوون في الولادة ، ويجب ان يتساووا في الحياة ، لانهم بالتالي سيتساوون في الموت ، وسيتساوون في الوقوف امام الديان الاعظم .

« ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون » .

ثم يقول في موضع آخر :

« فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » .

ثم يقول في موضع ثالث :

« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم انشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله احسن الخالقين » .

جاء الاسلام ، لا ليوحد بين العرب ويصوغ منهم امة فحسب ، بل انما جاء ليحمل الامة العربية رسالة الحرية والعدالة والمساواة الى الامم الاخرى ،

« وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

جاء الاسلام ليضرب العنصرية في القومية العربية ، كي يحافظ على الصفات الانسانية في العرب والامة العربية فاذا بمحمد يخاطب « أبا ذر » قائلا :

« ياأبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم انك لست بافضل من احمر فيها ولا اسود الا ان تفضله بعمل » .

جاء الاسلام ليسحق الطمع والاثرة في النفس البشرية ، فاذا به يقول :

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » .

جاء الاسلام ليعلن ان الغاية الحقيقية في الحياة للانسان لاتتمثل في السعي الدؤوب والانهماك المزري ، والتهالك البشع على المادة بل انما تتمثل في العطاء ، فاذا به يقول :

« واما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » .

وبهذا انتقل الاسلام بالعرب من الجو القبلي الخانق البشع ، الى جو انساني رحب بديع مشرق ، وهكذا تكونت القومية العربية على هدي الاسلام

ومارست وجودها وفق ارشاداته لاكقوة تسخر لفرض سيطرة طبقة على المجتمع بل كقوة تتوخى وباخلاص تعميم الخير والمنافع في المجتمع ، وذلك عن طريق خلق انسان خير كريم ، او بالاحرى ايقاظ جميع النوازع الخيرة الكريمة في النفس البشرية ، وسيطرة هذه النوازع على الانسان جسداً وروحاً .

مما ورد يتضح ان نظرة القومية العربية الاولى ، هذه القومية التي ايقظها البطل القومي الاول والرسول الانساني الاعظم ، كانت ترى في الدولة جهازاً مهامه الاساسية تتركز على تحقيق امور ثلاثة

١ ـ التحرر الوجداني المطلق .

٢ ـ المساواة الانسانية الكاملة .

٣ ـ الشعور المرهف بالمسؤولية لدى الحاكمين .

١ ـ التحرر الوجداني والاستعمار .

ان الحرية الحقيقية لاتولد في معدة الانسان ، بل انما تولد في ضميره ووجدانه ، فالانسان المستعبد ضميراً ووجداناً لايمكن ان يكون حرا ، والتحرر الوجداني ، في الفرد لايبدأ ابدا في تحرر الانسان من ظلم اخيه الانسان ، بل انما يبدأ بتحرر الانسان من النوازع الشريرة داخل نفسه ، وذلك كي يعي مسؤولياته كانسان يعيش في مجتمع قومي ويعمل على دمج قوميته في الانسانية ، وهذا العمل لايمكن ان يتحقق مالم يحرر الانسان ذاته من جميع النوازع الفردية والعوامل الشخصية ، هذه العوامل الممثلة بالانانية والاثرة والطمع . وعندما يحرر الانسان نفسه من ظلم نفسه ، يرتفع الى المستوى الانساني الحقيقي ، ويضمن بواسطة وعيه لمسؤولياته الانسانية الحرية للآخرين .

وهنا يكمن التعارض بين نظرة القومية العربية كما حددها بطلنا القومي الاوحد (صلعم) وبين نظرات القوميات الاوروبية الاخرى .

لقد قامت القوميات الاوروبية وهي تستهدف في كل انتفاضاتها تحرير طبقة من ظلم طبقة اخرى ، او تحرير الفرد من القيود الاجتماعية ، او اقامة توازن

بين ماتسميه الفاشستية بالقوى الاجتماعية التي تتشكل منها الدولة ، وبهذا بدأت القوميات الاوروبية من حيث يجب ان تنتهي ، وبذلك لم تتمكن الحركات القومية الاوروبية **من خلق الفرد الاصيل في حريته** ، وسبب هذا يعود الى ان القوميات الاوروبية بدأت صراعها في سبيل التحرر الوجداني وهي لاتقصد ابدا تحرير الفرد في الامة من نوازعه الشريرة ، بل انما كانت تقصد تحرير الطبقة البرجوازية في الامة من القيود السياسية والاجتماعية التي كانت تغل نشاطات البرجوازية الهادفة الى استغلال غيرها من طبقات الامة ومن ثم استعمار واستثمار الامم الاخرى وموارد البلدان الاخرى . وهذا مما يتنافى والوجدان الانساني للقومية ، اذ ان هذا الوجدان يحتم على كل حركة قومية ان تبدأ عملها وتنهيه بالتحرر الوجداني للفرد ، ومن ثم مساعدة الافراد الآخرين في الامم الاخرى على التحرر الوجداني . ولو ان الحركات القومية الاوروبية سارت في كفاحها وفق هذه القاعدة التي ذكرتها آنفاً لكانت قد وفرت على الانسانية جمعاء مآسي الاستعمار ومخازيه ، ولكان موكب الانسانية قد وصل بالشعوب والامم الى مراحل تتعدى المراحل التي وصلها في وقتنا الحاضر باشواط واشواط .

قد يقول البعض ان حركات القوميات الاوروبية قد دمرت مبدأ الحق الالهي ، هذا المبدأ الذي كان يستند اليه النظام الملكي في عهود الاقطاع وفي العهود الاولى للرأسمالية ، وقد يذهب آخر فيقول ان الكثيرين من الملوك والاباطرة والسلاطين قد دالوا وزالوا وان « مبدأ الحق الالهي » أصبح مثار سخرية وموضوع تفكهة ، غير أننا اذا تعمقنا في الواقع الذي انتهت اليه اوروبا في التاريخ الحديث لوجدنا أن « مبدأ الحق الالهي » لايزال المبدأ الذي تعمل به وبموجبه جميع دول العالم من شرقية وغربية .

ففي الشرق ـ الاتحاد السوفياتي وغيره من البلدان الشيوعية ـ تتمتع اللجنة المركزية للحزب بما كان يتمتع به السلاطين والاباطرة والملوك من سلطات ، ويمارس الحزب الشيوعي سلطانه وفق هذا المبدأ ، مبدأ الحق الالهي .

وفي الغرب تتمتع الطبقات الرأسمالية بما كان يتمتع به ملوك الاقطاع وأباطرة من حقوق وسلطات ، وما النظام الاستعماري الذي تمارسه الدول الغربية ، في كل اشكاله من انتداب ووصاية ، سوى عمل مستمد من المبدأ ذاته ، « مبدأ الحق الالهي » هذا المبدأ الذي يترك للقوة أن تفسر الحق .

اما القومية العربية الاولى ، فانها عمدت أولا وأخيراً - كما قلت آنفاً - الى محاولة الوصول الى الحق المطلق ، المطلق بكل مالكلمة الاطلاق من معنى ومفهوم ، هذا الحق الذي تنبع قوته من كون صاحبه محقاً لامن حيث كونه قوياً . ولذلك وضعت القومية العربية القوة في خدمة الحق ، واعتبرت القوة وسيلة لاحقاق الحق ، لاعاملاً في تفسيره وتوجيهه . وبهذا ارتفعت القومية العربية في عهد محمد بالامة العربية الى اسمى ذرى الانسانية ، اذ جعلت السلطة في خدمة الحق ، وجعلت الدولة بالذات وفي جميع أجهزتها وسيلة من وسائل احقاقه .

« ألا ان صاحب الحق قوي عندي حتى آخذ الحق له ، والقوي لضعيف عندي حتى آخذ الحق منه »

والحق كما قررته القومية العربية الاولى هو حق الانسان في حياة سعيدة تاجها الكرامة البشرية ، فالسعادة فرع من شجرة ضخمة هي الكرامة ، ومن الكرامة تتفرع جميع الاهداف الانسانية السامية . والسعادة كما حددت مفاهيمها القومية العربية الاولى لاتنحصر في حصول الانسان على أحسن مايرتاح اليه الذوق من لباس ، او أطيب مانشتهيه النفس من طعام بل انما تتعدى هذه الامور **الى التوافق بين وسائل الحصول على الماديات وطرقها ، وبين التلقي الوجداني الحي لهـــا .** فمثلا يمكن للانسان ان يحصل على مايريد ويتمنى من متاع ، ويمكنه ان يصل بطمعه الى احقر درجات الشراهة ، وقد يخالفه الحظ فيحقق كل مايصبو اليه متبعاً بذلك كل وسيلة غير ناظر الى مشروعية او لامشروعية تلك الوسيلة او الوسائل التي اتبعها خلال سلوكه طريقه الى أهدافه ، غير ان ذاك الانسان لايمكن ان يحصل على السعادة او يتمتع بها ، وسبب ذلك انما يعود أولاً واخيرا الى كون

ذاك الانسان لم يستطع أن يؤمن التوافق بين وسائل الحصول على الماديات وطرقها ، وبين التلقي الوجداني الحي لها .

وهذا التوافق لايمكن ان يتحقق مالم يكن الانسان قدحرر نفسه من الطمع الشره ، هذا الطمع الذي يمثل ابشع صور غريزة حفظ البقاء واحقرها . وهناك كبير فرق بين ان تتمتع بشيء حصلت عليه ، وبين ان تسعد بالشيء الذي حصلت عليه ، فعندما تتمتع بما حصلت تكون غاصباً مغصوب الوجدان ، وعندما تسعد بما حصلت عليه تكون مكتسبا (أقول مكتسبا لا كاسبا) محرر الوجدان .

لقد تمتعت القوميات الاوروبية بما حققته من توسع واستعمار ، غير ان الطبقات الموجهة لتلك القوميات لم تستطع أن تسعد بما حصلت عليه من البلاد المغصوبة ، فكان أن دفعت تلك الطبقات الاثمان الفادحة والخسائر المروعة داخل بلادها وخارجها ، وكان ان عاش المجتمع الاوروبي في حالة حرب دائمة ، وحالة صراع شديد ، ولم يكن السلام والاستقرار في المجتمعات الاوروبية سوى هدنة موقوتة لحرب طبقية وصراع استعماري مستمرين لايعرفان ليناً أو هوادة . أما القومية العربية الاولى ، فبعد أن هدمت أمبراطوريتين ضخمتين ، هما الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية الشرقية ، ورثت عن تلك الامبراطوريتين تركة ضخمة ، ضخمة في تراثها ، مروعة في مظالمها . غير ان القومية العربية الاولى سعدت بما حصلت عليه ، اذ أنها تلقت هذه التركة بوجدان حي وضمير فعال ، فضربت المفاسد ورفعت المظالم وساوت بين الذين اعتنقوا الاسلام من ابناء الشعوب المغلوبة وبين العرب .

ورفض عمر بن الخطاب أن يبقى النظام الاقطاعي قائماً وذلك حينما طلب منه نفر من قريش أن يملكهم الاراضي الزراعية الواسعة بدلاً من سادة الاقطاع السابقين الذين فروا امام الجيوش العربية تاركين الارض وفلاحيها غنيمة باردة للعرب والمسلمين . واكتفى عمر بن الخطاب بان وضع ضريبة الخراج على الفلاحين من غير المسلمين

والعشر على المسلمين منهم . وكانت ضريبة الخراج تسقط عن الذمي حالما يعتنق الاسلام .

وحدث في عهد عمر بن عبد العزيز (الخليفة الاموي) ان كتب عامله على مصر اليه يقول :

« ان اهل الذمة قد اسرعوا الى الاسلام ، وكسروا الجزية ، حتى استلفت من الحارث بن ثابت عشرين الف دينار لاتم بها عطاء اهل الديوان ». وفي نهاية كتابه طلب العامل على مصر الى عمر بن عبد العزيز أن يأمر بتوقيف الذميين عن انتحال الاسلام .

فأجابه عمر :

« لقد وليتك أمر مصر ، وانا عارف بضعفك ، وقد امرت رسولي ان يضربك على رأسك عشرين سوطاً فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك . **فان الله انما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً** » . ان هذه القصة الآنفة الذكر لتشير بوضوح الى ان الاسلام في روحه كان يحارب الاستعمار ويأنف أن يرى له وجوداً ، كما وانها لتدل دلالة بينة على ان الهدف الاساسي للقومية العربية الاولى كان يتركز على نشر الاسلام كدين ونظام .

وان الموجه الحقيقي للقومية العربية الاولى كانت الرغبة الصادقة والايمان الوطيد بسمو الرسالة الانسانية التي حملها الاسلام للعرب ، لذلك جاءت جميع الفتوحات العربية في عهدي أبي بكر وعمر بن الخطاب منزهة عن كل مافي الاستعمار من ظلم وحيف وجور ، وما في الاستثمار من استغلال وطمع وأنانية . وخير دليل على ماذكرت ، ذاك الكتاب الذي وجهه عثمان بن عفان ، حال توليه الخلافة ، وقبل انحرافه عن روح الاسلام في الادارة والحكم ، والذي جاء فيه مايلي :

« أما بعد فان الله أمر الأئمة ان يكونوا رعاة ، ولم يتقدم اليهم أن يكونوا جباة . وان صدر هذه الامة قد خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة . وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة . فاذا عادوا كذلك

انقطع الحياء والامانة والوفاء . ألا إن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم . فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تنثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم . ثم العدو الذي تتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء . »

ان في كتاب الخليفة عثمان الرد المفحم والحجة القاطعة والبرهان الساطع على كل متخرص قد يدعي ان القومية العربية الاولى في معناهـا الحقيقي توخت يوماً استعماراً او استثماراً ، او انها انحرفت قيد انملة عن رسالتها السامية التي حملها اياها الاسلام والزمها ايمانها بنشرها بين الشعوب والامم ، وهذا مما ينفي عن الدولة الاسلامية الاولى صفات الامبراطورية في مفهومها العلمي ، ويضفي على تلك الدولة كل صفات الدولة الاتحادية للشعوب الاسلامية .

ومثل هذا الامر كان من المستحيل تحقيقه ، مالم يكن العرب قد تحرروا وجدانياً كقومية وامة ، والتحرر الوجداني الاصيل كما قلت سابقاً لايضفي عليك الصفات الحقيقية للرجل الحر ، بل انما يحول بينك وبين استعباد او استعمار اخيك الانسان مهما كان جنسه او عنصره . وهذا التحرر الوجداني هو وحده الذي جنب العرب من ان ينتظموا في قومية وامة فدولة بغية استعباد الشعوب الاخرى واستعمار الاقطار المفتوحة .

وهذا ماحققته الآية المنزلة في القرآن الكريم والقائلة :

« وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

التحرر الوجداني والفرد :

١ – الحق الالهي

« ماهي واجبات المسيحيين نحو الامراء الذين يحكمونهم ؟ وماهي على

وجه اخص واجباتنا نحو امبراطورنا نابليون الاول ؟

« س : لماذا فرضت علينا كل هذه الواجبات ؟

ج : لان الله يخلق الممالك ويوزعها كما يشاء ، اغدق على امبراطورنا خصالا ومزايا كثيرة ، ونصبه سلطانا علينا ، وجعله وكيلا لقدرته وصورة له على الارض ، ولهذا السبب كان تقديم الاحترام الى امبراطورنا بمثابة تقديم الاحترام الى الله نفسه .

س : هذه الواجبات هل تربطنا نحو ورثته الشرعيين ايضاً ؟

ج : نعم لاشك في ذلك ، لاننا نقرأ في الكتاب المقدس بان الله فاطر السموات والارض يعطي السلطان بفضل مشيئته ورحمته ليس الى شخص الملك فحسب بل الى اسرته ايضاً .

هذا مقطع من كتاب « كاتشيسزم » (كتاب تعليم الدين المسيحي) وزع عام ١٨٠٨ على المدارس والكنائس الكاثوليكية في فرنسا ، وفيما يلي خطبة لعمر بن الخطاب القاها عقب سماعه بنبأ فتح القادسية :

« اني والله ماانا بملك فاستعبدكم ، وانما انا عبد الله عرضت علي الامانة ، فان ابيتها ورددتها عليكم واتبعكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا سعدت ، وان انا حملتها واستتبعتكم الى بيتي شقيت ، ففرحت قليلا وحزنت طويلا وبقيت لا اقال ولا ارد فاستعتب »

وهاك مثلا رائعاً آخر :

« ارسل قيصر رسولا الى عمر بن الخطاب لينظر احواله ويشاهد افعاله فلما دخل المدينة سأل اهلها وقال :

« أين ملككم ؟ »

فقالوا : ما لنا ملك ، بل لنا أمير خرج الى ظاهر المدينة . »

وهذا مثل رابع :

« قال رجل للخليفة عمر بن الخطاب ، اتق الله يا أمير المؤمنين ، فسمعها

رجل . فقال : أتألت على أمير المؤمنين ؟ (أي تجسر وتشنع عليه) ؟

فقال عمر : دعه ! فلن يزالوا بخير ما قالوها لنا . »

وهذا مثل خامس :

خطب عمر بن الخطاب يوماً بالمسلمين وقال :

« يا معاشر المسلمين ماذا تقولون لو ملت برأسي كذا ؟ - وميل رأسه - فقام اليه رجل فسل سيفه وقال أجل كنا نقول بالسيف كذا ، وأشار الى قطعه ، فقال عمر ايايّ تعني بقولك ؟ قال نعم اياك أعني بقولي ، فقهره عمر ثلاثاً وهو يقهر عمر ، فقال عمر الحمد لله الذي جعل في رعيتي من اذا تعوجت قومني . »

وقبل أن استرسل في البحث ، أرى لزاماً علي أن القي نظرة عابرة على فلسفة « جورج فريدريش هيجل » في الدولة ، وذلك لأن فلسفة « هيجل » تعتبر وجهة النظر الرسمية للقومية الالمانية ، هذه القومية التي عاشت في ظروف تتفق في الكثير من أوجهها والظروف التي تعيشها قوميتنا في العصر الحالي .

يرى « هيجل » ان الحق لا يمكن أن يستقر في أمة الا اذا ضمنته أخلاق رفيعة ، ولا يمكن لهذه الاخلاق أن تتغلغل في نفوس أمة الا اذا قام عليها رقيب أو وصي . والدولة هي التي يجب أن تقوم بدور الوصاية أو الرقابة ، فاذا تخلت عنه فان الامة تغدو مسيرة بالضمير الفردي الذي تتنازعه الاهواء والشهوات .

ويقرر « هيجل » ، نتيجة لما ورد أعلاه ، ان الدولة ضرورية لكيان الأمة ، **ولا ينبغي أن تكون الخادم الذي يحقق للديمقراطية أن تطرده متى شاءت** ، بل على العكس من ذلك فان على الدولة ، كما يرى « هيجل » ، أن تنقمص روح الأمة وتحافظ على احترام التقاليد ، **ويجب أن تتمع بالسلطة التامة والكاملة** .

ويريد « هيجل » أن يمثل هذه السلطة شخص حقيقي من لحم ودم ، » على حد تعبيره — الملك — على ان يتمتع بحقوق كاملة : حق سن القوانين وتنفيذها. ويطالب « هيجل » لهذه السلطة بجيش وشرطة **وأن لا يكون عليها أن تؤدي حساباً الا لنفسها وشه ، وأن تكون مما ينتقل بالوراثة .**

هذه بعض العقائد الاساسية التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية ، ولقد كان لهذه العقائد الاثر البالغ الاهمية في تكوين وتوجيه الحركات القومية في أوروبا، ولا شك أن القارىء يرى بوضوح الهوة الساحقة التي تفصل بين مثل هـذه العقائد ، والعقائد التي جاء بها الاسلام ومارسها النبي (صلعم) وخليفتا أبو بكر وعمر من بعد .

كما وأن القارىء يدرك ايضاً ان الثورة الفرنسية لم تستطيع أن تقتلع جذور الايمان بالحق الالهي للسلطة من أذهان أصحاب السلطان في أوروبا ،فبينما نحن نرى عمر بن الخطاب يخاطب جمهرة العرب والمسلمين ويقول :

« انني والله ما أنا بملك فاستعبدكم ، وانما أنا عبد الله عرضت علي الأمانة» نرى نابليون « الأبن البار » للثورة الفرنسية يعلم الناشئة ويغرس في أذهانها الخرافة القائلة بان الله جعله — أي نابليون — « صورة له على الارض ولهذا فان تقديم « احترامنا » للامبراطور هو بمثابة تقديم احترامنا لله . »

وبينما نرى عمر بن الخطاب يشكر الله ويحمده « لانه جعل في رعيته من يقومه بالسيف اذا تعوج » نرى « هيجل » يطالب « بأنه لا يتوجب على السلطة أن تؤدي حساباً الا أمام نفسها وأمام الله . »

وبينما نرى المسلمين يرفعون الى منصب الخلافة الخليفة عن طريق الانتخاب، نرى « هيجل » ونابليون يعلمون الشعوب الاوربية أن الله قد أمر بحصر منصب رئاسة الدولة بورثة الملك او الامبراطور ، حتى ولو كان هؤلاء الورثة من السفهاء او الحمقى أو الجاهلين الفاسدين والمفسدين .

مما تقدم يتضح ان القومية العربية في انتفاضتها الاولى ، ركزت كل عقائدها

وجهودها على تحرير وجدان الفرد تحريراً كاملا واشعاره بانسانيته والاخذ بيده الى وعي وجوده كانسان وعيا كاملا غير منقوص ، والعمل على ايقاظ روح المسؤولية الانسانية داخله .

لقد ادركت القومية العربية ، عن طريق الاسلام ، ان التحرر الوجداني للفرد امر غير ممكن ، لابل مستحيل ، وذلك طالما ان الفرد يرى في السلطة القائمة قوة غريبة عن مجتمعه ، قوة جاءت ، او بالاحرى ، ، ارسلت من مكان ناء عن المجتمع لتهيمن عليه ، توجهه حيث تشاء ، وتتحكم بمصائر ابنائه كيفما يحلو لها ويطيب ، وان انتقاد هذه القوة هو انتقاد لله عز وجل، وان مقاومتها هي مقاومة للخالق فاطر السموات والارض .

لقد جاء الاسلام اول ماجاء ليهدم الاصنام وليقضي على الوثنية العمياء ، ولذلك كان يتوجب على القومية العربية كي تنسجم وما جاء به الاسلام من مباديء وعقائد ، ان تحارب كل محاولة تقوم بها الدولة وترمي من ورائها الى الارتفاع برئيس الدولة الى مرتبة الآلهة ووضعه بالقوة والارغام فوق كل انتقاد وتحريم كل مقاومة يبديها الشعب تجاهه . لقد ادركت القومية العربية آنذاك ان مثل هذا العمل **يؤدي الى عودة الوثنية من جديد ، ويصبح وثن الامة امبراطورا او ملكا او رئيس جمهورية ، لذلك ثارت القومية العربية في انتفاضتها الاولى على مبدأ الحق الالهي ووضعت السلطة في رئيسها وفي كل اجهزتها في متناول انتقاد كل فرد في الامة العربية والامم الاسلامية .**

لقد رأت القومية العربية آنذاك ان مبدأ الحق الالهي فاسد ومفسد لأخلاق الحاكمين والمحكومين على حد سواء ، وذلك لانه يستنبت في نفوس المحكومين اعشاب العبودية السامة ، ويجعلهم يستسلمون للاستعباد والمظالم ، كما وانه يستثير في نفوس الحاكمين الغرور والايمان بانهم معصومون عن الخطأ ، وبذلك تصاب احساسات الحكام بمسؤولياتهم بالبلادة والتحجر ، ويصبحون في نظر انفسهم آلهة ترى في الشعب قطيعا من الاغنام واجبه الاساسي ان يقدم فروض الطاعة

وآبات الولاء ، ومن حق حكامه عليه – اي الشعب – ان يتمتعوا بنتاج عمله وان يستأثروا بمردود مجهوداتـه ، وان يروا في كل عمل يأتونه هو الصالح وهو المفيد ، ولذلك اوصى ابو بكر عمر بن الخطاب حين استخلفه بما يلي :

« اني مستخلفك من بعدي ، وموصيك بتقوى الله ، ان لله عمـــلا بالليل لايقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لايقبله بالليل ، **وانه لايقبل نافـــلة حتى تؤدى الفريضة** . فانما ثقلت موازين من ثقلت موازينـه يوم القيام باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لايوضـع فيه الا الباطل ان يكون خفيفا . ان الله عز وجل **ذكر اهل الجنة فذكرهم باحسن اعمالهم** ، وتجـــاوز عن سيئاتهم فاذا ذكرتهم قلت اني اخاف الا اكون من هؤلاء ، **وذكر اهل النار فذكرهم باسوأ اعمالهم ولم يذكر حسناتهم** ، فاذا ذكرتهم قلت لأرجو الا اكون من هؤلاء ، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده الى التهلكة .

فاذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب احب اليك من الموت وهو آتيك وان **ضيعت وصيتي فلا يكن غائب ابغض اليك من الموت ولست بمعجز الله** .

يابن الخطاب انني استخلفك نظراً لما خلفت ورائي وقد صحبت رسول الله صلى الله عليـه وسلم فرأيت من **اثرته انفسنا على نفسه ، واهلنا على اهله** ، حتى كنا لنظل نهـدي الى اهله من فضول مايأتينا عنه ، وقد صحبتني فرأيتني انما اتبعت سبيل من كان قبلي ، والله مانمت فحلمت ولا توهمت فسوهت ، واني لعـلى السبيل مـــارغت ، **واني اول ماأحذرك ياعمر نفسك ان لكل نفس شهوة ، فاذا اعطيتها تمادت في غيرها** .

واحذر هؤلاء النفر من اصحاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، الذين انتفخت اجوافهم وطمحت ابصـارهم واحب كل امريء منهم لنفسه ، وان لهم لحيرة عند زلة **واحد منهم فاياك ان تكونه** . واعلم انهم لن يزالوا منك خائفين ماخفت الله والك مستقيمين ماستقامت طريقك هذه وصيتي واقرأ عليك السلام .

في هذه الوصية ـ وصية أبي بكر ـ تتضح القواعد الاساسية التي تقوم عليها علاقات المحكومين بالحاكم ، وهذه القواعد جميعهـــا كما يرى القارىء ترمي اولاً واخيراً الى تحقيق الخير المطلق للمحكومين . أما أولى هذه القواعد فتقول بان خوف الامة ، أو بمعنى اكثر دقة ، أن احترام الامة للسلطة انما يتحقق باحترام السلطة لله عز وجل ، والله كما تعرفه القومية العربية هو الخير المطلق ، والمطلق في شموله ، أما القاعدة الثانية فانما تقول بان أخطر مايصيب الحاكم من انحراف يتمثل في اتباع الحاكم لشهوة نفسه (واني اول ماأحذرك ياعمر نفسك ، ان لكل نفس شهوة فاذا اعطيتها تمادت في غيرها .)

أما القاعدة الثالثة فهي تقول بان الله الذي هو الخير المطلق هو ايضاً الحق المطلق ، فلذا فان كل حاكم لايسعى الى تحقيق اكبر قدر من الحق المطلق فانما هو حاكم قد ضل سواء السبيل . والحق المطلق كما تراه القومية العربية على اضواء الاسلام هو ذاك الذي يعود أخيراً على القومية العربية في الانسانية بالخير المطلق .

أما القاعدة الرابعة فتقول بان على السلطة أن تسعى لتحقيق الجوهر ، جوهر الخير العام ، وان عليها الا تتمسك بالمظهر فتعطي القشور الاهميـــة البالغة ، او بالاحرى ترمي بالقشور الى الشعب وتستأثر هي باللب (وانه ياعمر لاتقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة) .

أما القاعدة الخامسة فتقول بان على السلطة الا تصبح اداة بيد فئة من الناس او طبقة معينة من المجتمع ، بحيث تستعملها هذه الطبقة او تلك الفئة وسيلة لتحقيق أغراضها ومنافعها الذاتية (واحـذر ياعمر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت اوداجهم وطمحت ابصارهم وأحب كل امرىء لنفسه .)

أما القاعدة السادسة فتقول بان السلطة لاتفسد الا عندما يفسد القائمون عليها فيغلبون مصالحهم الذاتية او الطبقية على مصالح المجتمع والانسانية . كما وان هذه القاعدة تقول ايضاً بان السلطـة اذا استطاعت ان تصبح الاداة الشريفة الفعالة

لتحقيق المنافع للجميع فانها تصون نفسها من المفاسد والفساد وتضمن لنفسها الديمومة .)

(انهم ياعمر لايزالوا منك خائفين ماخفت الله ، ولك مستقيمين ما استقامت طريقك .)

وهكذا يتبين لنا بجلاء أن « مبدأ الحق الالهي » يتنافى شكلا وأصلا ومفهوم القومية العربية ، فالشعب يخاف السلطة ويحترمها طالما أن السلطة تحترم رغبات رغبات الله في تحقيق الفوائد المعنوية والمادية للجميع ، والشعب يحترم السلطة في حالة تغليب الحكام لمصالح الشعب على شهواتهم ، أما في حالة عمل الحكام بعكس منطوق هذه المفاهيم فان على الشعب آنذاك أن يثور على السلطة وان يحاربها وان يدمر جميع مالها من أجهزة وقوى .

والسلطة ، كما ترى القومية العربية ، اذ تعتمد على الله في ممارسة سلطاتها فانما تستمد هذه السلطات من الرغبات الالهية الكامنة في نفس الامة ووجدانها الانساني ، لذلك فان السلطة تحكم لابغية تحقيق مآرب لاهوتية تنزل من السماء لتصب على الارض ، بل انما تحكم بغية الارتفاع بالمآرب الالهية الكامنة في البشرية على الارض والمشرئبة باعناقها الى السماء والمحطمة جيلابعدجيل مايغلها من قيود وأغلال رغبة وارادة وعزماً منها على التحليق والوصول الى السماء ماديا ومعنوياً للاندماج في الله ذاته الذي هو الحق المطلق والخير الاسمى . وذلك لان الانسان لايرفعه الله اليه لان الله قد اودع فيه من القدرة طاقة كافية تمكنه من الارتفاع الى الله في حالة احسان الانسان توجيه هذه الطاقة واستعمالها في وجوهها المخصصة لها منذ الازل .

ولهذا السبب فان القومية العربية تعترف بمفهوم واحد ووحيد « لمبدأ الحق الالهي » وهذا المفهوم الواحد والوحيد يقول :

بان للانسان الحق المطلق في حياته كما يريدها له الله الكامن في النفس البشرية لاكما يريدها له ملك أو أمبراطور او رئيس جمهورية وان ممارسة الانسان لهذا الحق ممارسة واعية هو طريقه الاوحد الى الانسان الاعلى

(السوبرمان) . لذلك كله يتوجب على القوميين العرب أن يؤمنوا بان « مبدأ الحق الالهي » لم يعد المبدأ الذي تدعم به السلطة أحكامها ووجودها بل انما هو وفق مفهوم القومية العربية ، المبدأ الذي يدعم به الشعب أحكامه والاداة التي يوجه بها السلطة القائمة ، وان اية سلطة تشذ عن هذا المبدأ هي سلطة غير جديرة بالاحترام والطاعة . فالاصنام قد حطمها الاسلام والوثنية دسنا عليها بنعالنا منذ قرون طوال . فليس هناك في الامة العربية الآن من فئة راشدة وفئات أخرى غير راشدة ، فالامة العربية في كل فئاتها راشدة في اعماق ضميرها ، تعي وجودها وتريد أن تمارس هذا الوجود ممارسة حرة خيرة ، لذلك بات الواجب الاساسي للسلطـــات الثورية أن تدفع بهذه الرغبات الحقيقية الى العمل والنشاط ايجاباً .

لذلك ايضاً نرفض نحن القوميين العرب الاصلاء أن نرى في اية سلطة أو قائد او زعيم أنها او أنهما فوق النقد والانتقاد ، بل أننا نرى ان النقد والانتقاد هما أمران ضروريان لتكوين الشخصية المطلقة في خيرها للأمة ، وايماننا هذا يدفع بنا الى الايمان ايضاً بان الامة الحرة هي التي تصنع زعماءها ، وأن الزعماء مهما أوتوا من مواهب واخلاص لايستطيعون أن يضعوا أمة حية ذات شخصية تندمج في الحق المطلق الذي هو الله .

ب ـــ التحرر الوجداني والسلطة :

قلنا فيما تقدم ان الواجب الاساسي للدولة القومية ذات الجوهر الانساني يتمثل بتنشيط وتشجيع كل عمـــل من شأنه أن يساعـد على التحرر الوجداني للفرد ، وذلك لان الفرد المتحرر هو الاساس الذي يرتكز اليه وعليه المجتمع المتحرر ومن ثم الدولة المتحررة .

والتحرر الوجداني للدولة الممثلة بسلطاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية يرتكز بدوره على دعائم اربع هي :

١ ـ الشعور المرهف بالمسؤولية .
٢ ـ التواضع .
٣ ـ العدالة في وجوهها الثلاثة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .
٤ ـ نقد الذات .

١ ـ الشعور المرهف بالمسؤولية :

ان الفرد المتحرر حينما تلزمه القوانين بالقيام بجميع مايترتب عليه من مسئوليات تجاه المجتمع والدولة فانما ينفذ هذه المسؤوليات لايمانه العميق بان في تنفيذها تدعيما لحقوقه وتأكيدا لواجبات الدولة تجاه رعايته وحمايته وتدعيم كيانيه المعنوي المعنوي والمادي ، وبهذا يدرك الفرد المتحرر أنه عندما يعمل للمجتمع او الدولة فانما هو في واقع الحال يعمل لنفسه ، كما ويعرف أنه عندما يعطي يأخذ ، وعندما يستجيب للقانون فانما يستجيب لنداء ضميره ولصوت عقله الواعي ، لذلك تسقط صفة الالزام في القانون لدى الفرد المتحرر ، تتحول علاقاته بالدولة من حيث هي علاقات طابعها الالزام والخضوع الى حيث هي علاقات طابعها التعاون ، تعاون الفرد والدولة على تنفيذ القانون المفترض فيه أن يحقق كل مصالح الفرد في المجتمع ، ويضع كل مايمتلك الفرد من نشاطات ومواهب في خدمة المجتمع والدولة .

آنذاك ، تصبح الدولة في نظر الفرد الشجرة التي هو أحد أعضائها ، فيؤمن الفرد عندئذ بانه لايستطيع أن ينفصل عنها أو يبتر نفسه من جذعها أو فروعها ، وان بقاءه ، كبقاء الغصن ، مرهون ببقاء الشجرة وحدة كاملة في كل جذورها وجذعها وفروعها وغصونها .

وهذا الايمان الفعال لدى الفرد المتحرر ، يجب ان يقابله شعور مرهف بالمسئولية لدى السلطة ، وذلك كي تتمكن السلطة من استيعاب وتوجيه النشاطات البناءة المتدفقة من الايمان الفعال للفرد المتحرر ، لهذا السبب يتوجب على السلطة المنبثقة عن ارادة الفرد في الحياة ، أن تتمتع بوعي كامل لواجباتها ، وعي ينسيها

أن لها حقوقاً ، وعي ينكر حقوقها وينفيها شكلاً وموضوعاً .

وذلك لانه في واقع الحال ليست للسلطة العاقلة ذات الجوهر والطابع الشعبيين من حقوق ، بل أن عليها واجبات وواجبات فقط ، وذلك لان حقوق الاشخاص القائمين على السلطة ، تضمنها صفتهم كافراد في المجتمع ، وليس صفتهم كملوك او رؤساء جمهوريات او وزراء أو موظفين في الدولة . أما السلطة التي تدعي لنفسها حقوقاً وامتيازات ، أو تسعى لاقامة حقوق وامتيازات لها ، فهي سلطة غير شعبية ، وواجب الشعب أن يثور عليها ويدمرها في كل اجهزتها ، وذلك لانها لاتعيش من أجل صالح الشعب ، بل انما تعيش من أجل تحقيق مصالح فئة او طبقة معينة من الشعب على حساب مصالح الفئات او الطبقات الاخرى للشعب .

ولقد وعت القومية العربية في انتفاضتها الاولى هذه الحقيقة ، ونحن بمسيس الحاجة اليوم كي تعي القومية العربية في انتفاضتها الثانية هذه الحقيقة ايضاً وعيا كاملاً مخلصاً .

وقد عبر عن هذه الحقيقة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بمثل رائع في بساطته حينما قال للربيع بن زياد الحارثي .

« انما مثلنا مثل قوم سافروا فدفعوا نفقتهم الى رجل منهم فقالوا له انفق علينا فهل له أن يستأثر عليهم بشيء ؟ »

ان الشعور المرهف بالمسئولية لدى السلطة ، كما قلت آنفاً أحد سبل السلطة الى التحرر الوجداني ، وهو ايضا الوسيلة الوحيدة للسلطة الى ارسا ، وتركيز الدعائم الثلاث الاخرى للتحرر الوجداني ، وأعني بهذه الدعائم التواضع والعدالة ونقد الذات .

كما وان الاحساس المرهف بالمسئولية هو الذي يمد السلطة بكل اسباب وجودها ، اذ أنه يفرض على السلطة العمل الدؤوب ، العمل ليلاً نهاراً ، ويجنب بذلك القائمين على السلطة الكسل والخمول « والروتين » الاداري ويحفظ عليها

بالتالي فعالياتها وحيويتها ، وبهذا تصون السلطة نفسها من الانحلال والاضمحلال ويحافظ لها على طابعها وجوهرها الشعبيين ، اذ أن تبلد احساس السلطة بمسؤولياتها العامة يتيح للقوى النهمة الشرهة في الدولة الفرصة لتنحرف بالسلطة من حيث هي سلطة شعبية الى حيث هي سلطة طبقية او سلطة فئة من فئات المجتمع أوسلطة جهاز من اجهزتها .

وهذا التحول ينزل بالسلطة من مركز المراقب والمنظم والموجه الى مركز المراقب والمستغل والمستعبد ، وعندئذ « لانحكم السلطة باسم الشعب ومن أجل تحقيق مصالح الشعب ، بل انما نحكم باسم القائمين عليها ومن أجل تحقيق مصالح الذين يمارسونها مباشرة او غير مباشرة . وهنا تزول الفروق بين الاستعمار الاجنبي وبين الاستعباد الداخلي ، فيشعر الشعب بانـــه ليس هناك من معنى حقيقي للاستقلال والحرية ولا وجود واقعي لوجوده من حيث هو شعب حر مستقل ويرى الشعب ان كل ماطرأ على اوضاعه العامة من تبدل يتمثل في تحول الشعب من حيث هو شعب تستعبده سلطة أجنبية الى صيرورته شعبا تستعبده فئة من ابنائه . عندئذ تختل موازين العدالة ويصاب الوجدان الانساني بالتبلد ، وتطغي الاثرة والطمع والشراهة على كل نازع انساني ، ويقوم المجتمع على مناقضات هائلة وتغدو المنفعة الآنيه الهدف الاساسي للفرد في كل نشاطاته وتصبح مهام السلطة مركزة على تحقيق المنافع لفئة معينة تمثلها وتمارس وجودها من أجلها وبذلك تتحول الدولة كما قلت آنفة الى **دولة طبقية** .

فيحل بذلك التناقض بـــين مصالح الطبقات محل التعاون بين نشاطات الافراد والبيئات ، وهنا تصبح الفلسفة المادية هي الطريق الوحيد .

الى تفسير اسباب وجود الدولة وتركيبها الاجتماعي . عندئذ يعيش المجتمع في الدولة في حالة صراع مستملا وحرب دائمة ، وذلك لان الشعور بالمسئولية لدى السلطة قد تحجر ، وقد ادى هذا التحجر الى غياب الروح عن عملها كمنظم للفعاليات المادية وموجه لها . وغياب الروح الناشيء من تحجر الاحساس بالمسؤولية

لدى السلطة يفرض على المجتمع آنذاك ان يسير في الطريق الوعر الشاق من طرق التطور أي تطـــوره من الاقطاع الى البرجوازية فالرأسمالية الامبريالية فالاشتراكية فالشيوعية ومن ثم العودة الى الهدف الاساسي الذي قامت من اجل تحقيقة القومية العربية أي اقامة التوازن بين الانسان كحسب والانسان كروح .

ان أخطر ماقد يصيب القومية العربية من كوارث هو عدم ادراك السلطة لمسئولياتها ادراكا كاملا مخلصاً وهذا الادراك يتمثل في وعي السلطة ، للرسالة السامية التي جملها الاسلام الى القومية العربية ، وهذه الرسالة ترفض طغيان الماده على الروح وترفض بالتالي للشعوب العربية ان تنهج في تطورها النهج المادي الذي نهجته اوروبا والذي الحق باوروبا مختلف النكبات والكوارث فطغيان المادة على الروح يؤدي بالتالي الى قيام الدولة الشيوعية وسيادة الشيوعية كفلسفة ونظام ، وهذا الامر ماتكافحه القوميـــة العربية وتجاهده لانه يقلب المفهوم الاساسي للقومية العربية اذ أنه يخضع الروح للمادة ، بينما ترى القومية العربية ان المادة هي التي يجب ان تخضع للروح في كل مراحل التطور الاجتماعي .

لقد علمنا تاريخنا المشرق ، وخاصة تاريخ الحقبة التي عاشها ابو بكر وعمر بن الخطاب كخليفتين للعرب والمسلمين ، أنه باستطاعة السلطة اذا وعت رسالتها وعيا كاملا وادركت مسؤلياتها ادراكا تاما ان تقيم دولة شعبية ، تمثل الشعب حق تمثيل في كل افراده وفي كل بيئاته ، وان تجنب السلطة اقامة دولة طبقية تقوم على المتعارضات في تركيبها الاجتماعي .

انني لأقف الآن من عوشاً مذهولا يملأ الاعجاب قلبي وانا أقرأ وصية ابي بكر الى عمر بن الخطاب :

« واحذر هؤلاء النفر من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي انتفخت اجوافهم وطمحت ابصارهم واحب كل أمريء لنفسه . »

وتزداد دهشتي ويزداد ذهولي حينما انتقل الى التفكير والتأمل في الكلمات التالية للخليفة الاعظم عمر بن الخطاب :

« الا اني قد سننت الاسلام سن البصير ، يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً ثم رباعيا ثم سديساً ثم بازلا ، ألا فهل ينتظر بالبازل الا النقصان ، ألا فان الاسلام قد بذل ، ألا وان قريشاً يريدون ان يتخذوا مال الله مضويات (مصائد) دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب هي فلا ، اني قائم دون شعب الحرة ، آخذ بحلاقيم قريش وحجز ان تيها فتوافي النار . »

وقال الطبري :

« لم يمت عمر رضي الله عنه حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال :

« ان اخوف ماأخاف على هذه انتشاركم في البلاد . »

ويقول الطبري ايضاً في موضع آخر من تاريخه .

« كان الرجل ليستاذنه في الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين فيقول عمر :

« قد كان غزوك مع رسول الله مايبلغك ، وخير لك من الغزو اليوم الاترى الدنيا ولاترك . »

من الامثلة المتقدمة يتبين لنا بوضوح انه باستطاعة السلطة في حالة احساسها بمسئولياتها احساساً مرهفاً ان تحول دون قيام طبقة من الطبقات بحكم المجتمع وتوجيه نشاطات الطبقات الاخرى الوجهة التي تؤمن استثنار الطبقة الحاكمة بالمنافع المجتمعية . فعقب ان تولى عمر بن الخطاب الخلافة وتابع بنجاح فتح البلدان التي كانت تؤلف الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ارادت الطبقة التجارية من العرب ، هذه الطبقة المثلة بقريش ان تستعمر وتستثمر العرب والبلدان المفتوحة ، وان تستغل الثورة التي اضرمها الاسلام في الجزيرة العربية والتي ايقظت القومية العربية ـ قريش ـ ان تستغل هذه الثورة لحسابها والاستئثار بمنافعها وحرمان الطبقات الاخرى من العرب والمسلمين ، اقول المسلمين ، غير الوعي الكامل لرسالة الاسلام ، هذه الرسالة التي تنادي بالمساواة التامة بين

الافراد من مسلمين وعرب ، وحسن السلطة المرهف بمسؤولياتهـا عن تحقيق هذه الرسالة ، اوجب على عمر بن الخطاب يأخذ على حد تعبيره « بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا في النار » وبهذا يكون عمر بن الخطاب قد جنب القومية العربية في انتفاضتها الاولى من انشاء دولة طبقيه ، وبالتالي صان القومية العربية من ان تصبح قومية عنصرية فاستعمارية ، ودفع بالقومية العربية الى ممارسة نشاطاتها في مجالات الانسانية الرحبة ، وبهذا جعل من القومية العربية النواة او المركز الذي تلتقي فيه الامية الاسلامية .

وهذه النتيجة التي اوصل عمر بن الخطاب القومية العربية اليهـا - اي جعلها النواة لامية اسلام لم يكن لعمر ان يصل بنا اليها لولا ايمانه العميق بان هناك مبادىء وقوانين كونية نستطيع اذا سدنا وفق احكامها وارشاداتها في كل نشاطاتنا من فردية وجماعية ان يصل بالانسان الى مرتبة الكمال الانسان المجتمع والانسان في الدولة .

كما وان اتباعنا لاحكام هذه المبادىء والقوانين الكونية يوفر على القومية العربية المرور في مراحل التطور الاجتماعي التي مرت بها القوميات الاوربية الاخرى ، وبذلك تختصر الزمن وتتجنب الصداع والنزاع الاجتماعيين ، ونذكر كل مجهوداتنا على تحقيق الصالح العام للامة في كل بيئاتها ، واخيراً نبني مجتمعنا لاعلى اساس طبقي بل انما نبنيه على اساس شعبي موحد معدوم الطبقات

ومن المؤسف ان القومية العربية قد انحرفت عن رسالتها عقب وفاة عمر ، والمؤرخ الصادق يستطيع ان يدد لسبب انحرافها الى عدم وعي الخليفة الثالث عثمان بن عفان لمسؤولياته كقومي عربي اتخذ له من الاسلام دنيا ونظاماً ، وكذلك استطيع ان اقول لموانا المسلم السني ، بضمير مرتاح ووجدان مطمئن ان انحلال اتحاد الشعوب الاسلاميه بدأ بعثمان بن عفان ، وسبب ذلك انه ماكاد عمر بن الخطاب يوسد لحده حتى تحولت الدولة الاسلامية الموحدة من حيث هي دولة شعبية الى صيرورتها دولة طبقية تعيش وتمارس سلطتها بغية

تحقيق مصالح الطبقة التجارية التي يتألف من قريش .

أما صيرورة الدولة الاسلامية الموحدة دولة طبقية فانما تبدأ بسماح عثمان للعرب بنقل فيئهم (أملاكهم الزراعية) من البلدان المفتوحة الى مواطنهم الاصلية وعلى هذه الاجراء يعلق الدكتور طه حسين في الصفحة ١٠٤ و ١٠٥ من الجزء الاول من كتابه « الفتنة الكبرى » بما يلي :

« وليس من الغريب أن يفرح الناس بذلك ويبتهجوا له ، فارض الحجاز احب الى اهل الحجاز من ارض العراق ، وارض اليمن أحب الى أهل اليمن من ارض الشام ومصر ، هي منهم قريب ، فهم يستطيعون ان يقوموا عليها في غير مشقة ولا كلفة والا احتياج الى السفر القصـــير او الطويل ولا الى الهجرة من ارض الآباء والاجداد .

وقد كتب عثمان بذلك في الافاق ، ففتح على الناس بابا عظيماً كان له ابعد الأثر في حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية « والفعلية جميعاً . »

ويستطرد الدكتور طه حسين فيقول :

« ولنضرب لذلك بعض الامثال : فغريق من كبار الصحابة كانوا يملكون كثيراً من المال السائل والجامد في الحجاز فما اسرع ماانفقوا مـالهم هذا سائله وجامدة في شراء الارض في الاقاليم (المفتوحة) لانهم كانوا يعلمون أن ارض الاقاليم أخصب تربة واكثر ثمرة وايسر استغلالا من ارض الحجاز . فطحة بن عبد الله كان قد جد واجتهد ودأب حتى اشترى عامة السهم خيـــبر من الذين شهدوا فتحها مع النبي او من ورثتهم . فلما فتح عثمان هذا الباب باع طلحة كل ما كان يملك من اسهم خيبر لاهل الحجاز ممن شهد فتح العراق بما كانوا يملكون هناك . ثم كان له مال آخر كثير فاشترى به من بعض أهل الحجاز أرضهم في العراق وفعل الناس فعله .

ويسترسل طه حسين في تعليقه فيقول :

« ونشأ عن ذلك اولاً أن ظهرت الملكيات الضخمة في العراق وغـيره من

الاقاليم . فالذين استطاعوا ان ينتفعوا بهذا الاقتراح وانما هم اصحاب الاموال الضخمة الذين كانوا يستطيعون ان يشتروا من اصحاب الملكيات الصغيرة مايملكون ، فاشترى طلحة واشترى الزبير واشترى مروان بن الحكم ، وكثر النشاط المالي في ذلك العام من بيع وشراء واقتراض واستبدال ومضاربة . ثم لم يقتصر ذلك على أهل الحجاز والعراق وانما شمل بلاد العرب كلها من جهة والاقاليم المفتوحة من جهة اخرى . وجدت الاقطاعات الكبيرة الضخمة والضياع الواسعة العريضة من جهة وقام فيها العاملون من الرقيق والموالي والاحرار من جهة اخرى ، فظهرت في الاسلام طبقة جديدة من الناس هي طبقة البلوتقراطية التي تمتاز الى ارستقراطيتها التي تاتيها من المولد بكثرة المال وضخامة الثراء وكثرة الاتباع . »

ويسترسل الدكتور طه حسين فيقول :

« ونشأ عن هذا بعد ذلك أن جلبت الحضارة جلباً الى الحجاز وغيره من بلاد العرب ، فكان الترف وكانت الفنون التي تنشأ عن الترف والتبطل ، فكان الغناء والايقاع والرقص والشعر الذي لايصور جداً ولانشاطاً ، وانما يصور بطالة وفراغاً وتهالكاً من اجل ذلك على القوة او عكوفاً من اجل ذلك على النفس وتعمقاً لما ينتابها من الهم . والى جانب هذه الطبقة الارستقراطية الفارغة عاش الرقيق الذين كانوا يملكون سادتهم ويدبرون حياتهم . وما يكون في هذه الحياة من النشاط الباطل وما يكون فيها من العواطف والاهواء . ثم الى جانب السادة الارقاء والارقاء السادة ، عاشت طبقة اخرى من العرب البادين المحرومين لم تملك قط ارضا في الحجاز لتبيعها بارض في العراق ، ولم تملك قط ارضاً في العراق لتشتري بها ارضاً في الحجاز . »

وقد يكون من المفيد او بالأحرى من الطريف ان انقل عقب وصف الدكتور طه حسين للحال التي آلت اليها الدولة الاسلامية الموحده عقب مقتل عمر وصف الاستاذ احمد الصاوي محمد للحال التي آلت اليها فرنسا عقب اعدام روبسبير

وتسلم حكومة « الديركتوار » لازمة السلطة في فرنسا ، وذلك للتدليل على تحول الدولة الاسلامية الموحدة من كونها دولة شعبية الى صيرورتها تماماً كالدولة الفرنسية عقب اعدام روبسبير اي دولة طبقة البراجوازية .

يقول الاستاذ احمد الصاوي محمد في كتابه « فوشيه » وفي الصفحتين ٩٤ و ٩٥ مايلي :

« واخيراً ، واخيراً جداً وبعد ليل طويل طويل ، وطويل جـــدا ، قضاه « فوشيه » في ظلمات الفاقة المثلجة ، بدأ يستنشق نسيم الصباح ... ففي البلاد ملك جديد . سلطة جديدة ولدت ، وقد صمم تصميما قاطعاً على ان يكون في خدمتها . وهذه السلطة الجديدة ، هذا الملك الجديد ، هو المال . فلم يكد روبسبير وانصاره يغيبون في بطن الارض حتى بعث المال من مرقده وتربع على عرشه ، وامسك بصولجانه محوطاً بحاشية مكونة من ألوف الاتباع والمحظيات والخدم والحشم . فصرنا نرى في الشوارع المركبات المذهبة الفاخرة ، ذات الخيول المطهمة الاصيلة وفي داخلها تجلس نساء فاتنات شائقات كأنهن الهات الاغريق .... »

ويسترسل الاستاذ الصاوي فيقول :

وفي غاب بولونيا يتنزه الشبان الوجهـــاء على خيولهم ، وقد التصقت ازياء الركوب باجسادهم وتنوعت الوانا بيضاء وسمراء وحمراء ، وفي ايديهم المزينة بالخواتم سياط انيقة ذات قبضات ذهبية لايترددون في ان يضربوا بها «الارهابيين» القدماء . وقد راجت حركة البيع والشراء في محال العطور ، وعند الجوهرية والصاغة . وفتحت فجأة خمسمائة او ستمائة او الف صالة للرقص ومقهى ، ونشطت حركات شراء البيوت ، وبناء « الفيلات » وازدحمت المسارح والملاهي ، وراح الناس يضاربون ويراهنون ويشترون ويبيعون ، ويقامرون بالوف الفرنكات الذهبية في « الباليه رويال » وراء سجوفه المصنوعة من الدمقس والحرير . لقد عاد المال سيدا وقحاً جريئاً ، وصار من جديد سلطانا .

ويستطرد الاستاذ الصاوي في وصفه فيقول في الصفحة ٩٦ من كتابه الآنف

الذكر مايلي :

« اما في الوقت الحاضر فالغني هو وحده الوجيه المحترم ، وكما يحدث دائماً في فترات الفوضى صار هذا الوقت صالحا لكسب المال ، وتنقلت الثروة من يد الى يد ، وبيعت الملكيات العقارية ، ليكسب اصحابها من بيعها ، وصودرت ثروات المحكوم عليهم ، وتتابعت المغانم من مصادرتها ، وتضخمت الاموال يوما عن يوم ، وهز التضخم البلاد كما لو كان حمى مستعرة ، وتمخض عن مكاسب جديدة ، كان يمكن الكسب من كل شيء اذا ماأوتي المرء يدان خفيفتان جريئتان واوتي ايضا علاقات واتصالات بالحكومة » .

تلك هي الحال التي آلت اليها الدولة الاسلامية الموحدة في عهد عثمان بن عفان ، وهذه هي الحال التي آلت اليها فرنسا عقب اعدام روبسبير وقيام حكومة الديركتوار .

لقد استأثرت الطبقة البرجوازية في فرنسا بمكاسب الثورة الفرنسية ، كما استأثرت من قبلها قريش وفي عهد خلافة عثمان بن عفان بمكاسب الثورة الاولى للقومية العربية ، وبذلك يكون عثمان بن عفان قد انحرف بالقومية العربية عن اهدافها الحقيقية كما انحرفت حكومة الديركتوار عن اهداف الثورة الفرنسية ، هذه الثورة التي نادت كما نادى الاسلام بالحرية والاخاء والمساواة .

اما السبب في نجاح ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب في السير بالقومية العربية نحو اهدافها الحقيقية ، فيرجع اولا واخيرا الى كون الخليفتين العظيمين سارا وفق ايدلوجيه واضحة ووعيا المسؤوليات الانسانية التي تفرضها عليها هذه الايدولوجية ، بينما يعود السبب في فشل روبسبير ورفاقه في تحقيق اهداف الثورة الفرنسية ، الى ان روبسبير ورفاقه كانت تنقصهم مثل هذه الايدولوجية الواضحة الكاملة وهذا مادفع بروبسبير الى مجالات الخوف والقلق والحيرة ودفع به بالتالي الى الاغراق في التقتيل والارهاب ، لأن الضباب الذي اكتنف الطريق امام النوازع الانسانية في نفس روبسبير جعله يقيم الحدود بالشبهات ، اما

الشمس التي اضاءت الطريق امام النوازع الانسانية السامية في نفسي ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب فجعلتها يعطلان الحدود بالشبهات ، وبذلك تمكنا طيلة حكمها من السير وفق منطوق العدالة المطلقة .

قلت ان الدولة الاسلامية الموحدة عقب وفاة عمر تحولت الى دولة الطبقة التجارية الاقطاعية ، وقلت ان خلافة عثمان بن عفان هي بداية هذا الانحراف الخطير عن رسالة القومية العربية الممثلة بالاسلام ، وعندما تتحول الدولة الى دولة طبقية تتحول بالضرورة الى دولة عنصرية ، اذ ان الطبقة التي تحكم تستخدم الامة التي انبثقت عنها (الطبقة الحاكمة) اداة لتنفيذ مآربها وتحقيق مصالحها على حساب طبقات امتها والامم الاخرى ، ولهذا عمد الامويون منذ عهد عثمان حتى سقوطهم الى الاعتماد على العناصر العربية لاستغلال واستعمار العناصر الاسلامية الاخرى في الدولة الاسلامية الموحدة ، ولو ان الامويين توقفوا عند هذا الحد من الانحراف لأمكن للنفس العربية الاصيلة في حبها للخير ان تصحح مثل هذا الانحراف الخطير وان تعيد القومية العربية الى مجالات نشاطاتها الطبيعية التي حددها الاسلام ، حيث جعل من القومية العربية النواة للأمية الاسلامية ، غير ان روح الدولة الطبقية كان يجعل من المستحيل على الامويين ان يتوقفوا عند هذا الحد ، حد سيادة العنصر العربي على بقية العناصر الاسلامية في الدولة الاسلامية الموحدة ، اذ ان الصراع الذي نشأ عن سلطة الطبقة البرجوازية الاقطاعية في التركيب الاجتماعي للدولة الاسلامية الموحدة امتد بالضرورة الى العناصر العربية في الدولة الاموية ، فعادت القبيلة وعاد التفاخر بالانساب وعاد التناحر بين القبائل والعشائر وعادت كل رذيلة سحقها الاسلام ودمرها محمد في النفس العربية .

وهذا مما يسر للشعوب الاسلامية الاخرى غير العربية أن تتكتل فتسند العباسيين وتطوح بالامويين وتنشيء الدولة العباسية ، هذه الدولة التي اعتمدت الشعوبية كنواة ، وهذا الاعتماد يتنافى شكلاً وموضوعاً والرسالة

الحقيقية للاسلام الذي أراد من العرب ان يكونوا النواة للامية الاولى في التاريخ وذلك لصفاء النفس العربية وميلها الغريزي الى الخير واستجابتها المخلصة لنداء الحق والضمير ، ولذلك فان الدولة العباسية لم يكن شعورها بالمسؤولية نحو رسالة القومية العربية أعمق من شعور الامويين بمسؤولياتهم الانسانية ، بل انما كان شعوراً طبقياً فيه الكثير من الانحلال وفيه البشع من الفساد والمدمر من الافساد ، لهذا توارت العناصر العربية المخلصة عن مسرح الوجود السياسي طيلة عهود العباسيين وعاد معظمهم الى البداوة ، ومن تحضر منهم تطرق اليه الفساد والانحلال كما تطرق الى غيره . وقفز الشعوبيون الى مراتب السلطان وهم متنكرون للاسلام حاقدون على العرب راغبون فقط بمتاع الدنيا ، لا يرون في الدولة وفي سلطانها سوى الاداة التي تؤمن لهم لذائذ العيش وأطايبه ، ولا غرو في ذلك ، فتلك الشعوب الاسلامية التي عاشت في الدولة الاسلامية الموحدة ذات الطابع العربي وجدت في الدولة الطبقية التي انتهت اليها الدولة الاسلامية الشعبية على أيدي الامويين والعباسيين من بعدهم الفرصة كل الفرصة في عودة طبقة معينة منهم الى حياة الاسراف والبذخ والترف والفسق والفجور وكل ما في اللذائذ الحسية من حقارة وخسة ونذالة . وتسلقت الطبقة النهمة الشرهة من الشعوب الاسلامية غير العربية قصور الخلفاء ودواوينهم ومراكز السلطان على أجساد الغلمان والمحظيات والعذارى ، وعاشت الدولة العباسية حياة كلها انحلال ، انحلال في الاخلاق وانحلال في العقيدة ، وغدا التفاخر باقتراف كل رذيلة فضيلة اجتماعية . فانطوى الاسلام على نفسه وانتشرت المظالم وخيم الطغيان وسادت المطامع وتربعت اللذة على عرش السلطة وغدا المال السيد الوحيد ذا الشأن وذا السلطان وشلت الروح العربية في فضائلها الاصلية وحل الكذب محل الصدق والرياء محل الحق ، والنفاق محل الصراحة ، والطمع محل الطموح ، وأخيراً الخير محل الشر ، فأرسل الله عليها المغول ليدمروها تدميراً .

الى هذه النهاية المخيفة المحزنة آلت الثورة الاولى للقومية العربية ، الى هذه النهاية

البشعة دفع عثمان بن عفان القومية العربية ، دفعها حينما قال

« ان عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله وأنا أعطي أهلي واقربائي ابتغاء وجه الله . »

لقد كان شعور عمر بمسؤولياته العامة من الاحساس ما كان يشعره بانه ملزم بالغير قبل أهله وقبل نفسه ، لقد كان عمر يريد في كل عمل يأتيه خير الاسلام وخير المسلمين ، دون التمييز بين قريب وبعيد وبين عربي واجنبي لقد كان عمر يبصر الله في الشعب وكان عثمان يبصر الله في اقربائه ، لقد صاح عمر باقربائه عندما قالوا له :

« انت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم . »

صاح بهم :

« بخ ! بخ بني عدي أردتم الأكل على ظهري !؟ وأن أهب حسناتي لكم ، لا والله حتى تأتيكم الدعوة عليكم الدفتر (أي ولو تكتبوا آخر الناس) »

واسمع ماقاله عثمان عندما أعطى اهله بجوهرات وجواهر كانت في بيت المال :

« لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وان رغمت أنوف قوم . »

لقد كان عمر يشعر بان مسئولياته شاملة ، وبأنه مسئوول عن كل أمر في الدولة عن حيوانها وانسانها عن عربيها واجنبيها عن المسلم وعن الذمي عن كل فرد عن كل كائن ، لقد كان كما قالت عنه أم أبان بنت عتبة بن ربيعة :

« ان دخل ، دخل بيأس ، وان خرج ، خرج بيأس ، قد أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه ، كانه ينظر الى ربه بعينيه . »

الى هذا الحد بلغ شعور عمر بمسئولياته ، لقد كان ينظر الى ربه بعينيه ، لقد كان يرى الله في شعبه وفي المسلمين وفي الانسانية وحتى في الحيوان

« لقد مر يوماً برجل حمل حمله ، لايطيق فخفقه بالدرة وهو يقول .

« حملت حملك مالا يطيق ! »

لقد كان عمر يردد أبداً :

« فوالذي بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة ، لو أن عناقاً (عنزا) ذهبت لشاطيء الفرات لاخذ بها عمر يوم القيامة ، او لو تركت عنز جرباء الى جانب ساقية لم تدهن لخشيت أن اسأل عنها يوم القيامة . »

ان سلوك عمر المنسجم في جزئياته وكلياته وروح الاسلام يسر للقومية العربية بناء دولة شعبية فأمية بكل مالكلمه الشعبية والامية من اتساع وشمول، وجعل للعرب رسالة انسانية يعيشون من أجل اعلاء كلمتها ورفع شأنها وأنهم مسؤولون مسؤولية كاملة شاملة عن تحقيق هذه الرسالة .

لقد قسوت على الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، ولكن منطق الحقائق قاس لايعرف عطفاً ولا يعرف شفقة ولا يتعامل بالرحمة ، وذلك لان الحقيقة البشعة حينما يعرضها التاريخ على صفحاته ، لاتستطيع ان تبرر الضرورة في وجودها التاريخي بالظروف او الحوادث او تطورات الاحداث ، وذلك لان نتائجها المدمرة للحضارات والأمم والدول تهدم مبرراتها وتجردها من كل صفة خيرة في الانسان وتردها الى الحيوانية الكامنة في النفس البشرية هذه الحيوانية التي مازال الانسان منذ فجر التاريخ يصارع ويكافح للتخلص من رواسبها وشباكها .

انني لا أنكر ولا يمكن ان انكر ماكان لعثمان بن عفان من سابق فضل في الاسلام غير أن المراحل الحالية والمقبلة التي تمر بها القومية العربية الى ممارسة وجودها كقوة انسانية تجعلني اقول كما قال ابو بكر الصديق في وصيته الى الخليفة الاعظم عمر بن الخطاب :

« ان الله عز وجل ذكر أهل الجنة فذكرهم باحسن اعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فاذا ذكرتهم قلت اني أخاف ألا اكون من هؤلاء . وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم ، فاذا ذكرتهم قلت لأرجو ألا اكون من هؤلاء . »

لذلك كله يتوجب على الشباب الثوريين والقادة الثوريين للقومية العربية أن يكافحوا ويجاهدوا في سبيل اقامة الدولة العربية الموحدة ، دولة شعبية لاتستند الى مبدأ التركيب الطبقي للمجتمع . لقد تمكن عمر بن الخطاب في تجرده واخلاصه من اقامة الدولة الشعبية ذات المجتمع الشعبي والجوهر والطابع الشعبيين دون اللجـــوء الى الاشتراكية او الشيوعية او المذاهب الاوروبية الاخرى بل وجد في الاسلام روحاً ومادة لاقامة مثل هذه الدولة ، وانحراف الدولة الاسلامية الموحدة عن رسالتها الانسانية ليس سببه ضعف الاسلام أو عدم تكامله أو انعدام وجود القدرة فيه على التكامل كنظام ودين ، بل انما يعود انحرافنا السابق عن سبيل الانسانية الى سيطرة طبقة برجوازية اقطاعية على أجهزة الدولة وتشغيل هذه الاجهزة لخدمة أغراض الطبقة المسيطرة على المجتمع والدولة ، لقد استطاعت تلك الطبقة ان تحقق اغراضها لأن المسئولين في الدولة الاسلامية قد ضعف او بالاحرى تلاشي شعورهم بالمسئولية عن صالح الامة العربية وصالح الامم الاسلامية وهذا مايفسره لنا قول ابي بكر الصديق في وصيته لعمر :

« وان لهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فـاياك ان تكونه ! واعلم انهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله ، ولك مستقيمين ما استقامت طريقك . »

ان الدولة لا تفسد ولا تنحل الا عندما تفسد السلطة ويدب فيها الانحلال فالفرد في جوهره خير صالـــح ، لذلك فان الامة والامم في جوهرها خيرة صالحة ولهذا فان السلطة والسلطة وحدها هي التي تفسد وتنحل ومن ثم تنشر الفساد والانحلال في اركان المجتمع واسسه ، والسلطة لا تفسد الا في حالة واحدة ، وهذه الحالة هي التي تحول السلطة من حيث هي سلطة شعبية الى حيث هي سلطة فئة او طبقة على الشعب . عندئذ وفي حالة هذا التحول المدمر في السلطة ، يصبح الطمع والاثره والانانية الدستور الذي ينظم علاقات المواطنين بالدولة ، وبهذا تغدو السلطة فاسدة مفسدة فتتعامل والنوازع الشريرة في النفس

البشرية بدلا من كبت مثل هـذه النوازع وتدميرها ، وحصر تعامل السلطة والنوازع الخيرة في نفس الانسان .

لقد تمكن ابو بكر وعمر بن الخطاب من ارساء قواعد انسانية لدولة شعبية ومن ايجاد نظام اقتصادي واجتماعي وسياسي للأمة الاسلامية الاولى ، ونجاح هذين الخليفتين العظيمين يعود الى تعامـــل الخليفتين والنوازع الخيرة في النفس الانسانية للفرد ، غير ان العمر لم يمهل هذين المصلحين الكبيرين فاختطفهما الموت قبل ان تضرب الاخلاقية العربية بجذورها عميقاً في التربة ، ولذلك لم يتمكن المصلحان الكبيران من تربية جيل يسهر على هذه الاخلاقية السامية ويحافظ عليها من الانحراف فالانتكاس ، لذلك جاءت الرجعة سريعاً ، وجاءت على يد عثمان بن عفان ، جاءت قبل اكتمال جيل عربي ذي اخلاقية اسلامية ، فلم يستطيع ابو ذر الغفاري ولم يستطيع علي بن ابي طالب ، ولم يستطيع محمد بن ابي بكر وغيرهم من الثائرين الاولين من الوقوف امام طغيان الرجعة ، فكان ان سحقتهم الرجعية في طريقها الى اقامة الدولة الطبقية .

انني اسجل هـــذه الحقائق وعيناي مغرورقتان بالدموع ، يتساءل ضميري ومنطقي في اعمق اغوارها عما كان قـــد آل اليه التاريخ الانساني ، التاريخ الانساني في كل حوادث شعوبه واحـداث امه لو ان عثمان بن عفان ومن جاء من بعده من ملوك اقول ملوك لا خلفاء لم ينحرفوا عـن الدستور الاسلامي وعن الاسلام كنظام ودين .

انهم لاشك لو بقوا سائرين على الطريق التي سار عليها ابو بكر وعمر بن الخطاب لكان العالم اليوم يعيش في دولة عالمية واحدة موحدة النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وكانت الانسانية قد بلغت منذ زمن بعيد الكواكب الاخرى ووصلت الى معرفة معظم أسرار الكون .

لذلك كله يتوجب علينا كقوميين عرب نمر في مرحلة جمع أشتات شعوبنا في دولة واحدة موحدة بغية الاندماج في الدولة العالمية الواحدة

الموحدة ان نكون حذرين متيقظين لكل عمل من شأنه ان ينحرف بالسلطة من حيث هي سلطة شعبية الى صيرورتها سلطة طبقية . ان أخطر عقبة تقف في طريقنا الى الدولة العالمية الموحدة تتمثل بالقومية العمياء ، هذه القومية التي تتحكم فيها العنصرية والاستعمار ووسيلتنا الى تخطي هذه العقبة الخطرة هي الاسلام والاسلام فقط .

٢ و ٤ — التواضع ، نقد الذات

التواضع الحقيقي الاصيل هو الدليل الاوحد على ان السلطة لاتوجد ولاتحكم تطبيقاً لما يعرف ويسمى « بمبدأ الحق الالهي . » والتواضع الحقيقي الاصيل هو السياج الذي يقي السلطة من الانزلاق الى ادغال الافتتان بالقوة والتواضع الحقيقي الاصيل هو الخيط الذي يشد السلطة الى فطرة الخير في النفس البشرية ، فيجعلها تؤمن بانها معرضة في كل عمل من اعمالها للخطأ قبل المديح والثناء . والتواضع الحقيقي الاصيل هو الذي يغذي السلطة بلبان الانسانية ويضفي عليها الصفات الانسانية من عدل ورحمة وكرم ورحابة صدر. **لذلك فان السلطة التي تنبذ الاتضاع فانها بعملها هذا لاترتفع الى مرتبة الالهة بل انما تنزل من حيث لاتدري الى احقر مراتب الحيوانية ، فتضع العقل الانساني والذكاء البشري في خدمة الغريزة واللذائذ الحسية ، فتصبح نتيجة لانحطاطها المروع هذا سلطة حيوانية ينظمها عقل منحرف ويوجهها ذكاء بشري شرير .**

نادى يوماً عمر بن الخطاب الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس صعد ابن الخطاب المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

« ايها الناس لقد رأيتني وأنا ارعى على خالات لي من بني مخزوم ، فكنت استعذب لهن الماء ، فيقبض لي القبضة من التمر والزبيب . »

ثم نزل .

فقال عبد الرحمن بن عوف :

ماأردت الى هذا ياأمير المؤمنين ؟

فقال عمر بن الخطاب :

ويحك يابن عوف خلوت بنفسي فقالت لي :

« أنت أمير المؤمنين وليس بينك وبين الله أحد فمن ذا افضل منك ؟ »

ثم استطرد عمر بن الخطاب يقول . »

« فاردت بهذه الخطبة أن أعرفها قدرها . »

ولنسمع الى مايقوله القرآن في سورة آل عمران :

« قل : ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الاالله ولا نشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله . »

ذاك عمر بن الخطاب ، وهذا مايقوله القرآن الكريم ، غير أننا كقوميين عرب لمسنا في سلطات الاستعمار وفي اجهزته وما زلنا نلمس في بعض السلطات التي مازالت قائمة في البلدان العربية ، ان الهدف الاساسي لتلك السلطات في بعض فئاتها هو تحقيق ربوبيتها على الارض .

ومن المؤسف ان أجهزة الادارات العامة في معظم ان لم يكن في كل البلدان العربية ، لاتزال حتى يومنا هذا في جميع موظفيها ، تنبذ مبدأ التواضع وترفض ان تطبقه في نفسها على نفسها ، وسبب ذلك ان أجهزة الادارة في بعض البلدان العربية مازالت حتى هذه الساعة لاتريد تحقيق الخير العام للأمة العربية ، بل انما تريد تحقيق ربوبية السلطة على الارض والمجتمع . ونحن نرى في حياتنا اليومية الكثيرين من الموظفين الذي يستعملون سلطاتهم ، التي أمدهم بها الشعب ليمارس سلطاته عن طريقهم ، كتأكيد لسلطتهم الشخصية ، ولهذا فان المبدأ الذي يسيطر على أجهزة الادارة في العالم العربي هو المبدأ الشخصي ، لذلك فان الطابع الرئيسي لاجهزة الادارات العامة في معظم البلدان العربية ان لم يكن في كلها هو طابع شخصي وليس بطابع عام وسبب هذه الحقيقة كون الموظفين في البلاد العربية

لايرون في السلطات التي منحتها أياهم الامة العربية ، سلطات تؤكد وجود الامة العربية في الدولة ، بل أن هؤلاء الموظفين يرون في سلطاتهم وسائل لتأكيد وجودهم الشخصي في الأمة العربية ، وهم بهذا كثيراً مايستعبدون روح القانون ليجعلوه **قادرا على استعباد الناس . وبذلك يصبح الموظف في نظر نفسه الها معصوم عن كل خطأ ، فتجمد حيويته ، ويخمد حماسه ، وتقل مجهوداته ، ويقف سعيه لافي سبيل تطوير المجتمع والدولة فحسب بل سعيه في سبيل تطوير وتثقيف نفسه ايضا ، وبهذا يصاب** المجتمع بخسارة مزدوجة ، الاولى تنفيذ سلطات الامة في الدولة على الوجه الذي تريده الامة ، والثانية استشراء الفساد العقلي والوجداني في فئة هي النخبة من ابنائها .

وعلى كل حال فانني سأعود الى بحث موضوع اجهزة الادارة العامـــة في فصل يلي .

قلت ان نبذ السلطة للتواضع ، يجعل القائمين عليها يشعرون بانهم معصومون عن الخطأ ، ومثل هذه القناعة اذا تسربت الى اذهان المسؤولين فانها تشكل خطراً شديداً على وجدان الشعب وضمير الامة ، وبالتالي تقعد الامة عن ممارسة سلطاتها الحقيقية ، فالامة لايشل وجدانها الا ادعاء السلطة المعصومية والعصمة ، والامة لايخدر ضميرها الا حين ممارسة السلطة اعمالها على اساس المعصومية والعصمة وبهذا تتنازل الامة عن حقها المطلق في تقرير ماهو صـــواب وما هو خطأ وتستسلم الى عبودية بشعة مسمومة تحولها الى فئـــة جردها الله من كل عقل ووجدان وضمير .

ومثل هذه الامة لاتصبح ، ولا تستطيع ان تصبح عاملا في بناء الحضارة الانسانية ، بل انما تمسي نتيجة لادعاء السلطات في الدولة ، عالة ومعطلة لموكب الحضارة الانسانية المنطلق الى الامام .

ان السلطة التي تدعي العصمة والمعصومية ، والتي تحرم كل انتقاد لها ، هي السلطة الديكتاتورية ، والديكتاتورية كما علمتنا الاحداث والحوادث التاريخيـة

يقوم نظامها على مزيج عجيب من الحيوانية والحماقة . ومثل هذه السلطة تلغي ابسط حقوق الانسان ، حق الانسان في ان يفكر ، وحقه في ان يعرض على المجتمع والدولة آراءه وافكاره ، وبهذا تنزل السلطة نتيجة لرفضها العمل بمبدأ التواضع بالانسان من حيث كونه مخلوقا يمتاز عن غيره من مخلوقات بالعقل والفكر والوجدان والضمير ، الى حيث هو آلة صماء وحيوان مشلول الارادة ومجرد من غريزته في كل وجوهها ، الخيرة منها والشريرة .

ان التواضع والاتضاع هما الدواء الشافي للسلطة من وباء الغرور والاستعلاء وهما ايضا الشمس التي تمكن السلطة من رؤية الحقائق الانسانية ، في كل مجالاتها ، الاقتصادية منها والاجتماعية والسياسية ، وهما اليدان اللتان تنبهان العقل الواعي للسلطة وترشدانها الى دراسة هذه الحقائق وضرورة التعامل معها .

لقد علمنا التاريخ ان الغرور والاستعلاء والكبر هي الجراثيم الفتاكة التي تنزل بعيني السلطة فتعميها ، وتجعل من السلطة قوة عمياء تضرب الفضيلة كما تضرب الرذيلة ، تهدم الصالح كما تهدم الطالح ، ترى ان كل واجباتها تتلخص في حقها ان تشرع القوانين ، وترى ان حقوق الامة تتلخص في اطاعة هذه القوانين ، أصالحة كانت أم خرقاء .

ان مثل هذه السلطة لايمكن لها ان تعكس ضمير الامة ووجدانها ، وهي بالتالي لايمكن لها ان تساعد الامة على الصيرورة كأمة متكاملة الوعي ، تعي حقوقها وتعي مسؤولياتها العامة . **ومثل هذه السلطة الشيطانية قد تستطيع ان تنشيء دولة ، ولكن مثل هذه الدولة التي تنشئها تكون مفتقرة الى اول مقومات الدولة وهو الامة . اما النظام الذي نراه في مثل هذه الدولة الممسوخة فهو نظام فوضى الغرائز الحقيره لانظام العقل المبدع والوجدان الحي .**

وتتدرج مثل هذه السلطة التي اعماها الغرور والاستعلاء والكبر من منحدر قذر الى منحدر اشد قذارة منه وابشع ، فتلغي الاعتبارات الضميرية حين مناقشة كل خطوة من خطواتها ، وتنسف الاتحاد الضميري للأمة ، هذا الاتحاد

الذي يوجه ارادة الامة ويخط لها سبل سيرها رغبة وعملا ، وتقتل دون مارحمة او شفقة كل من العناصر الخيرة في الامة وتصنع من الامة اداة تدمير جهنمية يلهو بها طفل وقح ماجن ويلعب بها اخرق احمق مجنون .

لقد أبصر فلاديمير ايلتش لينين مؤسس دولة الاتحاد السوفياتي خطر مثل هذا الانحراف الذي يصيب السلطة ، حينما يبتليها الله بالطيش والغرور ، فارسل في اواخر أيام حياته رسالة الى ستالين يقول فيها :

« انكم اذا تعقبتم كل الاذكياء الذين ليس هم بليني العريكة فانكم بذلك تهدمون الحزب بلا شك . »

لقد كان لينين يعتبر الحزب هو الامة او بالاحرى روحها ، ولقد ادرك بنظرته الثاقبة ان تعقب الاذكياء ، هؤلاء الذين يفرض عليهم التواضع والاتضاع مناقشة الحقائق والتعامل معها بغية الوصول الى الكمال ، أن تعقب مثل هؤلاء يؤدي الى هدم الأمة .

ان التواضع هو سبيل السلطة للوصول الى مراتب الكمال أما الغرور والكبر والاستعلاء في السلطة فهذه الزوائل هي التي تسد طريق الامة الى الكمال ، والسلطة المغرورة المتكبرة المتعالية هي عدو الشعب الاصيل عدوه في وجوده حاضراً ووجوده مستقبلا ، أنها عدوه في كل أجياله ، وان السلطة التي لاتناقش نفسها أمام الشعب جهاراً نهاراً لايحق لها أبداً من أن تناقش الناس ، ومناقشة الناس لها يجب أن تكون في تدميرها لا في ترويض غرورها كما قد يذهب البعض .

لقد جعلنا أدولف هتلر وستالين وموسوليني ونابليون وغيرهم من الذين ابتليت البشرية بحماقتهم وغرورهم ، لقد جعلنا كل هؤلاء نرى بأم أعيننا الى أي إداة بشعة تتحول السلطة حينما تنبذ الاتضاع والتواضع .

لقد نبذ هتلر الناس وابتنى له قصراً على رأس قمة شاهقة من جبال بافاريا ليستلهم الوحي وليتعبد بين جوانبه لذاته ولنفسه ، لقد جهل هتلر أن الوحي يستلهم من ارادة تقبـــل الوحي في النفس من الشعب ، الشعب في شيوخه ،

الشعب في شبابه ، الشعب في أطفاله .

لقد كان خليفتنا الاعظم عمر بن الخطاب يستوقف الاطفال ليسألهم آراءهم في الكثير من المشكلات التي كانت تعترض حياته اليومية كانسان وخليفة .

ان القوميين العرب الاصلاء ثورة وانسانية ، يرون أن من واجب السلطة أن تأخذ بكل صالح يعرض عليها وتعمل به ووفقه ، وهذا الامر مستحيل التحقيق طالما أن السلطة تسجن عقولها في بروج عاجية يسورها الغرور ويغلق نوافذها الاستعلاء والكبر .

ان السلطة ليست عقـــل الدولة ، انها المركز الذي تلتقي فيه عقول الافراد في الامة لتشكل عقل الدولة ، والمركز لايمكن ان يحتوي عقلاً اذا كان غرور وكبرياء القائمين على السلطة يسدون مجاري تدفق أفكار الافراد والبيئات اليه .

ان طريقنا الى المعرفة هو ايماننا كما قال أحد فلاسفة اليونان باننا لانعرف شيئاً ، ومثل هذه الانكارية الايجابية البناءة هي التي تستفز النوازع الخيرة في نفس الانسان وتستثير عقله وتدفع به في مجالات التقدم عقلاً ووجداناً وضميراً ، وطريقنا الى تحقيق هذه الغاية هو التواضع والاتضاع التفاعل ببيئة وأمة ، شعباً وشعوباً وانسانية . أما السلطة التي تأبى سلوك طريق الاتضاع والتواضع فان انكاريتها انكارية سلبية شديدة وهي تعتقد بان طريقها الى المعرفة هو أنها تعرف كل شيء وتدري بكل أمر وانها قد وصلت الى الاطلاع وادراك الحقائق النهائية في الكون . ومثل هذه هذه السلطة العمياء التي تدعي بان طريقها الى المعرفة هو أنها تعرف كل شيء ، فبادعائها السخيف لاتنسف طريقها الى المعرفة فحسب بل انها تدمر طريق الامة الى معرفة ذاتها اولاً ومعرفة الانسانية ثانياً ومعرفة الكون ثالثاً . وبهذا تتنكر هذه السلطة الشيطانية للحق ولجميع القيم الموضوعية والقوانين الاساسية التي تنظم الكون وتتحكم في سيره ومجراه .

أما عقلية مثل هذه السلطة ، فهي عقليه ممسوخة ، مشلولة عاجزة عن

أن تعكس عقلية انسان ذي ضمير حي وذى حسن وجداني مرهف . وذلك لان عقليتها تكون تماماً عقلية الساخر الماجن ، عقلية الفاجر الداعر ، عقلية ترى في الحق منار سخرية وفي الحقيقة موضوع مجون ، وبهذا تهدر السلطة وتدوس على كرامة الانسان وتزدري بكيان الامة لابوصفها أمة فحسب ، بل بوصفها امة تسعى وراء الحق وتشقى في سبيل الحقيقة ، وتجهد نفسها على طريق المعرفة .

ان طريق السلطة الرئيسي الى التواضع ، هو كطريق الفرد تماماً . وهذا الطريق يتمثل بالايمان العميق بالله ، فالانسان عندما ينكر وجود الله يؤله نفسه وفي حالة تأليهه لنفسه يفرض على عقله الجمود ويلحق بوجدانه الشلل ، فيتوقف حيث وصل ليعود الى حيث بدأ .

ان علينا كعرب نعيش في عصر طابعه المادية ، المادية خلقاً ، المادية مجتمعاً المادية لاهوتا (اذا جاز لنا استعمال مثل هذا الوصف ـ لاهوتا) أن نتحسس بهدي الله وايماننا المطلق بوجوده وذلك في كل عمل نأتيه وفي كل أمر نقوم به . علينا أن نؤمن ، وذلك أذا اردنا الخير لنا وللانسانية جمعاء ، بان هناك قوانين كونية ودستور يسير وفقه هذا الكون الذي نعيش فيه والذي وضع الله فيه الانسان ليعرفه وليتعرف عليه ، ليروضه ويكيفيه وفق مشيئة الفطرة الخيرة في النفس البشرية ، هذه المشيئة التي هي مشيئة الله نفسه .

ان ايماننا بالله ، وايماننا بان هناك كائنا اعظم ، وان الانسان مهما سما ومهما ارتفع فان أمامه مسافة شاسعة وبوناً هائلا للاندماج في الله والذوبان في ذاته القدسية . مثل هذا الايمان اذا اعتمدناه في كل خطوة من خطواتنا فاننا لن نعثر ولن نسقط عياء وتعباً على جنبات الطريق .

لقد خلق الله هذا الكون ، ليضعه في خدمة الانسان ، وواجبنا الاساسي ليس في تحدي الله في انكاره ، بل انما في استعمال الطاقة التي اودعها الله في نفوسنا لقبول تحدي اسرار الكون لنا .

ان الايمان بالله ليست كما يقول جان بول سارتر **قضية ارادية لاقضية عقلية** .

انه على العكس من ذلك تماماً ، انه قضية عقلية بكل ما للعقلية من صفة ومفهوم. انه القضية او المعضلة التي من أجل حلها يتطور الانسان عقلاً وفكراً ، ضميراً ووجداناً . اننا نؤمن بالانسان ، ونؤمن به تاجاً للمخلوقات ، مع ان الانسان لايزال حتى هذه الساعة مجهولاً في كثير من مناحي تركيباته العضوية والحسية . وجهلنا بالمجهولات في الانسان لايفرض علينا بالضرورة انكارنا للانسان . ان معرفتنا فقط بالشيء هي التي تخرج بالشيء الى الوجود الحسي وتفتح عين الانسان على وجوده . اذن فالمعرفة هي التي تخلق الايمان بوجود ذاك الشيء والجهل هو الذي ينفي وجود ذاك الشيء قبل معرفتنا له ، ولكن وجود ذاك الشيء حقيقة وواقعاً قائم قبل معرفتنا به ، والشيء كان موجوداً وقائماً ومتملكاً لكل اسباب الوجود وصفاته طيلة جهلنا وجهل الاجيال من قبلنا به ، لذلك فالمعرفة ليست بالضرورة الشرط الاساسي لايماننا بوجود الشيء او بعدم وجوده ، ونحن اذا كنا حقاً ايجابيين بناءين ، يجب الا نسلط ونركز كل مانملك من جهد ووسيلة على نكران شيء تقصر معرفتنا دونه ، بل يتوجب علينا ان نركز طاقاتنا وحيويتنا على انماء طاقات المعرفة فينا كي تصل الى الكمال في الادراك فتصل الى المعضلة ـ معضلة معرفه الله ، لتحلها نفياً أم ايجابا . والوصول الى مثل هذه المرحلة، مرحلة معرفة الله ، لايمكن أن يتم خلال جيل او جيلين ، فنحن لانعرف الا هذا الكوكب الذي نعيش عليه ونعرف معرفة سطحية بقية الكواكب ذات النظام الشمسي التي تتبعه أرضنا ، والشمس ليست سوى نجم واحد من ملايين النجوم التي تجري بما يعرف بالمجرة . ونحن حتى هذه الساعة نجهل كل شيء عن المجرة في شموسها وكواكبها وفي ما فيها من أنظمة شمسية أخرى غير نظامنا الشمسي هذا ، وهناك في الكون الالاف ان لم يكن الملايين كالمجرة ضخامة شموس وانظمة شمسية وكواكب . وكلها كما قال القرآن في فلك يسبحون .

اذن فالمعضلة ـ معضلة معرفة الله ـ ليست قضية ارادية بل انما هي في الواقع قضية معرفة وجهالة ، والجهل بالشيء لاينفي وجوده ، فالرغبة في معرفة شيء

غير موجود حسياً في نظر الانسان قد تكون البرهان على وجود ذاك الشيء .

لقد بدأ الالحاد يسلك سبيل العلم على يد داروين وذلك حينما ساق داروين نظريته المعروفة والتي تقول بان جميع الاحياء متفرعة من نوع واحد فقط ، مرت عليه تطورات تدريجية متواصلة ثم تفرعت عنه الاشكال المتعددة المتباينة ولم يكن التفريق كما يقول داروين بين هذه الاشكال واضحاً في باديء الامر بل على العكس من ذلك فانها اكتسبت هذه الفروق بعد تطور تدريجي متعاقب جيلاً وبعد جيل .

وينتهي داروين بنظريته هذه الى الاستنتاج القائل :

« ان تفسير الحياة بوجود خالق له ارادة في الخلق يكون بمثابة ادخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت . »

ولاشك ان هذه التطورات التدريجية في الحياة واتخاذها ـ أي الحياة ـ الاشكال والهيئات المختلفة التي نشاهدها اليوم قد عمل فيها قانون اساسي من قوانين ميكانيك الطبيعة وأعني به قانون الجاذبية ، هذا القانون الذي اكتشفه العالم الانجليزي نيوتن .

والآن لنسمع مايقوله اينشتاين عن هذا القانون ، قانون الجاذبية . يقول اينشتاين مايلي :

« ان قوانين نيوتن في الجاذبية لاتصلح للتطبيق الا على سطح الكرة الارضية ، وهي لاتصلح أبداً للتطبيق في الكون الكبير . »

اذن نحن لانستطيع ، كما يقول اكبر علامة عرفه عصرنا وهو اينشتاين ، أن نتخذ ، حتى من قوانين الطبيعة على ظهر هذا الكوكب ، قانوناً او قوانين نتعامل وفقها والكون الكبير كما يسميه اينشتاين ، وذلك لكون الكون الكبير يحتوي على كواكب وانظمة شمسية اخرى لها قوانينها الخاصة بها والمختلفة عن القوانين المتحكمة بمجرى كوكبنا وبالحياة عليه .

لذلك كان استنتاجنا لعدم وجود الله من القوانين التي نعرفها في حياتنا على ظهر هذا الكوكب هو ظلم للحقيقة والحق ، اذ ان الله لاينحصر فعله في كوكبنا

بل انما تشمل أفعاله الكون الكبير .

فاذا سلمنا بما يقوله داروين بان الحياة قد تطورت من الخلية البسيطة حتى اتخذت اشكالها الحالية ، وان الله لابد له في خلق الانسان ووجوده فان قولنا هذا يصلح فقط على ظهر الكرة الارضية غير أنـــه لايصلح كحقيقة في الكون الكبير .

لن ابسط الناس يرى أن هناك نظاماً عاما يشد الكون في ملايين انظمته الشمسية وبلايين كواكبه بعضا الى بعض ، كما ويرى في بقائه حياً وبقاء ارضه وبقاء الحياة عليها برهانا على وجود دستور عام ينظم مجرى الكون ومسراه ويربط بين شمسنا وكواكبها وبين الشموس والكواكب الاخرى . وهذا الدستور الذي جعل الكون يعيش حتى اليوم في انسجام ووفاق دائمين لايمكن ان يكون كما تدعي الفلسفة المادية نتاجاً للصدفة .

فلو افترضنا كما قال أحدهم ان انفجاراً ضخماً وقع في أحد المكتبات الضخمة فتطايرت الكتب وتناثرت صفحاتها ، فان تطايرها ومن ثم تجمع الصفحات بعضها الى بعض لايمكن ان يشكل قاموساً مرتباً على النسق الذي يرتبه الانسان .

لذلك كله كان لابد من وجود واضع للدستور الكوني .

اذن علينا كقوميين عرب ندين بالانسانية ان نؤمن بان مبدأ الايمان بالله مبدأ هام وجوهري كقوة للنظام وكقوة تحفظ هـذا النظام في مجتمعنا وفي هـذا الكوكب وفي الكون ، وان هـذه القوة عـامل أساسي في دفع الانسان في مجـالات التقـدم الكوني ، كما انها القوة التي تشعر الانسان بمسؤولياته الجسام امام قوة ضخمة لامتناهية ، قوة يصارع الانسان من اجل تنفيـــذ إرادتها الممثلة لافي الصالح الانساني العام فحسب ، بل انما في الصالح الكوني العام ، قوة تلزم الانسان بأن ينسق خطاه كي ينسجم خط سيره وارادتها بغيه التقدم اللامتناهي ، هذا التقدم الذي بدأ ببداية الحياة ولاينتهي الا بنهايتها .

يقول اللاهوتي الفرنسي المشهور « سان سيران » « ان من شأن النعمة ـ الله ـ ان توفق بين الاضداد . » واذا نحن تمعنا مليا بسيرة الخليفة الاعظم عمر بن الخطاب

لوجدنا ان ايمانه المخلص العميق بالله لم يمكنه فقط من التوفيق بين الاضداد بل انما مكنه من نفي هذه الاضداد وبناء مجتمع في دولة لاوجود للاضداد فيها ولاوجود للمتناقضات ، دولة لاتعرف الطبقية ولاتتعامل بها ، بل تعرف أمراً واحداً ووحيداً هو الصالح العام الممثل بالخير العام .

يقول الفيلسوف الالماني « شلايرمخر » « الانسانية بلا دين وحشية » والحق ان ماجاء في قول « شلايرمخر » هو الواقع ، فالانسان اذا لم يؤمن ايمانا صادقاً بانه اذا أفلت من عقاب القانون على الارض ، فأنه لاشك ملاق عقابه أمام الديان الاعظم ، فعندئذ تبقى الرواسب الحيوانية في اعماق نفسه مستعدة ابداً لتطفو من جديد ولتحجب قوى الخير في النفس البشرية عن العيان والفعل . ان السلطة ، عندما تنكر الله ، لاتقوي بذلك احساساتها بمسؤولياتها العامة أمام الشعب ، بل انما تقوي احساساتها بمسؤولياتها تجاه القائمين عليها ، لان الرباط الذي يشد السلطة الى الشعب هو رباط وجداني مجرد ، والوجدان لايستيقظ في الانسان الا اذا آمن بان هناك قوة تفوق السلطان والسلطات في ضخامة جيشها وشرطتها وان هذه القوة باستطاعتها في كل لحظة ان تسحق كل هذه الاجهزة ساعة انحراف خطاها عن خطى الخير العام .

انا اعرف ان هناك محاولات كثيرة ترمي الى احلال الشعب محل الله ، وتريد ان تحل مسؤوليات السلطة امام الشعب محل مسؤولياتها امام الله ، غير ان التاريخ في كل حوادثه قد علمنا ان كل سلطة تنهج هذا السبيل تنتهي ابدا ودوماً الى احلال مسؤولياتها امام القائمين عليها محل مسؤولياتها امام الله والشعب (هتلر ، ستالين ، موسوليني ، الخ) فالسلطة التي لاتؤمن بالله لايمكن ان تؤمن بالشعب ، اذ انها تركز ايمانها على نفسها لتتعبد لنفسها في محراب الغرور .

ان السلطة لاتمثل القوة المادية للأمة فحسب ، بل انما تمثل القوة الروحية ايضاً وعندما تتنازل السلطة ، او ترفض القيام بالعمل كقوة روحية ، عندئذ يدب

في المجتمع الضعف وتصاب الدولة بالانحلال . والتواضع ، كما يقول الكردينال دي بيرول ، هو الاساس الذي ترتكز عليه الحياة الروحية .

كما ويقول اللاهوتي الفرنسي « سان سيران » عن التواضع الحق :

« انه من المستحيل ان نكون اتقياء حقاً ، مالم نكن متواضعين حقاً ، مالم نعرف حالة الشقاء التي ظلت في النفس بعد الخطيئة ، (سقوط آدم) ومالم نعلم حاجتها الى نعمة تعنيها في كل لحظة كي لاتقع في الخطيئة من جديد . »

ان الايمان بالله ليس أمراً نابعاً من العقل فحسب ، أنه كما يقول الفيلسوف والرياضي الفرنسي باسكال أمر ينبع من القلب ايضاً . انني كما أرى بان رغبتنا الغامضة في الايمان بكائن اعظم ، كائن له هذه القدرة اللامتناهية في طاقاتها التنظيمية للكون في كل شموسه وافلاكه وكواكبه ، هذه الرغبة الغامضة لهي في نظري دليل مابعده من دليل على وجود الله . فلقد تلاشت منذ فجر الانسانية الكثير من الرغبات الانسانية واضمحلت من الخرافات والاساطير ما كان منها عقيدة وما كان منها نظاما ، غير ان رغبة الانسان في الايمان بخالق مازالت ترافقه حتى هذا العصر الذي يحاول ابناؤه ان يخضعوا كل شيء فيه للعقل والعلم والتجربة .

ان الانسان عندما يرى ان فيه ومن اجله تبدأ الحوادث وتنتهي ، وأنه مسؤول لذلك فقط أمام نفسه المجردة لا أمام قوة أزلية ابدية أوجدت في نفسه لتفعل فيها يعيش ويحيا ، عندئذ يركز الانسان كل مجهوداته على نفسه ويتناسى واجباته امام الاجيال المقبلة وامام الكون ، آنذاك يصاب الانسان « بالانانية » ويصبح كالحيوان تماماً الذي لايفتش عن طعامه الاحينما يجوع .

انني قبل ان اختتم بحثي في تواضع السلطة والانسان وضرورة الايمان بالله اجد من المفيد جداً أن اضمن الحوار المشهور « لباسكال » صفحات كتابي ، هذا الحوار الذي يدور بين مؤمن وملحد . وسأشير للمؤمن بحرف (م) وللملحد بحرف (ح)

م : « الله موجود أو غير موجود » على ماذا تراهن .

ح : اني لا أريد المراهنة .

م : ولم ذلك ؟

ح : لان في المراهنة مجازفة .

م : وبما تجازف ؟

ح : بحريتي وارادتي .

م : نعم يجب عليك وضعهما في الميزان ، بل القذف بهما في معترك الحياة . انت حر وتستطيع ان تنكر وجود الله ، وتضرب بحقائق الدين عرض الحائط اذا اردت ، كما وتستطيع ان تقرر وجود الله وتقبل حقائق الدين اذا شئت . ولكنك لاتستطيع تجنب الاختيار بين واحد من الامرين .

ح : ولم وجب الاختيار ؟

م : لانك في سفر والرحلة قصيرة والموت قريب ، وربما كان عاجلا مفاجئاً . وان أرجأت الاختيار لحظة او دقيقة ربما فوتت عليك الفرص .

ح : هذا صحيح ولكن كيف أختار ، ولانور يهديني في الاختيار .

م : لاعجب ألايدلك العقل على شيء ، فالمسألة ليست مسألة معرفة وبرهان بل مسألة مكسب او خسارة ، مكسب هائل ، أو خسارة عظمى ، مسألة حياة او موت . ففي اي الناحيتين مصلحتك ومنفعتك ؟ « الله موجود أو غير موجود . » لنضع الفرض الاول « الله موجود » لوقبلت هذا الفرض ، واعترفت بوجود الله ، واتبعت وصايا الدين كسبت الحياة الابدية والسعادة اللامتناهية . أما اذا انكرت وجود الله وعصيت أوامر الدين فقد خسرت كل شيء واوقعت نفسك في العذاب الابدي لنضع الفرض الثاني : « الله غير موجود » اقول سواء قبلت الفرض او رفضته ، ماكسبت ولاخسرت شيئاً ـ وعلى ذلك فان راهنت على ان الله موجود كسبت كل شيء في الفرض الاول ولم تخسر شيئاً في الفرض الثاني .

ح : هذا صحيح وجميل ويحق لي ان أختار هذ الفرض ، ولكني لوفعلت ذلك **ضحيت بلذاتي وسعادتي في الدنيا** .

م : لاتنس انك مراهن ، وكل مراهن يضحي بشيء لنوال شيء أعظم .

ح : نعم . ولكني أجازف بكسب مؤكد في سبيل كسب غير مؤكد .

م : انك تجازف بكسب محدود في سبيل كسب لامحدود .

ح : ولكن الكسب المحدود مرغوب لي . انه كل شيء عندي . أما الكسب اللامحدود فهو لاشيء .

م : ربما قررت ذلك لانك فقدت بعض حريتك . واصبحت عـــاجزاً عن التطلع الى شيء اسمى من ذلك الكسب المحدود .

ح : نعم اني غارق في اللذات وحريتي ضائعة في الشهوات .

م : والرهان طريق يحررك منها ـ اذن راهن وترقب نتيجة الرهان .

ح : انك محق وكلامك يعجبني ، ويملأ قلبي حماسة وقوة .

م : اذا كان ذلك صحيحاً ، وكان كلامي يبعث الحماسة في نفسك فاعلم أني ركعت قبله وسأركع بعده للموجود اللامتناهي ، متوسلاً اليـــه متضرعاً أن يضمك الى احضان الدين ، كما ضمني اليه من قبل . ـ والدليل على انك لن تخسر شيئاً ، ان الدين جعلك صبوراً أميناً صادقاً محبا مخلصاً . نعم انك تفقد اللذات الموبوءة ولكنك تكسب أخرى محلها ، اعظم منها .

ان في هذا الحوار البديع درساً نافعاً لنا نحن معشر القوميين العرب . ان الدين كما أرى هو سياج كل مجتمع صالح . انه السياج الذي لايستطيع أي عابث ان يتخطاه ، أكان ذاك العابث فردا او جماعة او السلطة في الدولة . لقد عاش الانسان منذ الفجر المجتمعي الاول وهو يفتش عن الانظمة والقوانين التي تحمي وجوده وتصون كرامته وتدعم فيـــه انسانيته ، فلم يجد حتى يومنا هذا من نظام يشمل العقيدة والحياة ويفي بأمانيه ويحققها كالدين

ان جميع المباديء الصالحة تدعو الى الخير ، وخير الانسان أصبح الآن

الهدف النهائي لكل عمل يريد له صاحبه أن يتسم بالصلاح وأن يوصف بالاصلاح . وجميع الاديان السماوية في جوهرها تتوجـــه بالانسان نحو صلاح نفسه وصلاح مجتمعه . ان الانسان العدمي الذي يؤمن بان الحياة تنتهي عند القبر لايمكن ان يصبح انسانا حضاريا ، انه انسان يستعيض عن عقله بغريزته ويستبدل وجدانه بالنشوة والانتشاء الحسيين .

لقد علمنا التاريخ ان الأمم والشعوب التي بنت الحضارات كانت أمماً مسيرة بعقيدة وايمان مطلق بتلك العقيدة ، ولقد تخطى ايمانها بنتائج اعمالها جيلها وعصرها الى الاجيال والعصور المتعاقبة . ان الايمان هو المولد لكل حياة منتجة ، ويجب الا يكون للايمان حدود او نهاية ، فايمان الانسان اذا لم يتعد مجتمعه او دولته او قوميته الى الانسانية جمعاء ينتهي بالانسان الى صيرورته انسانا عدوانيا يرى الكون ينتهي عند حدود بلده . لذلك كان الايمان بالله ، الايمان بمنظم للكون ، هو طريقنا الوحيد لارساء دولة يتدفق مجتمعها بالخير والعدل والكرامة .

لقد اعتمدت القومية العربية اول ما اعتمدت التواضع أساساً لها ، والاسلام يذكر العرب بضرورة التواضع خمس مرات كل يوم وذلك حينما يقف المؤذن ليدعو المسلمين والعرب الى اداء واجباتهم الدينية . ان الاذان يبدأ بكلمتي « الله اكبر ! » انه يذكر الفرد ويذكر السلطة ويذكر الانسانية جمعاء بانها مهما بلغت من العلم ومهما بلغ العقل من التقدم ومهما بلغت من القوة فان هناك قوة اكبر منها وأضخم فالله أكبر .

قلت في بداية بحثي ان الايمان بالله يقود الفرد والسلطة الى التواضع ، كما وان التواضع يؤدي بالفرد والسلطة الى الايمان بانه وانها غير معصومة عن الخطأ ، ومثل هذا الايمان ، الايمان بعـــدم المعصومية ، يجعل الفرد كما يجعل السلطة ترجع عقب كل نشاط الى مناقشة اعمالهـــا والتأمل العميق بما اتته والامعان في كل أمر قامت او تنتوي القيام به ، وذلك بغية اكتشاف اخطائها واكتشاف انجع الوسائل لتلافي الاخطاء مستقبلا ، وهذا هو مايعرف بنقد الذات .

ان مبدأ النقد الذاتي هو من أصعب المباديء تطبيقاً من قبل السلطة . فالغرور وما يلده من عناد وكبرياء وطيش وحماقة ، كل هذه الرذائل التي تشكل الرغبات الانسانية المنحرفة في تأكيد الوجود وفرضه ، تسد امام السلطة الطريق لمراجعة اعمالها ومناقشة ذاتها .

انه من السهل جداً على الانسان ان ينقد غيره ، اما ان ينقد ذاته ويواجه ذاته بمسؤولياته وأخطائه فهذا العمل يقتضي الضمير الانساني جهوداً شاقة مضنية للتغلب على ما يسمى بالاعتبارات الاجتماعية من فرص مهابة وتأكيد وجود .

ان هناك ميلاً شريراً في الانسان كما في السلطة لتأليه نفسه ولتأليه نفسها ، لذلك فان السلطة المنحرفة ترى في مبدأ النقد الذاتي العقبة الرئيسية في طريقها الى تجسيد الوهيتها على الارض ، كما وترى ان التعامل بهذا المبدأ خطراً على وجودها وهي بهذا لا تحرم على ذاتها نقد ذاتها فحسب ، بل انما تحرم على الغير نقدها ايضاً ، لذلك تندفع السلطة في طريقها اندفاعاً طابعه الرعونة والطيش فتسير نتيجة لاندفاعها بالمجتمع والدولة الى قدر فاجع محتوم . بينما ان السلطة الشعبية جوهراً وطابعاً ترى في تطبيق مبدأ النقد الذاتي وسيلة هامة من وسائل بقائها ومقوماً جوهريا من مقومات وجودها ، وهي بذلك تضع الارادة في خدمة الفكر ولا تضع الفكر في خدمة ارادتها ، لذلك فان سير السلطة في المجتمع يكون منسجماً والارادة العامة للامة في الحياة ويكون منظماً لهذه الارادة وموجهاً لها نحو تحقيق الصالح العام ، لهذا تكون جميع اعمالها نابعة من فكر نير وضمير حي ، لا من رغبات غامضة او نزوات خرقاء .

ان مبدأ النقد الذاتي هو دليل ما بعده دليل على ان العقل والضمير العامين لا يزالان نشيطين فعالين في الدولة ، وعلى ان السلطة ما زالت عند غرضها الاسامي الممثل بالسعي الدؤوب للوصول بالمجتمع والدولة الى ذرى رفيعة من التكامل والكمال .

ان تطبيق مبدأ النقد الذاتي والعمل بموجبه من قبل السلطة يدل على أن السلطة

تتمتع بالاضافة الى الفعل والحكمة بالشجاعة الادبية . والسلطة التي تتمتع بمثل هذه الفضيلة (الشجاعة الادبية) سلطة لها جميع مقومات الزعامة وصفات القيادة الملهمة . فالشجاعة الادبية للسلطة تحمل السلطة أبداً ودوماً على مجابهة الشعب بالحقائق واطلاع الامة على واقع الامور ومجراها **دون ماخداع اوتخدير او تضليل ، وذلك لان شجاعتها الادبية التي استطاعت ان تضع ذاتها مجردة عارية أمام عقلها وضميرها تدفع بها الى وضع الشعب في ذاته امام ذاته بكل مافي واقع ذاته من سيء وحسن .**

ومثل هذه السلطة لايمكن أن تتعامل الا مع الحقائق ، وهي لايمكن أن توجه الشعب الا الى التعامل والحقائق ، وهي لهذا توجه رغائب الشعب الى حقيقة الحقائق لا الاوهام وبذلك تصون في الشعب الكثير من الطاقات وتحافظ على قوى الامة من أن تهدر جرياً وراء الاحلام وتعلقاً باذيال الاوهام . وذلك لان من يفرض الحقيقة في نفسه وعلى نفسه يفرضها في الغير وعلى الغير ، كما وان من يستطيع ان يقهر الشر في نفسه لمستطيع ان يقهر الشر في الغير .

اننا في المرحلة الحالية من مراحل تبلورنا القومي والانساني بمسيس الحاجة الى الشجاعة الادبية . فالشعوب العربية قد عاشت طيلة قرون وهي مفلولة بقيود الاستعمار والاستعباد الاجتماعي ، والنفس العربية طيلة تلك القرون كانت تنو بشوق ولهفة الى هذه الساعات المشرقة التي نعيشها اليوم ، وقد تولدت في النفس العربية نتيجة لذاك الشوق وهذه اللهفة رغائب تتعدى الطموح الى الطمع ، رغائب تجعل من جماهير الامة العربية غير قادرة على التمييز بين الممكن والمستحيل ، وهذه الرغائب اذا لم تكبحها سلطة تتمتع بالشجاعة الادبية فان هذه الرغائب الشعبية الجامحة تهدد المجتمع والدولة بالفوضى والانحلال والخراب . ان طريق السلطة الى كبح مثل هذه الرغائب الضارة يبدأ بكبح السلطة لرغائبها الخاصة ، هذه الرغائب التي ان لم تهذب وتشذب فانها ستنحرف بالسلطة من حيث هي سلطة قامت لتحرير الشعب ، الى حيث هي سلطة تقوم من أجل استعباد الشعب واخضاعه .

ان عمل السلطة بمبدأ النقد الذاتي لايدل فقط على ان هناك سلطة تعي واجباتها، بل انما يدل ايضاً على ان هناك أمة تعرف ماعليها من واجبات ومالها من حقوق ، وتعرف ان جميع مافي المجتمع من مؤسسات وهيئات فهو خاضع لمراقبة الأمة وخاضع لتوجيهاتها وخاضع للالغاء والتبديل والتثبيت ، وبالتالي خاضع للمكافأة والعقاب ، ومثل هذه الامة ذات السلطة الواعية أمة تضرب جذور بقائها في تربة الحياة وتزداد فعالياتها الخيرة وتتحقق رسالتها الحضارية .

٣ ــ العدالة :

ان العدالة لاتتحقق في حال ضمان الدولة للافراد المساواة أمام القانون ، ولا تتحقق ايضاً في حال حصول الافراد على حق الانتخاب ، بل انما تتحقق في حال حصول الانسان على الحق في حياة كريمة سعيدة يكفلها نظام عام يحمي الانسان من الاستغلال والاستعباد المادي والمعنوي ، لذلك فان العدالة مركب يتألف من ثلاثة عناصر هي العدل الاقتصادي والعدل الاجتماعي والعدل السياسي ، ومن اتحاد هذه العناصر الثلاثة تنشأ العدالة الحقيقية الاصيلة .

والعدالة فلسفتان اولاهما الفلسفة المادية والتي تقول بانه يكفي للدولة ان تضمن عدم استغلال الانسان لأخيه الانسان اقتصادياً حتى تتحقق العدالة وتسود في المجتمع . وهذه الفلسفة هي التي تنظم خطوات الشيوعية وتحدد لها مناهج سيرها .

أما الثانية فانما تقول بان العدالة تتحقق في حال ضمان الدولة للافراد المساواة امام القانون ، وفي حال حصول الافراد على حق الانتخاب ، وفي حال اتاحة الحرية للافراد في المجتمع ، حرية النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وتعمل بهذه الفلسفة دول اوروبا الغربية والحركات الاشتراكية في تلك الدول هذه الحركات التي تؤمن بان الطريق الى تحقق العدالة طريق تطوري لاطريق ثوري كما تريده الفلسفة المادية الممثلة بالماركسية كنظام عام .

لذلك ترى الفلسفة الغربية ان بقاء الملكية الخاصة وبقاء الحرية الفردية في توجيه واستثمار الفعاليات الاقتصادية أمران لايتنافيان والعدالة ، بينما ترى الفلسفة المادية

في بقاء الملكية الخاصة وفي الحرية الفردية السببين الاساسين في انتفاء العدالة وعدم امكان تحققها في المجتمع ، وذلك لان ضمان النظام العام وحمايته للحرية الفردية في حقل النشاطات الاقتصادية يؤدي بالتالي الى استثمار الانسان لأخيه الانسان ، او بالاحرى يقود الى استغلال ملاك وسائل الانتاج للعمال والمستهلكين على حد سواء .

مما ورد يتبين ان كلا النظامين من رأسمالي فاشتراكي غربي ، واشتراكي مادي ، يقولان بان هناك استحالة في التوفيق بين الانسان كجسد وروح وباستحالة اقامة توازن بين المطالب المعنوية للانسان ومطالبه المادية ، لذلك تأخذ الرأسمالية والاشتراكيات الغربية على عاتقها تأمين المطالب المعنوية للانسان وتهمل البحث الجذري عن تأمين مطالبه المادية ، بينما تقول الفلسفة المادية باستحالة وجود مطالب معنوية للانسان ، اذ أن مطالبه المادية هي التي تشكل مطالبه المعنوية وان انتفاء تحقق المطالب المادية للانسان يؤدي الى الاستحالة في تحقق مطالبه المعنوية ، وذلك لان مطالب الانسان المعنوية هي الصورة المنعكسة في المجتمع لمطالبه المادية وسبب هذا الأمر كون الانسان مادة ومادة فقط .

هذا عرض موجز لفلسفتي العدالة في العالمين الرأسمالي والشيوعي ، فما هي فلسفتنا كقوميين عرب ، وماهو موقفنا من هاتين الفلسفتين ؟

قلت فيما تقدم ان الواضع الاول لفلسفة القومية العربية هو بطلنا القومي الرسول الاعظم محمد ، وانني لمؤمن بان الفلسفة التي جاء بها الاسلام لاتزال هي الفلسفة الصحيحة للعدالة في كل مفاهيمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وذلك لان هذه الفلسفة نظرت الى الانسان ككائن يتألف من مادة وروح وهي لهذا السبب توخت في كل خطواتها اقامة توازن بين المطالب المادية للانسان ومطالبه الروحية ، ومن يتأمل في القرآن وفي الاحاديث يجد ان الاسلام حاول مخلصاً ان يمنع طغيان المطالب المادية للانسان على مطالبه الروحية والعكس بالعكس فهو (أي الاسلام) يحارب الزهد ويحارب الرهبنة ويحارب التنسك بالقوة ذاتها التي يحارب بها الطمع والاثرة والاستغلال .

لقد قام الاسلام عقب انتشار اليهودية والمسيحية . ورأى الاسلام ان اليهودية تمثل الفكرة المادية وتلتقي بالمادية الرومانية ، وهي ترى ان اليهود هم شعب الله المختار ولهذا السبب فلهم الحق وحدهم بالحياة دون بقية الشعوب الاخرى ، وان الامم الاخرى انما هي أمم خلقها الله لتكون في خدمة الشعب اليهودي ، وبهذا تلتقي اليهودية بالمادية الرومانية ، هـــذه المادية التي تسمي كل شعب غير الشعب الروماني بالبرابرة .

والديانة اليهودية ديانة مغلقة ، أي أنه لايمكن ان يصبح الانسان يهودياً الا عن طريق الولادة فقط .

اما المسيحية فانما تمثل ردة الفعل للمادية اليهودية والمادية الرومانية ، وهي لهذا تحارب التفرقة العنصرية . التميز العنصري وتساوي بين جميع المسيحيين دون النظر الى اللون او العنصر ، غير ان المسيحية تهمل جميع المطالب الماديـــة للانسان وتجعل من الانسان كتلة روحية لا تأكل او تشرب او تتناسل ، لذلك نسمع المسيح يقول في انجيل متى الاصحاح الثالث عشر والعدد ٤٥ و ٤٦ :

« ايضاً يشبه ملكوت السموات انساناً تاجراً يطلب لآلىء حسنة فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ما كان له واشتراها . »

كما ويقول المسيح في الاصحاح الثامن من انجيل مرقس وفي الاعـــداد : ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ و ٣٧ :

« من اراد ان يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني . فان من اراد ان يخلص نفسه يهلكها . ومن يهلك نفسه من اجلي ومن اجل الانجيـل فهو يخلصها . لانه ماذا ينفع الانسان لو ربح العـالم وخسر نفسه . او ماذا يعطي الانسان فداء عن نفسه . »

كما ويقول المسيح في انجيـــل مرقس ايضاً وفي الاصحاح العاشر منه وفي الاعداد : ١٧ — ٢٢ :

« وفيما هو (المسيح) خارج الى الطريق ركض واحد وجثا له ، وسأله: ايها المعلم الصالح ، ماذا اعمل لأرث الحياة الابدية ؟ فقال له يسوع : لماذا تدعوني صالحاً ، ليس احد صالحاً الا واحد وهو الله . انت تعرف الوصايا : لا تزن ! لا تقتل ! لا تسرق ! لا تشهد بالزور ! لا تسلب ! اكرم اباك وامك !

فأجاب وقال له : يا معلم ، هذه كلها حفظتها منذ حداثتي . فنظر اليه يسوع واحبه وقال له يعوزك شيء واحد : **اذهب بع كل مالك واعطه الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني حاملاً الصليب .**

مما ورد يتضح ان الاسلام كنظام ودين جاء ليوفق بين اليهودية والمسيحية ، ولهذا نرى الاسلام في المراحل الاولى ليقظة القومية العربية يولي الانسان روحاً وجسداً قدرين متساويين من الاهتمام والعناية . لقد رأى الاسلام في التحرر المادي للانسان شرطاً اساسياً من شروط تحرره المعنوي ، تحرره فكراً وتحرره وجداناً ، غير انه لم يعتبر التحرر المادي للانسان الهدف النهائي والمولد الحقيقي للعدالة ، بل انما رأى في اتحاد الانسان جسداً وروحاً وفي تفاعل الجسد والروح تفاعلا واعياً هو الوسيلة الى اقامة العدالة في المجتمع .

قد يقول البعض ان الاسلام أتاح في اباحته حق الملكية وفي دعوته البشرية الى الايمان بمبدأ التدرج الطبقي في المجتمع ، حق استغلال الانسان للانسان. غير ان مثل هذا القول ، وان كان صحيحاً في ظاهره ، لكنه خاطيء في جوهره ، فالاسلام هو ثورة على المظالم ، المظالم السياسية والاجتماعية ، وروح الاسلام يحارب الاستبداد والاستغلال والطبقية ، اما التدرج الطبقي الذي يخاله ذو النظرة السطحية كامناً في الاسلام ، فانما هذا التدرج يتوخى تقرير التفاوت في المواهب بين الافراد ، ولهذا فالاسلام لايرى في هذا التفاوت في المواهب المبرر الذي يخول الدولة في اقامة تفاوت في مستويات معيشة الطبقات في المجتمع. ونحن كعرب قوميين نستطيع ان ننطلق حين اقامة نظامنا العام للدولة من نقطة اساسية تعتبر بمثابة الروح الحقيقية للاسلام ، واعني بهذه النقطة نقطة اقامة

التوازن بين مطالب الانسان المادية ومطالبه المعنوية . ونستطيع في حالة تعمقنا في دراسة القرآن والاحاديث والتاريخ الاسلامي ان نستمد المقومات الاساسية لهذا النظام الذي نريده عادلاً كريماً .

ولا بد لي ان اشير هنا الى حقيقة مؤلمة وهي ان المسلمين منذ وفاة العالمين الكبيرين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده لم يقم بينهم من نخبة مثقفة تدرس الاسلام على اضواء العلم في العصر الحديث . اما الحركات السياسية ذات الطابع الاسلامي كجمعيتي الاخوان المسلمين والشبان المسلمين فان ضحالة ثقافة القائمين على امر هاتين الجمعيتين حالت دون قيام فئة واعية بين اعضاء الحركات الاسلامية تعتمد روح الاسلام الحية في تخطيط نظام اجتماعي متكامل .

انني لاانكر المجهودات المشكورة التي قدمها سيد قطب ، غير ان اجتهادات السيد سيد قطب كانت تتسم بالطابع النظري اكثر من اتسامها بالطابع العملي .

١ — العدل الاقتصادي :

قلنا ان الانسان جسد وروح ، جسد يبقي الروح فاعلة في المجتمع ، وروح يوجه الجسد في ميادين النشاط العام لتدعيم أسس المجتمع وتوطيد بنيانه ، بغية تجسيد الحرية الحقيقية في الدولة والمجتمع .

ان خلق الفرد الحر ضميراً والحر عقلا والحر وجودا ، غير قابل التحقيق في حالة اقترافنا الخطأ الفظيع الذي اقترفته الرأسمالية في المجتمعات الاوروبية ، هذا الخطأ الممثل بوضع الانسان في خدمة رأس المال وفي خدمة طبقة معينة تملك رأس المال . ان الرأسمالية عندما تأخذ بهذه العقيدة وتعمل بها فانما تقلب مفاهيم حقائق الوجود الانساني اذ ترى في الانسان وفي استغلاله واستثماره بغية تنمية رأس المال . السبب الرئيسي لوجود الانسان أعاملاً كان أم فلاحاً . **لذلك ترى الرأسمالية في تنمة رأس المال ، لا في توفير حياة سعيدة للفرد ، الهدف النهائي لكل نشاط اجتماعي .**

ان الرأسمالية تمثل وبحق « الأنا » المذعورة « الأنا القلقة » « الأنا » الخائفة من غدها ، انها « الأنا » المغلقة لفئة من الناس يملكون وسائل الانتاج ويديرونها وهم فاقدو الايمان بابسط صفات الانسان ، صفته الاجتماعية ، هذه الصفة التي تلزمه اجتماعيا بالتعاون والتكافل والتعاضد وغيره من ابناء قومه وابناء الانسانية وذلك بوصفه فردا يعيش في مجتمع قومي وفي مجتمع انساني ، ويرى ان اسباب وجوده مرتبطة باسباب وجود غيره ، وان حفظ بقائه مرتبط بتدعيم بقاء الغير .

اذن فالرأسمالية تمثل « الأنا » المنحرفة ، « الأنا » التي تضرب اول الصفات الاجتماعية في الانسان ، واعني بهذه الصفة التعاون الذي يشكل القانون الطبيعي لكل مجتمع صالح ، ولهذا فان النظام الرأسمالي يهدم المجتمع لانه يهدم اول مقومات الانسان بوصفه كائناً اجتماعياً تفرض عليه طبيعته الاجتماع ، لذلك كانت الرأسمالية مجردة من ابسط الصفات الانسانية ، وهي لهذا تتنافى والانسانية في كل قواعدها وعقائدها وتقاليدها ، لانها تنفي الصفة الاجتماعية للانسان وتنكر عليه انه كائن اجتماعي وبذلك تجرده من ابسط حقوقه الانسانية ، حقه في ان يتعاون وغيره على تأمين اسباب بقائه وتدعيم معاني الكرامة الانسانية في نفسه ونفس الغير .

ان الرأسمالية هي الطريق الى الدولة الطبقية ، ونحن كقوميين عرب نحاول في هذه المرحلة ان نجسد نظاما يضمن لنا العدالة والحرية ، يتوجب علينا كما قلت في موضع آخر من هذا الكتاب ان ننظر الى ملاك وسائل الانتاج نظرة المراقب الحذر .

اننا نؤمن برأس المال ، ونؤمن به كعنصر جوهري في كل فعل اقتصادي ، غير اننا نؤمن ايضاً بان العمل هو الينبوع الوحيد لرأس المال ، وهو الذي يضاعف رأس المال ويزيد فعالياته ، كما وانه ، اي العمل ، هو الذي يفسح لرأس المال الطريق الى التكاثر والتناسل .

لذلك فان ابسط بديهيات العدالة تفرض علينا ان نوجه رأس المال نحو تحقيق

صالح صاحب العمل لاصاحب رأس المال ، كما وعلينا ان نحارب كل محاولة ترمي الى فرض سلطان الرأسماليين على الدولة .

اننا في هذه المرحلة من مراحل تطورنا الاقتصادي والاجتماعي لمستعدون أن نضع جميع مافي الدولة من أجهزة وامكانات في خدمة رأس المال وذلك بعد تجريد رأس المال من الصفات الشخصية . كما وأننا نرى ان حق رأس المال في هذه المرحلة وفي مراحل أخرى تليها ، أقول ، ان من حق رأس المال أن يستأثر بالجزء الاوفر من الارباح ان لم يكن بكل الارباح ، وعلى العمال العرب ان يعرفوا ان ليس أمامهم في هذه المرحلة وفي مراحل اخرى سوى البذل عملاً والتضحية جهوداً في سبيل انماء رأس المال لا انماء ثراء الرأسماليين .

ان رأس المال العامل في العالم العربي لايزال في كل مؤسساته ضعيفا وذا فعاليات محدودة ولهذا السبب لانستطيع في هذه المرحلة أن نسمح للعمال بالمطالبة بالعدل الاجتماعي وبالمطالبة باعادة مواريد رأس المال أجوراً لهم ، اننا في حالة سماحنا للعمال بالاستيلاء على ارباح رأس المال ، نتنكر لابسط قواعد الانماء الاقتصادي .

ان رأس المال في العالم العربي اليوم هو شبيه بغرسة في أيامها الاولى وعلى العمال في العالم العربي أن يتذرعوا بالصبر وأن يتعهدوا هذه الغرسة بالعناية والعمل حتى تنمو وتصبح شجرة تتألف بالثمار الناضجة التي هي من حق العمال والفئات الاخرى من المجتمع .

لذلك يتوجب على العمال في العالم العربي ، في هذه المرحلة وفي مراحل أخرى تليها ، ألا يتساءلون أبدا عما كسبوه بل عما انتجوه ، فالمعركة الحالية التي نخوضها اليوم هي معركة انتاج لامعركة توزيع ، انها معركة عمل ، وقد يبلغ هذا العمل مرتبة السخرة . على هذه الحقيقة يتوجب على العمال العرب تعويد أنفسهم .

كما وان على العمال العرب أن يؤمنوا ايمانا عميقاً بان الثوريين العرب في البلدان

العربية المتحررة ، لن يسمحوا ابداً لملاك وسائل الانتاج بسرقة مجهوداتهم واتعابهم ، بل انهم سيوظفون هذه الاتعاب والمجهودات في رأس المال وذلك بغية توفير امكانات ومقومات العدل الاجتماعي .

كما وانه يتوجب على العمال العرب في هذه المرحلة وفي مراحل أخرى تليها أن ينسوا ان ليس لهم من حق سوى حق العمل وحق العمل وحده ، وان الدولة ملزمة بتأمين هذا الحق لهم . عند حق العمل تنتهي في المرحلة الحالية وفي مراحل مقبلة كل حقوق العمال . فلقبول هذه الحقيقة يجب ان يعد العمال أنفسهم ، فنحن نمر في فترات بناء ، وفي فترات البناء يركز الجميع جهودهم على انجاز البناء ، لاعلى الصراع على اقتسام بناء لم يقم بعد .

لذلك فالقوميون العرب يأخذون على انفسهم حماية العمال من كل حركة سياسية تهدف الى خداع العمال والتغرير بهم عن طريق اقناعهم بانه في رفع هيئة معينة او حزب معين الى الحكم الحل الفوري لمشاكلهم . كما ويأخذ القوميون العرب على عاتقهم حماية العمال من الاستغلال ويضمنون للعمال نتاج مجهوداتهم من أن تستغل لحساب فئة او طبقة معينة من المجتمع ، كما ويتعهدون أن تستهدف قوانين العمل في المرحلة الحالية ومراحل أخرى تعقبها لتنظيم علاقات العمال بارباب العمل على أساس التعاون الصادق المخلص والمستهدف انماء رأس المال لا انماء أرباح الرأسماليين ، فنحن كما قلت في موضع آخر من كتابي هذا نمر بمرحلة الرأسمالية ، واعني بالرأسمالية ، رأسمالية الدولة ، لا الرأسمالية الفردية .

ان مثلنا في هذه المرحلة وفي مراحل مقبلة كمثل عائلة لها من الدخل الشهري مبلغ يوازي مئة ليرة سورية ، ولدى رب العائلة مبلغ متوفر من المال يعادل خمسة آلاف ليرة سورية ، أن الحكمة تفرض عندئذ على رب العائلة أن يوظف هذا المبلغ من المال في مشروع ينمي ويزيد في الدخل الشهري لعائلته ، لا أن يستمع الى صياح ابنائه وزعيقهم وصخبهم وضجيجهم فينفق عليهم من رأس المال المتوفر لديه .

ان توفر امكانات العدل الاجتماعي لايتحقق نتيجة للنظريات الفلسفية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل انما تتوفر هذه الامكانات في مجتمع يؤمن ابناؤه بالبذل والتضحية . فالنظريات السياسية من اشتراكية وشيوعية ليست « بمصباح علاء الدين » يكفي للمرء أن يفركه حتى يحضر العفريت فيحقق له رغائبه ويجسد له أمانيه ، أن الطريق الى العدل الاجتماعي طريق ينيره مصباح زيته العرق وشعاعه الانفاس اللاهثة واناؤه الاجساد المكدودة .

لقد جاءت الشيوعية الى الاتحاد السوفياتي فسحقت الاقطاع ودمرت الطبقة البرجوازية ونسفت جميع الاسس والهيئات والاجهزة الاقتصادية التي كانت قائمة في العهد القيصري ، واخيراً وصلت في اجراءاتها الى الغاء الملكية الخاصة في كل اشكالها ، غير أن القائمين على النظام الشيوعي لم يروا ان مهمتهم قد انتهت عند هذا الحد ، بل انهم على العكس من ذلك تماماً ، لقد رأوا ان مهماتهم الاساسية قد بدأت وان عملهم السابق الممثل بهدم مؤسسات النظام القيصري هو بمثابة عمل تمهيدي لعملهم الاساسي المستهدف تحقيق قيام المجتمع الشيوعي ، لهـــذا السبب توجهت السلطات الشيوعية في الاتحاد السوفياتي بالعمال نحو انماء رأس المال ولم تسمح للعمال ابداً بالمطالبة بتحويل الارباح الى اجور ، بل انما أعادت الارباح الى رأس المال ضاربة بذلك عرض الحائط بابسط قواعد الاخلاقية الماركسية ، هذه الاخلاقية التي تقـول بان الارباح هي حق مكتسب للعمال ، فهل أخطأ لينين وهل تنكر ستالين لمبادىء ماركس وعقائد انجلز ؟ انهما لم يتنكرا لماركس ولم يشذا عن انجلز غير انهما وجداً ان هناك قوانين حديدية تفرض على المرء أن ينكر ويتنكر لقواعد العدل والعدالة مدة من الزمن بغية تجسيد العدالة مادة وروحاً . لهذا عمدت السلطات السوفياتية الى مصادرة العمال واستغلال مجهوداتهم والعمل بنظام قاس من السخرة بغية انماء الاقتصاد السوفياتي وزيادة امكانات تطبيق العدل الاجتماعي .

وكلنا يذكر الخلاف الشديد بين خروشوف وبين مالنكوف ، هذا الخلاف

الذي طوح بمالنكوف من ارفع منصب في الاتحاد السوفياتي ، منصب رئيس الوزراء ، الى منصب مدير لمؤسسة كهربائية . لقد كان الخلاف بين القطبين الشيوعيين يدور حول أفضلية رأس المال في الارباح وافضلية العمل والعمال . لقد رأى مالنكوف أنه قد آن الاوان في الاتحاد السوفياتي كي يوجه الاقتصاد السوفياتي نحو انتاج البضائع المستهلكة بغية تأمين مستوى ارفع من المعيشة للعامل والفلاح ، غير ان خروشوف رأى أن انقسام العالم الى معسكرين واحتمال نشوب حرب بين الاتحاد السوفياتي والمعسكر الغربي يفرض على الاتحـــاد السوفياتي اهمال معظم الاحتياجات اليومية للفرد السوفياتي لاستعمال الارباح في تطوير الصناعة الثقيلة .

بهذه الروح ، روح اعادة الارباح الى رأس المال ، قفز الاتحاد السوفياتي الى مرتبة الدولة العظمى وتحولت البلدان السوفياتية من حيث هي بلدان زراعية الى صيرورتها بلدان زراعية صناعية .

لقد مضى على الاتحاد السوفياتي ماينوف على خمسين عاما وهو ينهج هذا النهج ويسلك فلاحوه وعماله هذا السبيل ، ولذلك فعلى العمال العرب اذا أرادوا حقا ان يدفعوا بالدولة العربية الاتحادية الى مراتب الدول العظمى ان يعتمدوا البذل والتضحية في كل عمل يأتونه وفي كل أمر يقومون به وان يضعوا نصب اعينهم هدفاً واحداً ووحيداً يتمثل بزيادة قوى رأس المال العامل في العالم العربي .

هذا فيما يتعلق بالعمال ، أما فيما يتعلق بارباب العمل وملاك وسائل الانتاج فانني اريد ان اقول لهم بانه من الخطأ لابل من الغباء ان يرى هؤلاء في الثورة القومية التي تخوض غمارها اليوم جماهير الأمة العربية خطراً على مشروعاتهم ومؤسساتهم الاقتصادية . فنحن معشر القوميين العرب نؤمن بان ثورتنا تجد في التنظيم الرأسمالي عقب خروج المجتمع من النظام الاقطاعي الكثير من الصفات التي تنطبق تماماً على قانون التوافق الضروري بين علاقات الانتاج .

ان الهدف الاساسي لثورة القومية العربية هو كما قلت آنفاً يتركز على انماء

رأس المال القومي والارتفاع بالقوى المنتجة في المجتمع الى درجة الكمال ، وذلك كي نتمكن من تحقيق العدالة الاجتماعية في التوزيع وفي كل تنويعات وأنواع التوزيع ، هذه الانواع التي تحددها احتياجات الفرد المادية والفكرية والذوقية ،

لذا فان أي نشاط اقتصادي مهما كان لونه ، ومهما كان النظام الذي يسير وفقه في مختلف دورات فعالياته ، فانه في حالة انسجامه والهدف الاساسي لثورة القومية العربية ، هذا الهدف الممثل بانماء رأس المال ، فعندئذ يتصف مثل هذا النشاط بكل الصفات الثورية ويتحلى بكل مزاياها . لذلك يستطيع ملاك وسائل الانتاج الاطمئنان على مشروعاتهم اذا حافظوا على الصفات الاجتماعية لهذه المشروعات ، واذا استطاعوا ادارتها لحساب المجتمع لاحسابهم الخاص .

اننا لن نلجأ الى التأميم الا في حالات الضرورة القصوى ، وذلك رغبة منا في خلق وتجسيد المبادرة وروح المغامرة في الفرد العربي ، وتطوير الناحية الاقتصادية في الاخلاقية العربية ، وجعلها اكثر اندفاعاً واكثر جرأة واشد فعالية في الميدان الاقتصادي ، فالنفس العربية لاتزال حتى الآن منكمشة ، وخوفها من الخسائر يفوت عليها الكثير من الارباح ، وهذا العامل ، عامل الخوف ، يلزم الدولة بتشجيع النفس العربية على الانطلاق في الميدان الاقتصادي وتحريرها من اغلال الخوف ، والطريق الى تحقيق هذا الغاية هو ضمان الدولة للملكية الخاصة طالما ان مفهوم هذه الملكية يحفظ للمؤسسات والمشروعات صفاتها الاجتماعية .

ان عملنا وفق هذا المبدأ ، مبدأ تنشيط المجهودات الفردية يعود أولا واخيراً الى العبر التي شاهدناها في التجربة السوفياتية في الاتحاد السوفياتي . لقد ادت المركزية المغلقة لادارة الاقتصاد السوفياتي الى اهدار الكثير من المجهودات ولقد ادرك خروشوف اخيراً الاضرار الناجمة عن مثل هذه المركزية المطلقة في الادارة لذلك عمد الى وضع منهاج جديد يقوم على اساس اللامركزية الواسعة في الادارة للاقتصاد السوفياتي ، وهذا المشروع في حالة تنفيذه سيجعل من

الكثير من المؤسسات الاقتصادية السوفياتية مؤسسات ذات صفات خاصة تجعلها تلتقي في كيانها كمؤسسة عامة تملكها الدولة بالمؤسسة الخاصة المملوكة من قبل الافراد

اننا لن نحارب مبدأ حق التملك ، وذلك لايماننا بان هذا المبدأ ينمو ويعيش في مجتمع محروم من نظام متكامل ، نظام يكفل الموء من المهد الى اللحد اننا نؤمن بان حب التملك نشأ في النفس البشرية نتيجة لقيام انظمة اجتماعية فاسدة اعتمدت الخوف ، خوف الانسان من غده الرباط الذي يشد البيئات بعضها الى بعض والطبقات الواحدة الى الاخرى والمجتمع الى الحكومة. لذلك نرى ان حب التملك والملكية الخاصة يزولان تلقائيا حالما نستطيع ان نجسد في الوطن العربي نظاماً يوحي الى الانسان الثقة والاطمئنان الى غده ، ويحل التعاون محل الخوف كرابط للفرد بالجماعة والجماعة بالمجتمع والمجتمع بالحكومة .

اننا في هذه المرحلة ، مرحلة التأسيس ، مرحلة ارساء قواعد مجتمع جديد ، يتوجب علينا ان نتعظ بالعبر التي شاهدناها في تطور المجتمعات الاوروبية ، لذلك يتوجب علينا ان ندرس بروية وامعان وتأمل الخطوات والاحداث التي مرت بالامم الاوروبية في تطورها الاجتماعي والسياسي ، فدراستنا لظروف تلك الامم ومقابلة تلك الظروف بظروفنا ومن ثم استنتاج انجع الوسائل والاساليب التي تجنبنا الانتكاسات والهزات التي وقعت في المجتمعات الاوروبية اثناء تطورها التاريخي ، كل هذه الامور مع مراجعتنا لماضينا الحضاري هو سبيلنا الى تخطيط النظام الجديد وفرض هذا النظام على المجتمع العربي في الدولة الاتحادية العربية الشاملة .

تحدثت فيما تقدم عن العمل والعمال ورأس المال ، والاقتصاد العربي كما لاشك يدرك القاريء الكريم يستند في بنيانه الى الزراعة ، وذلك لان الزراعة لاتزال في كل البلدان العربية هي المورد الاساسي والهام للدخل الفرد وللدخل القومي .

ان في البلاد العربية امكانات زراعية ضخمة باستثناء الاقليم المصري ، غير ان الشعوب العربية لاتزال تستغل هذه الامكانات على صورة بدائية وبوسائل بدائية ، كما أن توزيع السكان في العالم العربي لايزال حتى اليوم توزيعاً بدائياً غارقاً في البدائية . فسكان العالم العربي يجتمعون اليوم ويعيشون كما اجتمعوا وعاشوا منذ قرون طويلة أي حول الانهر ومنابع المياه وقد نشأ عن هذه الحقيقة توزيع سيء للسكان ، فبينما نحن نرى انتاج سهول الجزيرة في الاقليم السوري يشكل مايزيد على الخمسين بالمئة من الدخل القومي في سورية ، نرى ان ستة اشخاص يعيشون على الكيلو متر المربع الواحد ، بينما يعيش ٧٧ شخصا على الكيلو متر المربع الواحد في محافظة اللاذقية ذات الدخل المتدني المحدود . وقس على ذلك في بقية الاقاليم العربية باستثناء مصر .

وهذا الواقع المؤلم أدى الى انعدام التوازن بين قطاعات كل اقليم من الاقاليم العربية ومن ثم انعدام التوازن بين الاقاليم نفسها .

لذلك يتوجب على الدولة العربية الاتحادية ان تبادر الى اعادة توزيع السكان توزيعاً يتفق والمقومات الاقتصادية في كل قطاع من كل اقليم ومن ثم بغية توزيع السكان بين الاقاليم وفقاً لمقوماتها الاقتصادية .

فمصر مثلاً لاتستطيع ان تحل مشكلة السكان الاعن طريق تهجير نصف سكانها الى سورية والعراق والاردن والسعودية .

واقامة التوازن بين القطاعات اولا وبين الاقاليم ثانياً يفرض علينا ان نعيد النظر في الملكيات الزراعية في كل البلاد العربية . ففي سورية مثلا هناك عدد من كبار الملاك تتجاوز مساحة الارض التي يملكها الواحد منهم نصف المليون دونم بعل واربعين « سقى » ومثل هذه الملكية غير عادلة اذ ان لها انعكاسات اجتماعية سامة وضارة وذلك لانها تنمي الشعور بالتبعية والاخضاع في الفلاح العربي المأجور لهذا يتوجب علينا تفتيت مثل هذه الملكيات الواسعة وتوزيع بعضها على الفلاحين .

ننى اعرف ان الزراعة في سورية وخاصة زراعة الارض البعل في الجزيرة تستوجب العمل بوسائل الزراعة الواسعة ، أي تستوجب الرساميل الضخمة في تمويلها بغية اجتناء الارباح ، غير ان هذه الحقيقة لاتحول أبداً دون انشاء المزارع ذات الملكية الجماعية ، حيث يمتلك أهل كل قرية قطعة كبيرة من الارض وحيث تكون ملكية هذه الارض مشاعة بينهم يقومون باستغلالها واستثمارهـــا لحسابهم جميعاً ، ولنا في المستعمرات اليهودية ذات الملكية الجماعية في فلسطيننا المحتلة خير قدوة وخير مثال .

اما في العراق فان مخالب الاقطاع وانياب النظام الاقطاعي تعمل في جسد الشعب العربي في هذا الاقليم العربي الحبيب نهشاً وتمزيقاً . لقد ادى استقرار العشائر العربية وتوطنهم في العراق الى قيام شيوخ هذه العشائر ورؤوسائها بتملك الاراضي الزراعية الواسعة وحرمان افراد عشائرهم من تملك الارض ، ولهذا السبب تعيش العشائر العربيـة في الاقليم العراقي عبيداً للأرض يستغل الشيخ الذي هو مالك الارض اتعاب عشيرته وجهودها ، ويعيش الفلاح العراقي اليوم عيشة كلها بؤس ومرض وجهالة . وحباً في المحافظـــة على ملكياتهم الواسعة اقدم شيوخ القبائل ورؤساؤها على تدعيم الروح القبلية الضيقة وعلى استعمال هـذه الروح في تدعيم سلطانهم السياسي ، كما وان كبار الملاك في العراق ورغبـة منهم في الحفاظ على ملكياتهم الواسعة يرتمون اليوم في احضان الاستعمار ليذلهم ويذل شعبهم بغيـة الابقاء على اذلال كبار الملاك للشعب العراقي واستثمار جماهيره .

لهذا يتوجب على الثوريين العرب في الاقليم العراقي ان يهيئوا للثورة اسبابها في العراق ، اقول الثورة لا الانقلاب ، فالعراق كمصر تماماً بحاجة الى ثورة ، وثورة بكل ماللثورة من مفهوم ومعنى للتمهيد لاقامـة نظام شعبي جوهراً وطابعاً ، نظام يضرب الروح القبلية ويعيد للعشائر العربيـــة نفسها وروحها الحقيقيين ، هذه النفس التي تأبى الاستعباد وترفض العبودية .

لقد ادرك القائمون على الامر في العراق ان الريف العراقي لايمكن ان يبقى

على حاله هذه ، لذلك تقوم اليوم السلطات العراقية بمشاريع ضخمة يشرف عليها مايعرف بمجلس الانماء الاقتصادي بغية احياء الاراضي الموات وتوسيع الرقعة المنزرعة من الاقليم العراقي ، غير انه من المؤسف ان معظم الاراضي التي تم احياؤها وضع كبار الملاك ايديهم عليها وتابعوا استغلال جماهير الفلاحين العرب في الاقليم العراقي .

ان هدف القومية العربية هو كما قلت آنفاً خلق الفرد العربي المتحرر عقلا والمتحرر ضميراً والمتحرر وجداناً ، ومع ايماني العميق بان هذا الهدف لايتنافى ابداً ومبدأ حق التملك ، غير انه من المحزن ان اقرر هنا ان النظام الاقطاعي العراقي القائم اليوم ، ورفض كبار الملاك في العراق الاعتراف بالوعي الثوري الذي يجتاح الامـــة العربية ، سيفرض على الثوريين العرب الايمان العميق بانه لامندوحة من قيام ثورة كاملة شاملة في هذا الاقليم العربي لاقتلاع النظام القائم حاليا في العراق وتدمـــيره ونسف كل مشتقاته ، لان الجمود والبلادة والبلاهة والخيانة التي تسيطر على منطق سلطات العراق قد اماتتهم عقلا ووجدانا ، وجعلت منهم عقبـــة كؤوداً في طريق القومية العربية الى خلق الفرد العربي المتحرر عقلا وضميراً .

فلا طريق للقوميين العرب في الاقليم العراقي الا الثورة ، الثورة الكاسحة المدمرة لنظام رجعي جائر ، نظام يستعبد الروح العربية ويعطل فعالياتها ويحارب كل اتجاهاتها الانسانية ، وفق هذا المبدأ يتوجب على القوميين العرب ان يعملوا في العراق ومن اجل تحقيق هذه الغاية على القوميين العرب في العراق ان يحاربوا ويستشهدوا . ان النصر آت لاريب فيه والويل لمن تاتي عن طريقه العثرات فليعمل القوميون العرب في الاقليم العراقي وليحاربوا المظالم بشجاعة واقدام فنحن معشر أخوانهم في سورية ومصر ننتظر نتائج اعمالهم لنرحب بهم في الدولة العربية المتحدة أحباباً لنا واشقاء .

انني اذ اتوسع في بحث حالة الفلاح في العراق واحوال الاقليم العراقي ، فانما اقوم بهذا العمل لقناعتي بانه اذا تمكنت الجماهير العربيـــة من استغلال طاقات العراق الضخمة وتوجيه امكاناته في وضعها في خدمة الامة العربية فاننا سنحل عندئذ الكثير من مشاكلنا الاقتصادية والاجتماعيـــة وسنرتفع بالدخل القومي وبالمستوى المعاشي للفرد العربي . ان في دخول العراق ، كبلد متحرر ، الدولة العربية الاتحادية الشاملة الطريق الى تحقيق غاياتنا القومية واكتساب اسباب المنعة اقتصاديا وسياسيا .

وقبل ان انهي بحث موضوع العدل الاقتصادي يفرض علي واجبي كعربي وواجبي كانسان ان اتطرق الى بحث موضوع التشتت الاقتصادي المخجل الذي يسود اليوم العالم العربي .

لقد تعمد الاستعمار ان يشتت امكاناتنا الاقتصادية ، وتعمد الاستعمار ايضاً ان يخطط الحدود بين الاقاليم العربية ، وان يوجه الاقتصادات العربية في كل اقليم من هذه الاقاليم وجهة تبقي على التشتت الاقتصادي بين الاقاليم العربية ، وتمنع عنهـــا كل اسباب المنعة والقوة . ومن المؤسف لا بل من المخجل ان السلطات التي قامت بعد جلاء الجيوش الاستعمارية عن البلاد العربية أبقت على هذا التشتت وسارت في كل خطواتها وفق المنهاج الذي رسمه الاستعمار لابقاء العرب امة موزعة الكلمة ضعيفة مستضعفة الشأن .

انني في كتابي هـــذا اريد ان اتوجه الى السلطات ذات الانظمة المتباينة سياسة واقتصاداً واجتماعاً في كل اقليم عربي ، لاقول لها ان الوحدة العربية آتية لا ريب فيها ، وان قيام الدولة العربيـة المتحدة الشاملة الممتدة من الاطلسي الى الخليج العربي قدر محتوم وان التاريخ يندفع في كل خطوة من خطواته الى الامام ، لذلك فعلى الحكام العرب في جميع اقطارهم ان يتقوا الله في شعوبهم وفي الامة العربية ، وطريقهم الى تقوى الله تكون في انتفاء اسبـاب التشتت الاقتصادي وفي قيـــام اقتصاد عربي منسجم متكامل وفي ايجاد سوق عربية

مشتركة وموحدة . ان الحكام العرب اذا اقدموا على العمل بهـــذه النصيحة المخلصة فانهم لن يعرضوا نفوذهم للضعف او التلاشي والانحلال . فدول اوروبا الغربية لها اقتصاد موحد وسوق مشتركة موحدة ، ومع هذا ، بقيت كل دولة من هذه الدول محتفظة بسيادتها ومحافظة على استقلالها ولم تتأثر انظمتها السياسية بهذا العمل المشترك .

ان الحكام العرب في كل الاقاليم العربية اذا اهتدوا وعملوا بهذه النصيحة فانهم سيوفرون مستقبلا على جماهير الامة العربية كثيراً من الجهد والمشقة لرفع المستوى المعاشي للفرد العربي ولاشاعة العدالة في المجتمع .

وعلى الحكام العرب ان يؤمنوا ويقتنعوا بان بقاء التشتت الاقتصادي على حاله اليوم لا يفيد، ولن يشكل عقبة تمنع القومية العربية من الوصول بالامة العربية الى الدولة العربية الاتحادية الشاملة . فالقومية العربيـة هي اليوم نداء الضمير ونداء العقل الواعي والوجدان الحي في الامة العربية . وان الامة حينما يصدح مثل هذا النداء ويدوي في آذانها فعندئذ تتخطى الامة جميع الحواجز الى اهدافها غير عابئة بما يلحق الافراد من خسائر اقتصادية او سياسية . والامة حينما تستجيب الى مثل هذا النداء فانها تستجيب الى صوت الله الكامن في نفسها .

اننا سنحقق الدولة العربية الاتحادية الشاملة ، فالزمن الذي كانت فيـه الأمة تعيش وتحيا وتكوس وجودها من اجل نظام جائر مستبد مستعبد قد انتهى وولى ، وأصبحت اليوم الانظمة هي التي تعيش من أجل خير الامـــة وتوجد من اجل صالحها ، بهذا الايمان نسير ومن اجل هذه العقيدة نحيا .

٢ ــ ٣ ــ العدل الاجتماعي والعدل السياسي :

ان العدل الاقتصادي يوفر للانسان اسباب العيش ، غير أنه لا يوفر له كل اسباب الحياة ، الحياة كانسان ، والحياة كفرد ، والحياة كمواطن في دولة ترى في الانسان اشرف المخلوقات وانبلها .

لذلك فان المواطن الحر في الدولة الحرة ليس ذاك الذي تنتهي حقوقه عند تعهد الدولة وكفالها لامور طعامه ولباسه وسكنه ، بل انما ذاك الذي تتعدى حقوقه الاساسية هذه الاشياء الى لمشاركة الفعلية في ادارة الدولة وتوجيه مجتمعها وفرض ارادته على حكامها في تحقيق حياة حرة كريمه وسعيدة .

لقـــد قدمت البشرية ملايين القرابين والضحايا حتى تمكنت من ان تحفر باحرف من نار على اذهان الحكام من اباطرة وملوك ورؤساء جمهوريات الحقيقة القائلة بان الانظمة تقوم وتوجد ، تتبدل أو تتوطد ، تدعم او تدمر من أجل غرض واحد ووحيد يتمثل في خدمة الانسان ورعاية صالحه ، وان كل نظ ام لا ينبثق عن الارادة الحرة للانسان **هو نظام لا يقوم على امره حاكم بل طاغية ،** فلقد انقضى الزمن الذي كان فيه الحاكم يرى في الشعب جزءاً منه ، وأصبحنا نعيش في عصر غدت فيه السلطة جزءاً صغيراً من الشعب .

لقد خاضت الانسانية محيطات من الدم والعرق ، وتسلقت جبالاً شاهقة من جماجم ابنائها وعظامهم حتى ارتفعت بالشعب فوق جـــلال الاباطرة والملوك والرؤساء ، وجعلت وجود هؤلاء كلهم ووجود الانظمة الـــتي يشرفون على تنفيذها ، مشروطين برضاء الامة وارادتها ، لذلك لم تعـد الامم اليوم تأكل الفتات المتساقط من على موائد الحكام ، بل اصبحت الامم تتصدر الموائد وتدعو اليها من ترى فيه صلاحها من ابنائها حاكماً او رئيساً .

لقد دفعت الانسانية بالقافلة تلو القافلة من الانبياء والفلاسفة والعلماء والمفكرين والشعراء الى السيف ، الى الصليب ، الى المشنقة ، الى المقصلة ، الى الرصاص وحتى الى الخازوق ، حتى تمكنت من ان تجعل الحاكم مسؤولاً أمام الشعب ، لا الشعب ، في جماهيره ، مسؤولاً عن تأمـين اسباب البذخ والترف والتسلط للحاكم .

عقب هذا المخاض الاليم العسير الطويل العضوض النهـاش ، الممزق لاحشاء الانسانية ، ولدت الديمقراطية لتقرر ان رأس المواطن ليس دون رأس الحاكم ،

وان كرامة الحاكم هي فرع من كرامة المواطن وان حق الشعب فوق حق السلطة وان الامة هي مصدر السلطات ، وان الانسان في المجتمع والدولة هو منهما الروح والجسد ، وان الامة هي الفكر والارادة ، وان كل سلطة او نظام لا يعكس ارادة الشعب بامانة واخلاص مصيرها ومصيره الى السقوط والزوال.

الى هذه النتائج الرائعة ، والى هذه الحقائق الانسانية وصلت البشرية بالامم عقب مرير صراع وجهاد قاس وخسائر فادحة وتضحيات بالغة ، وعلى هذه القواعد والاسس اقامت الانسانية اخلاقية السلطة والنظام الاخلاقي للمجتمع والدولة ، لذلك فان اعتبار السلطة ان حقوق الانسان تنتهي كما قلت في بداية بحثي عند كفالة السلطة لامور طعام الانسان ولباسه وسكنه هو كفر بجهاد الانسانية وتنكر بالغ لمثلها وانكار لجهود الشهداء من ابناء البشرية .

لذلك أخذ القوميون العرب على انفسهم ان تقوم كل سلطة لاعلى رضاء معدة المواطن واشباعها فحسب ، بل ايضاً على قناعة المواطن ورضائه الصميمين فكرا ووجدانا .

لهذا يتوجب على الثوريين العرب الاصلاء في حالة تسلمهم للسلطة أن يدفعوا بالانسان المواطن لا الى ممارسة وجوده المادي أكلاً ولباساً وتناسلاً فقط بل الى ممارسة وجوده الروحي بناء وتدعيماً لاركان المجتمع الحر والدولة الحرة بغية تجسيد الوجود الحر للأمة الحرة .

وهذا الامر لا يتحقق الا اذا استطاعت الدولة الثورية ان تعتمد الديمقراطية والنظام الديمقراطي الدستور الذي ينظم علاقاتها بالمواطن والجماعة والمجتمع ، وان تجعل المبدأ الاخلاقي الذي تسير وفقه رضاء المواطن وقناعته . وسبيل الدولة الثورية الى تحقيق هذه الغاية هو انماء القدرة في نفس المواطن على التمييز بين ما هو ضار وما هو نافع ، وما هو خير وما هو شر ، وسبيل الدولة الى تحقيق هذا الهدف ايضاً هو المناقشة ومن ثم استثارة حماس المواطن ليمارس قناعته عملا سياسياً ممثلا بحقه في تقرير شكل السلطة عن طريق الانتخاب العام .

قد يقول قائل ان معظم بلدان العالم ان لم يكن كلها تتخذ من الانتخاب العام أساساً للانظمة السياسية التي ينبثق عنها مانشاهده اليوم من سلطات وحكومة وانظمة ، غير اننا اذا تعمقنا في قوانين الانتخابات المعمول بها في البلدان المتخلفة ديمقراطياً ، ودرسنا الاعمال التمهيدية التي تسبق الانتخابات ، نرى ان الناخب عندما يمارس حقه لايمارسه حراً عقلاً وضميراً ، بل انما يساق مادياً ـ أقول مادياً ـ الى صناديق الاقتراع ، ليقترع لاوفق مايريد ، بل وفق مايراد له . وبهذا لاتنمي السلطة في الناخب القدرة على التمييز ، بل انما تشل في نفسه هذه القدرة ، وبهذا تستأصل الدولة ، أو بالأحرى تعطل في المواطن الناخب الاعتبار الضميري ، وتسلبه حقه في الحرية كانسان ، وبذلك تتحول الأمة من حيث هي أمة حرة الى صيرورتها أمة مستعبدة ، وبهذا تصبح المهمة الاساسية للدولة كما يقول « مونتيسكيو » **أن تصنع انسانا طالحاً لتصنع عبداً صالحاً فيغدو الانسان مخلوقاً يطيع مخلوقاً يريد .**

اننا معشر القوميين العرب نمر اليوم والامة العربية في مرحلة جد خطرة ، مرحلة تكوين أمة ، مرحلة بعث الامة العربية من جديد . ومرحلة التأسيس هي أصعب مراحل البناء اذ انه يترتب على نتائج هذه المرحلة بقاء البناءاوزواله ، بقاؤنا كأمة او تفرقنا الى شعوب في أقاليم ، لذلك يتوجب علينا حين وضعنا للانظمة لعلاقات الدولة بالمواطن ان لانتظر الى الهدف القريب فحسب ، بل يجب ان يمتد بصرنا الى الاهداف البعيدة والبعيدة جداً ، هذه الاهداف المتمثلة باشعار المواطن بكل صفاته القومية والانسانية . ان نظرة المواطن الى الدولة ، اوبالاحرى الى السلطة لم تتبدل حتى الآن عما كانت عليه حينما كانت الامة العربية محكومة من الاستعمار والمستعمرين ، لقد كان المواطن يرى في السلطة آنذاك قدراً سيئاً فرض عليه ، قدراً لايملك فيه رأيا او فعلاً ، قدراً قائماً شاء المواطن هذه الحقيقة أم أباها . لقد كافح المواطن وضحى بالنفس والنفيس حتى بدل هذه الحال الى غيرها ، بدل الاستعمار استقلالا وبدل العبودية حرية ، غير أن نظرتـــه الى

السلطة لم تتبدل على الصورة الجذرية التي تبدلت اليها اوضاعه ، وسبب ذلك يعود أولا وأخيراً الى كون السلطات في عهود الاستقلال لم تبدل أساليبها وعلاقاتها بالمواطن تبدلا جذريا يشعر المواطن بان عهداً يدعم وجوده ، عهداً تستمد السلطة فيه ارادتها من ارادته قد قام ، وان عهد الذل والاذلال والتبعية قد ولى واندثر ، وقام مقامه عهد يعتمد كرامته بدلا من ذله وحريته بدلاً من اذلاله ومشاركته بدلا من تبعيته . ان السلطة اذا لم تتجه في كل خطوة تخطوها الى اقناع المواطن بهذه القيم فعندئذ لايمكن ان تتبدل نظرة المواطن الى القائمين على السلطة عن نظرته الى المستعمرين ، لهذا كان الواجب الاساسي للثوريين العرب في الاقاليم المتحررة سياسيا واجتماعيا وفي غير المتحررة منها ان يستهدفوا في نشاطاتهم افهام المواطن بان عليه ان ينظر الى الدولة الثورية القائمة والتي يريدلها القيام في الاقاليم الاخرى نظرة الجيش للقائد لا نظرة الطائر للصائد على حد تعبير الزعيم العربي سعد زغلول .

ان المواطن لايمكن له ان يشعر بانه يشارك في ادارة الدولة ، مالم تؤمن له السلطة الحرية التامة في انتخاب من يريده ممثلا له . ان الدولة عندما تفرض على المواطن الاشخاص الذين تريدهم ان يمثلوها ، فانها بعملها هذا تفرض على المواطن القناعة التامة بان من انتخب لايمثله بل انما يمثل السلطة التي فرضته عليه فرضاً ، وهكذا تنهار ثقة المواطن بالسلطة وينهار ايمانه بفائدتها وبجدواها وبكونها سلطته وسلطة غيره من المواطنين .

لذلك يتوجب على الدولة الثورية في حالة وضعها للقوانين التي تنظم الانتخابات العامة ان تراعي حقيقة جوهرية وهي تحقق الحرية الكاملة للمواطن لممارسة قناعته ممارسة بعيدة عن كل ضغط ومتحررة من كل عامل ارهابي .

ان بعض الامم المتقدمة حينما مرت بالمراحل التي مررنا بها ، اقترفت الكثير من الاخطاء الشنيعة بحق المواطن وبحق المجتمع ، ومنشأ هذه الاخطاء أن قادة تلك الامم وزعماءها كانوا ينظرون الى الغاية غير عابئين بالوسائل التي يسلكونها بامتهم الى غاياتهم تلك . وهذا مما كان ينزل بالامم اشد الخسائر وافدح النكبات

حين سعيها الى التحرر والعدالة . لقد كان الهدف الرئيسي لاولئك الزعماء والقادة يتمثل بانشاء دولة قوية مرهوبة الجانب ، لاأمة قوية عميقة الايمان بالانسانية ومعانيها ، بالانسانية ومبادئها . لقد جرد اولئك الزعماء الامة من مفهوم الفردية ، لقد جردوها من الانسان ، الانسان الذي يبقى متمتعاً بصفات الانسان حتى ولو جرد من صفات المواطن . لقد كان اولئك الزعماء يرون في الامة سلطة وحكومة وجيشاً وكانوا يرون في كل معنى انساني يعترض سبيلهم عقبة كؤوداً يجب ان تنسف وتسحق ، لقد فصل اولئك القادة والزعماء الوسيلة عن الغاية ، وآمنوا بان الغاية الشريفة تبرر الوسيلة القذرة الحقيرة ، لقد كانوا يرون في الكسب لافي الاكتساب غاياتهم ، فكانوا يوقظون أجهزة السلطة حينما يرون أن في دفع هذه الاجهزة لتسحق وتنسف وتدمر تحقق غاياتهم ، لقد كان اولئك الزعماء فاقدي الايمان بان هناك قوانين خالدة هي التي يجب ان تنظم علاقات الفرد او الجماعة او المجتمع بالدولة ، وان هذه القوانين لاتتأثر باي اعتبار لظرف او شخص او مجموعة من الناس ، بل انما تتأثر فقط وفقط بالاعتبار الانساني الذي من أجله اوجدت هذه القوانين والنظم .

اما القومية العربية في انتفاضتها الاولى فآمنت بان الغاية الشريفة هي تلك التي تؤدي اليها الوسيلة الشريفة ، وان الاكتساب لا الكسب هو الهدف الحقيقي للدولة ، وان القوانين لاتستيقظ وأجهزة الدولة لاتدور لتسحق وتنسف وتدمر حينما تريد السلطة لها ذلك ، بل ان تلك القوانين والاجهزة تستيقظ حينما تأمر موجبات العدالة بذلك ، لهذا السبب رأينا الخليفة الاعظم عمر بن الخطاب يضرب عرض الحائط بكسب جبلة بن الايهم وكسب عشيرته البالغة المئة الف عدداً الى الاسلام ويأمر باقامة الحد على الزعيم المهاب جبلة بن الايهم اقتصاصاً لاعرابي عادي بسيط دون جبلة بن الايهم بمراحل نفوذا وسطوة وسلطانا . ولهذا ايضا نرى بن الخطاب يقول لابي مريم السلولي قاتل شقيقه (شقيق عمر) :

« والله لا أحبك حتى تحب الارض الدم المسفوح .

فيجيبه أبو مريم السلولي غير متضع أو متردد فيقول :

« فتمنعني لذلك حقاً ؟ »

فيجيب الخليفة الاعظم :

« لا ! أبداً »

فيجيب ابو عمر السلولي مبتسماً ضاحكا غير عابيء بما للخليفة من حول وطول :

« فلا ضير ؟ انما يأسف على الحب النساء »

مثل هذه العدالة نريد للقومية العربية ، عدالة لاتتأثر بالظروف ولابالعوامل الشخصية ولابحب القائمين على السلطة او ببغضائهم عدالة يستوى أمامها ذو المنصب الخطير مع ذي المركز الحقير ، عدالة يستوي أمامها جبلة بهم الايهم والاعرابي البسيط ، عدالة يستوي أمامها ابن حاكم مصر عمر بن العاص والمصري العادي ، عدالة تقيم الحدود على ابن الخليفة عمر بالذات ، عدالة لاتجعل مصير الانسان في حريته وحياته مربوطاً باهواء القائمين على السلطة ونزواتهم ، عدالة تنطبق على قول المشترع الفرنسي للمشهور « مونتيسكيو » القائل :

في الدولة العادلة حيث رأس أقل مواطن عظيم ، فانه لاينزع منه شرفه وأمواله الا بعد بحث طويل ، ولايحرم حياته الاعندما يهاجم الوطن نفسه ، والوطن لايهاجم الا بعد ان يترك له جميع وسائل الدفاع الممكن عنه . »

اننا كقوميين عرب نخوض اليوم معارك ثورية ضارية ، معارك تستهدف تحقيق تحررنا وتحقيق وحدتنا ، معارك تستهدف تحرير المواطن العربي من ربقة الاستعمار ومن ربقة المظالم الاجتماعية ، هـذا هو هدفنا ، وهذه هي غاياتنا ، انها جميعا أهداف شريفة وغايات قدسية سامية ، غير أن منطق الثورة الاوروبية قد انحرف بالكثير من الامم الاوروبية التي كانت تقصد ماتقصده عن هـذه الاهداف وتلك الغايات وسبب انحرافه تأثر منطق الثورات الاوروبية بالاخلاقية الميكيافيلية ، لذلك فنحن اذا نسجنا في ثورتنا الحالية على منوال الثورات الاوروبية فاتبعنا الاخلاقية الميكيافيلية قاعدة لنا في اعمالنا ودستوراً لقادتنا في

نشاطاتهم ، فاننا عندئذ سنقول كما قال بسمارك « ان الوحدة الالمانية لاتحقق بالخطب الرنانة وبالمناقشات البرلمانية بل انما تحقق بالحديد والنار . »

لقد دل الاتحاد الاندماجي الذي تم مؤخراً بين مصر وسورية ، أن سبيلنا يختلف تماماً وفي كل خطوطه عن دستور « المستشار الحديدي » بسمارك ، وان الوعي الثوري في البلاد العربية اذا سلكت به الوسائل الشريفة فانه سيقود الامة العربية الى الغايات القدسية الشريفة الممثلة بالتحرر والاتحاد .

يقول احد كتاب الغرب ان منطق الثورات هو كعجلات المطاحن يسحق مايمر عليه ، ونحن لانريد لثورتنا مثل هـذا المنطق ، او بالاحرى أن ثورتنا ليست بحاجة الى مثل هذا المنطق ، لانه منطق قوة عمياء ، منطق قوة مجنونة حمقاء ، منطق قوة تريد أن تحقق غاياتها باي ثمن وباي عمل ، ومثل هذه القوة قد تحقق شيئاً وقد تؤدي الى نتائج ايجابية غير ان ماتحققه يكون بالغ الثمن فادحـــه .

ان من أهم اسباب الخلاف بين خروشوف وبين ستالين كون ستالين كما يقول خروشوف قد اسرف في دفع ثمن التقدم الذي لاقاه الاتحاد السوفياتي في الحقلين الاقتصادي والدبلوماسي .

لقد كنت اتحدث يوماً مع السيد برتي سنج مستشار السفارة الهندية في دمشق عن الحال التي آلت اليه اوضاع المهراجات في شبه القارة الهندية عقب ان نالت الهند استقلالها ، وقلت له من الغريب ان حكومة الباندیت نهرو لم تستصدر قانونا تصفي بواسطته الاوضاع الشاذة لاولئك المهراجات الذين كانوا من الاستعمار العضد والسند ، ثم سألته عما اذا كان هنـــاك من ضغط أجنبي حال دون اتخاذ مثل هذا الاجراء العنيف ؟

فأجابني المستر برتي سنج قائلا بان الحكومة الهندية بزعامة نهرو قد استنت الكثير من القوانين لتخليص جماهير الشعب الهندي من طغيان المهراجات الاجتماعي والسياسي ، غير انها لم تصل باجراءاتها الى حد العنف وذلك لان الباندیت نهرو

قابل بين المكاسب والخسائر التي يمكن ان تنتج عن اتخاذ مثل هذه الاجراءات العنيفة فوجد ان الخسائر تفوق الارباح فتوقف عند ابقاء السلطان الرمزي لهؤلاء المهراجات مكتفيا بدفعهم على الطريق الشعبي المرسوم لجماهير الأمة الهندية ، واردف السيد برتي سنج يقول لي :

« لاتنس أن هؤلاء المهراجات هم ايضاً افراد من الامة الهندية ، وان الواجب الاساسي للحكومة الواعية حماية ارواح الافراد وحرياتهم طالما ان مثل هذه الحماية لاينتج عنها أي ضرر للشعب . »

لقد طارت بي خواطري آنذاك وأنا اسمع كلام السيد برتي سنج الى الثورتين الفرنسية والشيوعية فبدا أمامي الفارق الواسع بين روحانية الشرق ومادية الغرب ، فنهرو يخوض اليوم مثلنا غمرات ثورة قومية ، وانهماكه في هذا الصراع الثوري المرير لم ينسه قط القيمة الحقيقية للانسان ، ولم ينحرف به الى العقيدة المادية التي تقول بان الانسان الشرير لايستصلح ، بل يجب ان يدمر جسداً وروحاً . لقد اكتفى نهرو باستئصال الظروف التي تجعل من الانسان انساناً شريراً ، ليقينه بانه في استئصال مثل هذه الظروف عودة الانسان الى فطرته الخيرة وعودة المرء الى سلوك الطريق الطبيعي الذي رسمه الله للانسان منذ فجر طريق البر والنفع وتحقيق الخير العام .

أرى من واجب الكاتب أن يصارح القارىء بالحقيقة ، وأن يظهر بين سطور كتابه شخصه وشخصيته وانني لاقولها جهاراً نهارا ودون ما موارية انني كدت احد الايام أصبح شيوعياً ماركسياً يؤمن بالديالكتيكية المادية ويسير حسب مفهومها الفلسفي والاجتماعي . ولقد أمضيت سنوات طوالاً من عمري وأنا منهمك على مطالعة كل ماكتب في الشيوعية وعنها ، ولا اكتمك ايها القارىء ان هذه العقيدة استهوتني لتماسكها العلمي وقدرتها على الاقناع المنطقي ، ولا أبالغ اذ اقول انني قد قرأت ودرست بامعان كل حرف خطه ماركس وسطره انجاز وكتبه لينين ودونه ستالين عن الشيوعية في الحقلين النظري والعملي . لقد آمنت

آنذاك كما آمن ويؤمن كل شيوعي بان الرغيف هو القيمة الحقيقية في الحياة وان الانسان قبل أن يسأل عن اسباب وجوده فلسفياً يحارب من اجل تأمين اسباب قوته ، وأن المرء هو كائن مادي بكل مالكلمة المادية من معنى ومفهوم، وان التاريخ هو على حد تعبير ماركس هو نشاط الانسان الملاحق غاياته المادية الخاصة .

بهذه العقائد كدت اؤمن والى هذه الفلسفة ، الفلسفة المادية الديالكتيكية كدت انساق حتى كان يوم طوح باديب الشيشكلي كطاغية وديكتاتور . وتدفقت الجماهير الى مشاهدة السجن الذي ابتناه الشيشكلي ليوطد سلطانه وكنت مع من ذهب لمطالعة ذاك الاثر الوحشي الرهيب فوقفت أمام زنزاناته المشرعة الابواب وتطلعت اليها فاذا بها اقفاص من اسمنت مسلح داخلها مرحاض صمم خصيصاً ليكون الى جانب رأس السجين . لقد تفنن مهندسو ذاك السجن الرهيب ببنائه ودل من وضع تصميمه وشيده على نفسية عريقة في الاجرام مصابة « بالسادزم » فاذا بالدموع تطفر من عيني واذا بي انطق دون ماوعي : حقاً ان الحرية لاثمن الاف المرات من الرغيف . لقد تصورت آنذاك نظاماً يمكنني من اللباس الفاخر والطعام الشهي ويؤمن لي كل رغبات نفسي واشتهاءاتها غير أنه باستطاعة مثل هذا النظام ان يزج بي في الوقت ذاته داخل تلك الزنزانات الرهيبة ايضاً فاذا بنفسي تتقزز من لباسه الفاخر وطعامه الشهي فعلمت عندئذ أن الانسان ليس فقط معدة تجوع فتأكل الاطايب فتشبع وتنسى الظلم والمظالم ، بل انما الانسان روحاً تجتاز الماديات في كل مغرياتها ومشهياتها الى شيء اسمى والى جوهر بعيد قد يكون ناء عن ادراك الانسان ومنطقه غير انه قريب وقريب جداً الى وجدانه وضميره .

لقد آمنت وأنا أقف امام زنزانات سجن الشيخ حسن ، بان نظاماً يبتني مثل هذه القبور الرهيبة لا يمكن أن يمت الى الانسانية بصلة ، ولا يمكن له بالتالي أن يدعي انه يقصد خير الشعب ويريد صالح الامة .

لقد آمنت وأنا أشهد تلك المقبرة بان من تبلغ به رغبته في الانتقام من خصومه السياسيين هذا الدرك المروع في وحشيته والفاجع في خسته وحقارته ، ليس بالرجل الذي يمكن ان تكون مقاصده الحقيقية تأمين العـــدالة للمواطن وتدعيم الكرامة في الانسان . لقد تفتحت أمام ذهني الحكمة الانسانية الرائعة التي وردت في كتاب روح الشرائع « المونتسكيو » والقائلة :

« النـاس كلهم متساوون في الحكومة العادلة ، وهم ايضاً متساوون في الحكومة المستبدة ، هم متساون في الاولى لانهم كل شيء فيها ، وهم متساوون في الثانية لانهم ليسوا شيئاً فيها . »

لقد اتضح ، لي آنذاك ، وأنا أقف أمام ذاك الاثر الشيطـاني الرهيب ، ما عناه « مونتسكيو » حينما قال :

« قد يكون للامة الحرة منقذ ، ولا يكون للامة المستعبدة غير طاغيـة آخر . »

منذ تلك اللحظة ، لحظة وقوفي أمام سجن الشيخ حسن ، تحول وجـــداني بعقلي عن الشيوعية كفلسفة ونظام فأخذت افتش عن فلسفة أخرى تملأ الفراغ الروحي الناشيء عن ذاك التحول ، فلم اجد حتى الآن من فلسفة اؤمن بهـا كنظرة الى الكون وكنظـام ودين سوى الاسلام ، الاسلام في روحه لا في المعاني الجامدة التي طلع بها علينا بعض الفقهاء وبعض الجمعيات والهيئات .

لقد آمنت آنذاك بانه حتى العوامل الاقتصادية لهـا سعة روحية ، وأن الروح هي التي تفعل في المادة تكيفها حسبما تشاء وتجعلها تنطبق وتتفق والحاجات الروحية . وهذا ما وصل ايضاً الى تقريره العالم الأميركي « رنيولد مونيبوهر » حيث يقول :

« ليست الرغبات الاقتصادية مجرد التعبير عن دافع الجوع او البقاء في الحياة الانسانية ، والرغبة في « السلطان والمجد » متحدة بجذق مع الدافع الاكثر بدائية . ان رغبة الاسد في الطعام تشبع عندما تحشى معدتـــه . ورغبة الانسان في

الطعام تحد باسهل من الرغبات الانسانية الاخرى ، ومع ذلك فان دافع الجوع يخضع لتصفيات النهم والتواءاته التي لا حصر لها . أما المسكن والملبس فلهما حدود اكثر قابلية للانبساط والاتساع من حدود المأكل ، فمعطف الانسان ليس أبدا مجرد غطاء لعريه ، بل الشارة الدالة على مهنته ، او التعبير عن دافع فني ، او طريقة لاجتذاب الجنس الآخر ، أو دليل على المكانة الاجتماعية ؛ وبيت الانسان ليس أبداً مجرد مكان يأوي اليه ، بل انه التعبير عن شخصيته ، ورمز قوته ومكانته ونفوذه .

ويستطرد هذا العالم المشهور فيقول :

« ان المجتمع الحر يتطلب بعض الثقة في قدرة الناس على الوصول الى تعديلات اختيارية محمولة بين مصالحهـــم المتنافسة ، وعلى الوصول الى بعض الافكار المشتركة عن العدالة التي تسمو على المصالح الجزئية كلها . ان التشاؤم الملح في قدرة الانسان العقلانية على تحقيق العـــدالة تؤدي الى نظريات سياسية اطلاقية لان هذه النظريات تلهم الاقتناع بان القوة الغالبة وحدها تستطيع أن تكره مختلف القوى الحيوية لدى الجماعة على العمل بتناغم . (Harmony) »

نعم ، علينا كقوميين العرب نريد ان ننشيء دولة حرة تسودها أمـة حرة أن نثق بقدرة المواطن على مشاركة السلطات في تأمين قيام العـدالة ، وعلينا ان نجعل هذه الثقة ثقة متبادلة بين المواطن والدولة ، فالدولة التي تفقد ثقتهـا بالقدرة العقلانية للمواطن والمواطنين ، يفقد المواطن والمواطنون ثقتهم بقدرتي الدولة العقلانية والوجدانية ، ويرون في مثل تلك الدولة هيئة انما اوجدت لتخضع لا لتقنع ، لتتحكم لا لتحكم .

وهذه الحقيقة تفرض على السلطات ان تتيح جميـع الفرص للمواطن ليلمس لمس اليد ان وجوده مؤكد في الدولة ووجود الدولة يتأكد فيه ، فالانسان كما يقول اتباع الفيلسوف زنيون قادر اذا ما وجد الدليل والمرشد على ان يتحقق بالفضيلة . وقدرته هذه تابعة من ايمانه بانه في حـالة انحيازه كمواطن عن جادة

الفضيلة فانما هذا الانحياز سيؤدي الى دماره كفرد في امة حرة وكمواطن في دولة حرة . وبهذا يقول العالم جون مدلتون موري في كتابه المعروف باسم « الاسس المناقبية للديمقراطية » وفي الصفحة ١٦٨ منه ما يلي :

« وكما ان المجتمع الديمقراطي يختار حكومته بحرية ، كذلك يجب ان يختار المواطن الديمقراطي بحرية أن يؤدي واجبه في سبيل الخير العام . انه يجعل من ضميره رقيباً على افعاله . انه يطيع القانون ، لا كأمر خارجي ، بل بوصفه التعبير الافضل عن نفسه التي ترغب وتريد ان تعمل اطاعة لقانون يعتبره عقله ضروريا ... ان الديمقراطية تقوم ، لا نظرياً فحسب ، بل عملياً ايضاً وذلك على حقيقة موجب عام يقضي باطاعة القانون المناقبي . امام اذا لم يعترف بهذا الموجب للعمل به فان الديمقراطية لا بد لها ، في وقت الشدة الحقيقية من ان تنهار وتتداعى . واذا كانت صحة القانون وهما فان صحة الديمقراطية وهم كذلك . »

انني اعرف بوصفي قومياً عربياً ، يؤمن بثورة القومية العربية ، اننا نمر في ظروف استثنائية ، ظروف اقتلاع جذور انظمة اجتماعية وسياسية تنتشر في اجوائنا جراثيم الاستعباد ، وتسمم مجتمعنا بسموم الذل والعبودية ، غير ان اللجوء الى الاجراءات الاستثنائية في هذه الظروف الاستثنائية يجب ان تتناول الاوضاع قبل الاشخاص والنظم قبل القائمين عليها .

فنحن كقوميين عرب نريد لامتنا حياة كريمة عادلة في دولة اتحادية شاملة . والعقبات التي تقف في طريقنا معروفة منذ قرون وهي متمثلة بالرجعية وانظمة الحكم المتخلفة ، هذه الانظمة الممثلة بالكسروية والقيصرية ، لذلك فان جهادنا يجب ان يتركز على ضرب هذه الانظمة بايقاظ الشعوب العربية وفتح أعين ابنائها على مساوئها ومفاسدها ، ويجب ان نفهم القوميين العرب ان مهمة الهدم تنتهي عند هدم تلك الانظمة او عند اقتلاع المفاسد التي غاصت عميقاً فيها .

على هذه الاهداف تجمع كلمة القوميين العرب ، غير انني أخشى ان يختلف

القوميون العرب على الوسائل ، ومثل هذا الخلاف ان حدث لاسمح الله فانه سيضعف قوى ثورة القومية العربية لانه سيؤدي بالتالي الى اختلاف الثوريين العرب على الاهداف والوسائل معاً ، لذلك يتوجب على الثوريين العرب ان يستنوا دستورا ينظم وسائل عملهم ويوحد مناهجها ، ويجب ان يتوخى مثل هذا الدستور وفي كل مادة من مواده الابتعاد عن العنف وعن الاجراءات العنيفة ضد الارواح مااستطاع الثوريون العرب الى ذلك سبيلا ، فطريقنا الى اقامة الدولة الاتحادية الشاملة لن تكون ، او بالأحرى لايجب ان يسمح لها وفي كل الاحوال بان تكون ، كالطريق الذي سلكته المانيا الى وحدتها ، طريق المستشار بسمارك ، طريق الحديد والنار ؛ بل ان طريقنا كانت وستبقى طريق المناقشة والاقناع ، منافشة الشعوب العربيـــة لا السلطات ، واقناع الجماهير العربية لا الحكومات .

انني أعرف بأن ضمير الثورة ومنطقها يفرضان على الثورة اشتراع القوانين لحماية نفسها من خصومها واعدائها ، غير أن القائمين على الثورة اذا استهدفوا حين اشتراعهم القوانين حماية اشخاصهم لاحماية الثورة فان الثورة عندئذ ستنقلب على ابنائها لتلتهمهم الواحد تلو الآخر . لهذا يتوجب على القادة ان يفسحوا بين صفوفهم مكاناً للقادة الثوريين الجدد ، وأن يغذوا عقب كل فترة من الزمن الثورة بدماء جديدة وافكار جديدة ووجوه جديدة ، لان جمود الثورة في هيئاتها وتنظيماتها ، وضيق صدر قيادتها بالقوى الثورية الناشئة ، سيجعل قادة الثورة الاوائل يرون في القوى الثورية الناشئة قوى منافسة لهم على المناصب والمراكز على الزعامة والقيادة . وهذه النظرة ان سيطرت لاسمح الله على منطق قادة الثورة ، فعندئذ ستتحول الثورة الى ضرب القوى الثورية الناشئة بالقسوة ذاتها وبالعنف ذاته الذي ضربت به قوى الرجعية المنحلة ، ومثل هذا التحول ان طرأ على الثورة لاسمح الله ، فعندئذ تتجرد الثورة من صفاتها الثورية وتموت كثورة ويغدو ماتبقى على اعقابها من نظـام نظاماً رجعياً ان حارب فهو

يحارب منسحباً وان ناضل فهو يناضل متراجعاً أمام القوى الثورية الجديدة التي لم تجد من يتبناها او يستعملها من قادة الثورة الاوائل .

هذا منطق تطور الثورة ، وهذه هي الحقيقة التي تنظم وجودها ، فثورة القومية العربية تنتهي حال وصولها الى أهدافها المتمثلة بتحقيق الدولة العربية الاتحادية الشاملة واقامة المجتمع العربي السعيد ، وتحقيق هـــذه الاهداف قد يستغرق عشر سنوات في حالة بقاء الظروف الدولية على حالها هذه ، لذلك يتوجب علينا ان نحافظ على ثورتنا ملتهبة مشتعلة طيلة هذه الفترة الزمنية على الاقل ، ووسيلتنا للمحافظة على تأجج ضرام ثورتنا يستلزم القادة الثوريين كما قلت آنفاً تغذية الثورة بقوى ثورية جديدة ، وهذه التغذية يجب ان تشمل الزعامة والقيادة والهيئة العامة للثورة .

ان كل ثوري يفقد مع الزمن وقبل ان تصل الثورة الى اهدافها الكثير من صفاته ومميزاته وحيويته الثورية ، فاذا كان ذاك الثوري زعيما للثورة او قائدا لها واذا لم يغذ ذاك القائد الثوري هيئة قيادته بقوى ثورية جديدة تعوض عليه مافقده هو من حيوية ثورية فعندئذ تخمد الثورة قبل وصولها الى اهدافها .

لهذا تفرض العدالة في ابسط بديهياتها عـــلى الدولة الثورية ان تفسح جميع المجالات للقوى الثورية الناشئة لممارسة وجودها كقوة فاعلة ومجددة للقوى الثورية الاولى .

ان اكبر نكبة قد تصاب بها ثورتنا الحالية هي ان تلجأ القوى الثورية الاولى الى محاولة خنق القوى الثورية الناشئة ، ففي هذه الحال يلبس الارهاب ثوب القانون وترتدي التدابير البوليسية جلباب العدالة وينتشر القلق في ارجاء المجتمع ويغدو شباب الطليعة هم المضطهدون .

ولا سبيل لنا لتلافي هذه الاخطار الا في اتاحة كل الفرص للقوى الثورية الناشئة كي تنمو وتترعرع وتندمج في القوى الثورية الاولى ولتحقيق هذه

الغاية الجوهرية يتوجب على القادة الثوريين ان يتحلوا بفضائل خمس ، الاولى النزاهة المتجردة تجرداً مطلقاً ، والثانية الاخلاص لاهداف الثورة اخلاصاً متناهياً ، والثالثة تغذية قوى الثورة بالكفاآت الثورية تغذية مستمرة مستديمة ، والرابعة الابتعاد عن المحسوبية في كل اشكالها ، والخامسة اطلاق اكبر قدر من الحريات العامة لتتمكن الثورة من اكتشاف القوى الجديـــدة والكفاءآت الجديدة ولنبات المجتمع الجديد .

الفصل الثالث

الاتحاد

السياسة الخارجية

١ ـــ ماهي القومية العربية ؟

اولا : القومية العربية هي نداء انساني منبعث من أعمق أغوار الضمير العربي ، وارادة فولاذية واعية نابعة من عقل عربي واع ، واستنفار الهي للشعوب العربية كي توحد قواها وتعبيء مجهوداتها المـــادية والروحية بغية الثورة على الاستعمار وتدمير الانظمة السياسية التي تبقي الانقسام بين الشعوب العربية والتجزئة بين الاقاليم العربية ، وتحول دون تحقق وحدة الوجود القومي للامة العربية ، وتمنع تحقق انسجام وتناغم (Harmony) المصالح المادية ، وتحارب التفاعل الروحي بين الشعوب العربية .

ثانياً القومية العربية هي ارادة الامة العربية وعزمها وتصميمها على اقامة الدولة العربية الاتحادية الشاملة والممتدة من المحيط الاطلسي حتى الخليج العربي وذلك لضمان تنفيذ الاهداف الاساسية للقومية العربية ، هذه الاهداف المبينة في الفقرة السابقة لهذه .

ثالثاً : القومية العربية هي صرخة المستعبدين من ابناء الامة العربية ، واستغاثة المحرومين من الجماهير العربية ، وثورة الامة العربية في مستعبديها ومحروميها على الانظمة الاجتماعية الظالمة وعلى قوى الرجعية والانتهازية والفوضوية .

رابعاً : القومية العربية هي ارادة الامة العربية وعزمها على اقامة مجتمع يضمن لابنائه الحرية والكرامة والسعادة وذلك بواسطة نظام اجتماعي ينفي الاثرة

الطبقية وينفي الاقطاع في شكليه المادي والاجتماعي ، ويمنع سيطرة رأس المال على الحكم ، غير أنه يضمن لرأس المال كل ظروف وفرص التكاثر والنمو .

خامساً : القومية العربية هي امتداد للروح العربية الى العالم الاسلامي فالعالم فالكون وذلك لاقامة نظام عالمي يستطيع ان يحقق التوازن بين العوامل المادية والعوامل الروحية ويضمن بقاء مثـــل هذا التوازن قائماً في التركيب الامي للحضارة الانسانية .

سادساً : القومية العربية هي صرخة الامة العربية في آذان الامم الاخرى ودعوتها المخلصة للشعوب والامم الاخرى لالغاء الاستعمار في كل اشكاله الاحتكارية والانتهازية والاستغلالية وذلك لايجاد الامية الصالحة في نطاق الدولة العالمية الاتحادية ذات النظام المنبثق عن مبـــدأ التعاون الحر بين الشعوب ومبدأ العدالة في تبادل المنافع .

سابعاً : تزول القومية العربية وتفنى حالما تزول الاطماع الانسانية وحالما تدرك الامم والشعوب بان بقاءها ورخاءها مرهونان باحلال التعاون والتبادل المتكافي للمنافع ، بدلاً من الاستعمار والاستغلال ، دستوراً ينظم علاقات الامم بعضها ببعض وقانونا يوجه نشاطاتها المادية وفعالياتها الروحية نحـو تحقيق هذه الغاية الانسانية السامية .

هذه هي المنابع السبعة التي تنبع منها القومية العربية ، وهذه هي أهدافها الحقيقية في الحقلين القومي والانساني غير انني في هذا الفصل من هـذا الكتاب سأقتصر في بحثي على موضوع الاتحاد ووسائلنا الى تحقيق قيـام الدولة العربية الاتحادية الشاملة .

ب ـــ الاتحاد الاندماجي بين سورية ومصر :

سبقت القومية العربية في وثباتها الثورية المظفرة قلمي ، فلقد بدأت بكتابة هذا الكتاب ولم أكن أتصور ابداً ان ولادة الجمهورية العربيـة المتحدة ستتم

قبل صدور كتابي ووصوله الى أيدي القراء الاكارم ، لذلك يجد القاريء في فصول كتابي الاولى بان دعوتي الى تنظيم القوى الثورية ، في كل سورية ومصر ، انما جاءت تحت تأثير الظروف السابقة لقيام الجمهورية العربية المتحدة .

لذلك فانني لارجو الله من صميم فؤادي أن تسبق القومية العربية صدور كتابي الى تحقيق الدولة العربية الاتحادية الشاملة .

هذه مقدمة لابد منها ، والآن سأعود الى موضوع الاتحاد الاندماجي بين سورية ومصر .

هناك فئة كبيرة من المثقفين ومن شباب الطليعة في سورية يرون بان طريقنا الى اقامة الدولة الاتحادية الشاملة هو الاتحاد الفيدرالي ، ويقول هؤلاء المثقفون الذين اعتز بصداقتهم واحترام رأيهم وثقافتهم ، ان الاتحاد الفيدرالي هو النظام الناجح لابقاء الاقاليم العربية مجتمعة الشمل في دولة اتحادية تنظم الشؤون الاقتصادية والعسكرية والخارجية لمجموعة الاقاليم العـــربية ، ويستطرد هؤلاء الاصدقاء المحترمون فيقولون أن روح اللامركزية الواسعة هي التي تسيطر اليوم على مباديء الحكم واسس الادارات العامة ، ويضربون مثلا بهذا الاتحاد السويسري الذي يتألف من ست ولايات يربط بينها نظام اتحاد فيدرالي ومن ثم يسترسل هؤلاء الاصدقاء المثقفون فيقولون ان الانتخابات البلدية ذاتها هي الدليل على صحة العمل بروح نظام اللامركزية الواسعة ، هذه الروح التي لايمكن ان توجد وتضمن الا من قبل نظام الاتحاد الفيدرالي .

انني اوافق موافقة تامة على كل كلمة قالهـــا او يقولها هؤلاء الاصدقاء المحترمون ، وانني لمؤمن ايماناً عميقاً بصحة منطقهم وبسداد آرائهم غير أنني ، مع موافقتي تلك وايماني هذا ، أرى بقناعة عقل وارتياح ضمير واطمئنان وجدان ان الاتحاد الاندماجي لا الاتحاد الفيدرالي هو ملزم أساسي من ملزمات نجاح الثورة وضمان تحقق أهدافها وذلك لاننا نحارب اليوم لتحقيق الدولة الاتحادية العربية الشاملة في ظروف صعبة استثنائية ، صعبة في الداخل وحرجة في الخارج ،

كما وان سورية ومصر هما الاقليمان العربيان اللذان أخذا على نفسيهما كما قلت في فصل سابق قيادة الشعوب العربية الى تحقيق الدولة الاتحادية العربية الشاملة .

لهذا كان نجاح هذه القيادة في تحقيق مهامها يتطلب أول مايتطلبه وحدة الادارة ووحدة المسؤولية ، المسؤولية أمام القوى الثورية التي تسيطر على أجهزة الدولة في الاقليمين السوري والمصري ، ووحدة المسؤولية أمام القوى الثورية في الاقاليم العربية الاخرى ، هذه القوى التي تكافح الاستعمار والانظمة الاجتماعية الظالمة والتجزئة والانقسام . والوحدة في المسؤولية لاتتم بصورة كاملة الا عن طريق الاتحاد الاندماجي الحالي القائم بين الاقليمين السوري والمصري في الوقت الحالي .

لذلك فان مهام الجمهورية العربية المتحدة اليوم لاتستهدف ابداً في المرحلة الحالية ـ أقول في المرحلة الحالية ـ انشاء وبناء جهاز مثالي للادارة والحكم ، بل انما تستهدف اولاً واخيراً اضرام الروح الثورية في الاقاليم الاخرى لتأتي هذه الروح على جميع الانظمة ومشتقات تلك الانظمة التي تحول دون تحقق وجود الامة العربية في دولة عربية اتحادية شاملة يربط بين اقاليمها نظام اتحاد فيدرالي ، اقول للتأكيد ثانية يربط بين اقاليمها نظام اتحادي فيدرالي كالنظام الاميركي . وشعوري بضرورة قيام القيادة الموحدة ، والعمل بمبدأ الوحدة في المسؤولية أمام القوى الثورية العربية ، يجعلني هنا أن أتنكر لما جاء في كتابي هذا وخاصة لما جاء في الصفحة ٦٢ و ٦٣ منه والمتعلق بمعارضتي الشديدة لالغاء الاحزاب وانشاء اتحاد قومي في سورية ، لقد كانت معارضتي حينما كتبت ذاك الامر ناشئة عن انني كنت أرى ان قيام الجمهورية العربية المتحدة لايزال عسير المنال بعيد المحال ، وعن شكي العميق بان هناك قوى سياسية معينة تريد من وراء الغاء الاحزاب واقامة اتحاد قومي فرض ديكتاتوريتها على الشعب العربي في الاقليم السوري لا السير بالشعب العربي في سورية نحو اقدس غاياته الممثلة باقامة الدولة العربية الاتحادية الشاملة ذات **النظام الفيدرالي** .

اما وقد تحققت اول اماني الامة العربية في ميلاد الجمهورية العربيـة المتحدة فان ايماني وقناعتي بضرورة الوحدة في المسؤولية ومركزية القيادة الثورية تجعلني اطلب الغاء الحياة الحزبية وقيام الاتحاد القومي ولمدة لاتتجاوز الدورة التشريعية الاولى لمجلس الامة في الجمهورية العربية المتحدة .

وذلك لانه يتوجب على قادة الثورة ان يعملوا خلال هذه الدورة التشريعية التي لاأعرف كم ستمتد أخمس او أربع سنوات ، وعن طريق الاتحاد القومي الى جمع القوى التقدمية الثورية في صفوف هـذا الاتحاد ، ومن ثم وقبل نهاية الدورة التشريعية الاولى الى توزيع هذه القوى الى حزبين احدهما يتولى المعارضة والآخر الحكم وذلك تمشياً مع الروح الديمقراطية التي نريد لها ان تبقى الموجه الاول والمرشد الحكيم للقومية العربية .

وانني وعلى صفحات كتابي هذا لأرجو من قادة الثورة ان يعملوا بالنصيحة الآنفة الذكر بغية حماية الثورة من الانتكاسات والرجعة .

لهذا ارى وانصح مخلصا بان تقوم قيادة ثورة القومية العربيـة عقب حال انتهاء الدورة التشريعية الاولى لمجلس الامة باقامة الحياة السياسية عن اساس نظام الحزبين ، كما هي الحال اليوم في كل من بريطانيا والولايات المتحدة ، كما واعود لاكرر رجائي بان لايتأخر العمل بنظام الحزبين عن موعـــد انتهاء الدورة التشريعية الاولى لمجلس الامة .

ان للاتحاد الاندماجي اليوم اعـداء في الداخل يفوق خطرهم خطر الاعداء في الخارج بمراحل واشواط ، وذلك لان هناك فئة في كل من الاقليمين السوري والمصري ترى في قيام الجمهورية العربية المتحدة تعارضاً ومصالحها الذاتية ، وهذه الفئة تتمثل بالطبقة البرجوازية المتوسطة منهـا والصغيرة ، كما وتتمثل في سورية في طبقة كبار ملاك الاراضي المنزرعة ، ويضاف الى هؤلاء طبقة تجارية اخرى ترى في انتهاج سياسة اقتصادية منهاجية ضرراً بمصالحها الخاصـــة ، وهذه الفئات منفردة ومجتمعة تفرض عليها مصالحها الذاتية ومآربها الدنيئة وطمعها الشره ونهمها

البشع ان تبذر العقبات في طريق اقامة الاقتصاد العربي المتكامل واقامة السوق العربية المشتركة ، المشتركة حاليا وحاليا فقط بين الجمهورية العربيـــة المتحدة والاقاليم العربية الاخرى .

لذلك يتوجب على القادة الثوريين العرب في الجمهورية العربية المتحدة مراقبة هذه الفئات مراقبة حذرة دقيقة ، وان ترقب نشاطاتها بعـين يقظة ساهرة لانه من المؤسف ان هذه الفئات تجهل كل الجهل الاساس الاخلاقي والقواعد المناقبية للقومية العربية ولذلك فهي لاتستطيع ان تفهم بان للحياة من معنى سوى تكديس الاموال في صناديقها ، لهذا يتوجب على الاجهزة الثورية ان تعالج هذه المشكلة الخطيرة بكثير من الروية والامعان والتعقل والحذر فتقنع هـــذه الفئات بان الطريق الى انماء مكاسبها وزيادة ارباحها وتأمين رفاهها واشاعة الرخاء في جوانب المجتمع واركانه لايكون ولن يكون في هذا الانكماش الاقليمي بل انما يتحقق في التمدد والامتداد العربيين بواسطة اقامة الدولة العربية الاتحادية الشاملة ذات النظام الاتحادي الفيدرالي .

كما و نه يتوجب على هذه الفئات ان تقنع وتقتنع بان الوحدة القومية للامة لا يمكن ان تتحقق اذا عمد كل شعب في كل اقليم الى مناقشة نفسه في ابنائه ليكتشف مقدار الارباح المادية ، التي يجنيها حين اتحاده وشعب الاقليم الآخر او شعوب الاقاليم الاخرى التي تكون الامة .

ان الشعوب الالمانية والايطالية لو عمـدت شعوبها حين ثورتها القومية الى مناقشة نفسها لتكتشف الارباح الاقتصادية والمكاسب المادية التي تتحقق نتيجة لاندماج هذه الاقاليم بعضها ببعض لما قامت الدولة الالمانية الموحدة اوالايطالية، ولما كانت المانيا الغربية اليوم تطالب وبالحاح بالحاق المناطق الالمانية الشرقية ، هذه المناطق التي ستكون عالة على اقتصاد المانية الغربية مستقبلاً قريباً ومستقبلاً بعيداً وذلك لكون تلك المناطق التي تشكل المانيا الشرقية هي اكثر الاقاليم الالمانية فقراً في مواردها الاقتصادية .

لهـــذا كله فان الثوريين العرب الذين يشرفهم ان يكونوا مواطنين في الجمهورية العربية المتحدة ، والذين يرون في هذه الجمهورية الحبيبة النواة للدولة العربية الاتحادية الشاملة ذات النظام الاتحادي الفيدرالي لن يسمحوا أبداً للاثرة الطبقية وللانانية الحسيسة ان تهددا كيان هذه الجمهورية الوليدة .

ومع هذا فانني اقول بان قادة الجمهورية العربية تترتب عليهم اليوم مسؤوليات جسام ، مسؤوليات لا يمكن ان تحملها عواتقهم الا اذا تحلوا - أي القادة - بكل ما يسبغه العقـل والضمير والوجدان من مزايا وفضـائل على الانسان ، وذلك لان الجمهورية العربية المتحدة هي التجربة المخبرية الاولى للقومية العربية في سلسلة تجاربها لاقامة الدولة العربية الاتحادية الشاملة ، وعلى نجاح هذه التجربة او فشلها لا سمح الله يترتب نجـــاح القومية العربية او فشلها في انشاء الدولة العربية المتحدة الشاملة .

ان عيون وعقول الشعوب العربية في الاقاليم الاخرى مركزة اليوم على كل خطوة نخطوها وعلى كل نأمر نأتيه ، في جليله وفي دقيقه في الجمهورية العربية المتحدة فاذا رأت تلك الشعوب في الاقاليم العربيـــة الأخرى أن جميع اعمالنا واقوالنا ونشاطاتنا حكومة وشعباً تستهدف خلصة اقامة المجتمع الحر السعيد في الدولة القومية الحرة السعيدة فعندئذ سندفع بتلك الشعوب دفعاً الى هدم انظمتها وهدم كل حاجز يعترض طريقها الى طريقنا المؤدي الى الاتحاد العربي الشامل .

اما في حالة اقتراف القادة الثوريين في الجمهورية العربية المتحدة الاخطاء بحق الفرد والجماعة والمجتمع ، وهذه الاخطاء تتمثل في خنق الحرية التي يحددها القانون وتضمنها الاخلاق فعندئذ لن تندثر فقط الجمهورية العربية المتحدة بل انما ستندثر ايضاً أماني الأمة العربية جمعاء في اقامة الدولة العربية الاتحادية الشاملة وبذلك ستعود القضية العربية وقضية القومية العربية الى النقطة الاولى التي انطلقت منها .

هذه المحذورات لاتشكل أخطارا ساحقة ماحقة على الجمهورية العربية المتحدة بل انها تشكل أخطارا مبيدة للقومية العربية وناسفة لاماني الأمـة العربية نسفاً مخيفاً مجرماً .

لذلك فانني ارى ان نجاح القومية العربية في اقامة دولة عربية اتحادية يتوقف منذ يوم الحادي والعشرين من شهر شباط على سلوكنا جميعاً حكومة وشعباً ، مجتمعاً ودولة ، الطريق الحكيم الحذر الواعي ، هذا الطريق الذي سيفضي حتما بالمواطن الى تنظيم علاقاته بالدولة على أساس من التعاون والاحترام لاعلى اساس من الخوف والرهبة والارهاب .

وسبيلنا الى الوصول الى هذه الغايات الشريفة أراها متمثلة في القضاء على كل شعور بالاقليمية والقضاء على كل عامل من شأنه أن يجعل المواطن في الجمهورية العربية المتحدة يميز بين السوري والمصري .

ولذلك فانني اقترح الخطوط العريضة التالية :

١ - توزيع المناصب الوزارية ومقاعد مجلس الامة بالنسبة لعدد السكان في كل من الاقليمين .

٢ - حصر وظائف الحلقتين الوسطى والدنيا في ابناء كل اقليم من الاقليمين .

٣ - حصر حق عضوية المجلسين التنفيذين في أبناء كل اقليم من الاقليمين على أن يرأس عربي مصري المجلس التنفيذي في الاقليم السوري ، وعربي سوري المجلس التنفيذي في الاقليم المصري

٤ - حين وضع الموازنة العامة ، يقدر مايجبى من أموال من كل من الاقليمين وتحسم نفقات الدفاع والشؤون الخارجية ، وبعدئذ يعطى حق الافضلية لسكان كل اقليم في صرف المتبقي من واردات اقليمهم الى الموازنة العامة على المشاريع الانمائية في اقليمهم .

٧ - يجري حسم نفقات الدفاع والخارجية بالنسبة للواردات المتحققة من كل من الاقليمين .

٨ - لاتسمح الدولة مستقبلا بقيام أية شركة اومؤسسة اقتصادية عربية ، اذا لم يكن رأس مال تلك الشركة او المؤسسة رأس مال مشترك ، وتحدد الدولة النسبة الدنيا لرأسمال الشركة او المؤسسة المنوي انشاؤها .

٩ ـ تمنع الدولة الشركات من قبول الموظفين والعمال من غير أهل الاقليم الذي تعمل فيه وتنشط .

١٠ ـ تحول الدولة في المرحلة الاولى دون هجرة الحرفيين والمهنيين من اقليم الى اقليم

١١ ـ تشجع الدولة تهجير الفلاحين من الاقليم المصري الى الاقليم السوري ، على ان تقيم الدولة مزارع تعاونية يكون سكانها خليطاً من المصريين والسوريين .

١٢ ـ يجري صرف القروض الخارجية في الوجهات التي تؤمن قيام اقتصاد صناعي وزراعي متكامل على ان يراعى عامل التهجير مستقبلا .

واخيرا يجب ان يتوج هذه الامور كلها ابتعاد السلطة ابتعاداً كليا عن الارهاب في شكليه المادي والمعنوي ، ومن ثم على السلطة في الجمهورية العربية المتحدة ان تبتعد عن كل اجراءات العنف في كل خطوة تسلكها في الادارة والحكم .

ج ـ الطريق الى اقامة الدولة الاتحادية :

لقد اتضح نتيجة للاتحاد الاندماجي الذي تم مؤخرا بين سورية ومصر ، هذا الاتحاد الذي ادى الى قيام الجمهورية العربية المتحدة ، انه ليس من طريق امام الامة العربية يقود بالأمة الى اقامة الدولة الاتحادية الشاملة ذات النظام الفدرالي سوى الشعوب والشعوب فقط .

لذلك يتوجب على القادة الثوريين في العالم العربي ايقاظ الوعيين السياسي والاجتماعي في نفوس الافراد والجماهير . وفي حالة اكتمال الوعي لدى الشعوب العربية فان هذه الشعوب ستفرض على حكامها التخلي عن الانانيات والعنعنات وحتى التخلي عن مناصبهم بغية تلاقي الاقاليم العربية في دولة اتحادية شاملة واندماجها في مثل هذه الدولة .

اننا لانستطيع ان نسلك بالشعوب العربية الى الاتحاد الطريق ذاتها التي

سلكتها بروسيا بقيادة بسمارك حين سعيها لاقامة الدولة الاتحادية الالمانية ، وأعني بهذه الطريق ، طريق الحديد والدم ، وذلك لان الظروف الدولية التي تحيط بجهاد القومية العربية في سبيل اقامة الدولة العربية الاتحادية ظروف تجعل من الخطر على القوى الثورية سلوك طريق الحرب بغية تحقيق الوجود القومي للأمة العربية في الدولة العربية الاتحادية .

فمشروع ايزنهاور الاخير مثلاً انما وضع لحماية الدول في الاقاليم العربية من هجوم مسلح تقوم به دولة ثورية عربية بغية تحقيق الدولة الاتحادية العربية .

كما واننا لانستطيع في الوقت ذاته ان نسلك طريق المفاوضات والحكومات العربية الاخرى من اجل تحقيق الوحدة العربية في الدولة الاتحادية الشاملة .

لقد دلت تجربتنا في الجامعة العربية على ان الجامعة العربية لم تحقق اي هدف من اهدافنا القومية ولم تستطع الجامعة العربية ان تخطو بالامة العربية خطوة واحدة نحو اقدس غاياتها المتمثلة باقامة الدولة العربية الاتحادية الشاملة ، بل لقد اتضح ان الجامعة العربية قد قامت لتمارس عكس الغايات الاساسية للشعوب العربية اذ انها اعتمدت في كل خطوة من خطاها مبدأ تدعيم الانقسام بين الشعوب العربية وتوطيد التجزئة بين الاقاليم العربية ، واتضح بالتالي ان الروح المسيطرة على الجامعة العربية روح ترغب رغبة اكيدة في عدم اتحاد كلمة العرب ومحاربة كل محاولة قومية اصيلة ترمي الى توحيد كلمة الامة العربية في الدولة العربية الاتحادية ذات النظام الفدرالي .

والمتعمق في المناهج الاقتصادية والاجتماعية التي تطبق في الاقاليم العربية الاخرى يلمس لمس اليد ان هناك روحاً شريرة قد وضعت هذه المناهج ، وان هذه الروح تتوخى من وراء وضع مثل تلك المناهج غاية واحدة ووحيدة تتمثل في ابقاء التجزئة بين الشعوب العربية والانقسام بين اقاليمها .

لذلك لم يبق امام الثوريين العرب الا الوسيلة الوحيدة التي ذكرتها في مطلع بحثي هذا ، هذه الوسيلة التي تقول بالاعتماد على الشعوب العربية ، والاعتماد على

وعيها وترجمة هذا الوعي اعمالا ثورية بغيـة تحقيق الدولة العربية الاتحادية ذات النظام الفدرالي .

ان باستطاعة القادة الثوريين العرب ان يصلوا الى غاياتهم السامية عن طريق الشعوب ، وهذه الطريق هي الطريق الوحيدة التي يتوجب علينا سلوكها وذلك لانها تحصر المعركة في رقعة ضيقة وتجنب القوى الثورية المخاطر والمغامرات الدولية.

لهذا يتوجب على الثوريين العرب ان يعدوا المناهج والبرامج لاضرام نيران الثورة المقدسة في كل اقليم يرفض حكامـه الانضمام باقليمهم الى الدولة العربية الاتحادية ذات النظام الفدرالي .

وعلى الثوريين العرب ان يتعجلوا في اعمالهم الثورية داخل الاقاليم وسبب هذه العجلة التي ادعو اليها وألح هو نشوء مصالح اقليمية ، وعن هـذه المصالح الاقليمية تنشأ طبقات عمال ونقابات عمال ومهنيين وحرفيين الى غـير ذلك من الطبقات الشعبية ، وهذه الطبقات الشعبية الناشئة عن المصالح الاقتصادية الجديدة ترى في اندماج اقليمها في الدولة الاتحادية تهديداً خطراً لمصالحهـا او بالاحرى ذوبان مصالحها وتلاشيها ، ولذلك فان هذه الطبقات الشعبية ان لم يتمكن الوعي الثوري في عقلها ، ويضرب الايمان بالقومية العربيـة بجذوره عميقا في وجدانها ، فعندئذ ستعمد هذه الطبقات الشعبية الى مساندة الحكم وتدعيم مشتقات هـــذه الانظمة بغية الابقاء على التجزئة والانقسام السائدين اليوم في الاقاليم العربيـة وبين الشعوب العربية .

هذه الحقيقة وهذا الواقع يضع الثوريين العرب في حلبة سباق والزمن .

د ـــ السياسة الخارجية :

قلت في أماكن كثيرة من كتابي هذا ان القومية العربية ليست بقومية عدوانية تؤمن بالعرق والعنصر ، وتستهدف توحيد الامة العربية في دولة اتحادية بغية تأسيس امبراطورية استعمارية عربية ، وقلت ايضاً في أماكن كثيرة ان القومية العربية قومية مسالمة تحب السلام غير أنها ترفض الخنوع وتأبى الاستسلام .

ونحن معشر القوميين العرب لانريد كما قلت ايضاً في كتابي هذا ان نجعل من القومية العربية قومية منعزلة عن بقية القوميات الاخرى ، وان نفصل الدولة العربية الاتحادية عن بقية الدول وأن نعيش بمعزل عن العالم . بل ان أهدافنا الاساسية تتمثل كلها في تحرير العالم العربي من الاستعمار ، وتوحيد الشعوب العربية في دولة اتحادية تنفعل وتتفاعل وبقية الدول الاخرى في العالم ، تتعاون وتتعاضد والامم الباقية لتدعيم الحضارة الانسانية قولاً وعملا وتنظم العلاقات الدولية على أساس من العدالة والحق .

من اجل هذه الاهداف وفي سبيل هـــذه الاهداف تشتعل اليوم الثورة القومية في العالم العربي .

١ ـــ رأس المال الاجنبي

اننا معشر القوميين العرب لانستطيع ان ننكر اننا في مرحلتنا الحالية ، وفي مراحل كثيرة مقبلة بمسيس الحاجة الى رأس المال والخبرة الاجنبيين ، ففي العالم العربي الغزير من الموارد التي لايمكن لنا استثمارهـا حاليا لصالحنا وصالح الانسانية مالم نستعن بالرساميل الاجنبيه وبالخبرة والتقنية الاجنبيتين . غير ان هذه الحقيقة لاتجعلنا نرحب برؤوس الاموال الاجنبية وبالخبرة الاجنبية دون مادراسة او حذر أو امعان . فلقد علمنا تاريخنا الطويل مع الاستعمار ان النفوذ الاجنبي والاستعباد الاجنبي كانا دائماً يتسربان الى بلادنا تحت ستار كثيف من دخان الوعود والعهود والمعونات والنوايا الطيبة . وهذه الحقيقة التاريخية هي التي تجعلنا احياناً كثيرة نتردد في السماح لرؤوس الاموال الاجنبية بممارسة نشاطاتها في بلادنا ، وتجعلنا نتلكأ او نرفض المعونات الاجنبية المشبوهة .

غير انني اقول بلسان كل قومي عربي اننا نحن معشر القوميـــين العرب نرحب من صميم فؤادنا بكل شخص او شركه أجنبية يريد او تريد ان تستثمر رؤوس اموالها في بلادنا ، وتتوخى من وراء ذلك اولا وأخيراً تحقيق فوائد ومكاسب اقتصادية واقتصاديه فقط .

ان سياستنا **ورأس المال الوطني** يوجهها المبدأ القائل بابعـــاد سيطرة رأس المال عن الحكم والحيلولة دون توجيه أجهزة الحكم في صالح الرأسماليين ، ومثل هذه السياسة من الاولى أن نعتمدها حين تعاملنا ورأس المال الاجنبي ونراقب تنفيذها بدقة وحذر وذلك للحيلولة دون تسرب النفوذ الاجنبي وعودة الاستعمار الى بلادنا . فنحن العرب نشكل أمة مرهفة الحس سريعـــة الانفعال متفجرة الاحاسيس تثور على كل عمل من شأنه أن يمس استقلالنا وحرياتنا او يهـــدد كرامتنا . « نحن أمة كما قال الرئيس جمال عبد الناصر نفضل الكلمة الطيبة على مليون دولار »

لقد تسرب رأس المال الاجنبي الى بلادنا منذ مده تزيد على نصف القرن واخذ ينشط ويجني المرابح الطائلة على اساس من الاستغلال البشع والاستثمار المجرم ، وكلنا يذكر واصحاب الشركات البترولية على وجـه أخص يذكرون انهم كانوا حتى التبديل الاخير للاتفاقات البترولية لايقدمون الى الشعوب العربية في الاقاليم المنتجة للبترول سوى النذر اليسير من عوائد البترول . وكان اصحاب هذه الشركات يحتفظون لانفسهم بالجزء الاكبر من الارباح .

اننا نعرف ان البترول صناعة معقدة وأنها بمسيس الحاجة الى رؤوس اموال ضخمة وخبرة فنية ، وهذه لاتتوفر في الوقت الحاضر في العالم العربي ، كما ونعلم ان السوق البترولية سوق محتكرة من قبل الشركات العالمية المنتجة للبترول ، وعلمنا بهذه الحقائق كلها يجعلنا ان لانقـــدم مستقبلا ونحن مختارين على تأميم شركات البترول العاملة في العالم العربي ، واذا اقدمنا في احد الايام على مثل هذا الاجراء فاننا سنقدم مرغمين ، ولن يرغمنا على اتخـــاذ مثل هذه الخطوات سوى محاولة الشركات البترولية اقامة تعاملهـا معنا على اساس من الاستغلال ، او محاولتهـا التدخل في شؤون بلادنا السياسية ، او انتهاج الحكومة التابعة لها هذه الشركات، سياسة تهدد مصالح الامن والمصالح لاقتصادية للأمة العربية .

انه لمن المؤسف ان بريطانيا خاصة ، تأبى حتى يومنا هذا ان تعترف بالقومية

العربية وتأبى أن تقتنع بان المشيخات المنتجة للبترول كالكويت وقطر والبحرين وغيرها من غير المنتجة للبترول ستنضم عاجلا أم آجلاً الى الدولة الاتحادية العربية الشاملة ان على بريطانيا ان تدرك تماماً وأن تؤمن ايمانا عميقـــاً بأن القومية العربية لاولن تهدد رؤوس الأموال البريطانية العاملة في منطقة الخليج العربي وعلى شواطيء البحر الاحمر ، وان كل ماتريده القومية العربية هو تحرير هذه المشيخات من النفوذ الاجنبي بغية فتح الطريق أمامها للانضمام الى الدولة العربية الاتحادية الشاملة ، وعلى بريطانيا ان تتأكد حتى اليقين ان القومية العربية ستحقق تحرير المحميات ، لهذا أرى أنه من صالح بريطانيا بالذات أن تعترف بالعملاق الذي استيقظ في الشرق الاوسط هذا العملاق المعروف بالقومية العربية فتقدم كما اقدمت في الهند على السماح بالتحرر للعرب من أبناء هذه المحميات ، وبذلك تضمن بريطانيا الأمن والطمأنينة لرؤوس الاموال البريطانية العاملة في صناعة البترول .

لقد أقامت بريطانيا وسيدتها الولايات المتحدة الاميركية الدنيا ولم تقعدها حتى الآن حينما أقدمت سورية ومصر على عقد قروض طويلة الامد لدى الاتحاد السوفياتي . وأخذت الدولتان الغربيتان الكبيرتان تنشران الدعايات الكاذبة والقائلة بان هذه القروض ستجعل من اقليمي سورية ومصر اقليمين شيوعيين يدوران في فلك الاتحاد السوفياتي ، غير أن ابسط مبادىء العدالة الانسانية ، وابسط دلائل حسن النية كانت تملي على الولايات المتحدة وبريطانيا على وجه أخص أن تتقدم الى سورية ومصر فتقول بانني مستعدة للافراج عن الارصدة الضخمة المجمدة في بنك لندن لحساب اخوانكم العرب في الكويت وقطر والبحرين كي تتمكنوا من رفع المستوى المعاشي للطبقات الفقيرة في كل من الاقليمين السوري والمصري ، وكي لاتحتاجوا الى الاقتراض من الاتحاد السوفياتي ، وكي تتجنبوا بالتالي الشيوعية .

غير أن القضية بالنسبة للغرب ليست قضية مبادىء شيوعية او غير شيوعية ، فالغرب يعرف حق المعرفة أن الشيوعية لن تلقى ارضاً خصبة في البلاد العربية . والغرب يرى بأم عينه أعمال رئيسنا المحبوب جمال عبد الناصر ضد الشيوعية ومكافحتها

مكافحة لاهوادة فيها أو لين ، لذلك فالشعوب العربية لها العذر كل العذر أن تؤمن وأن تقتنع بان العدو الحقيقي للدول الغربية كبريطانيا والولايات المتحدة ليست الشيوعية بل القومية العربية ، هذه القومية الثورية التي أخذت على عاتقها تحرير العالم العربي وتوحيده في دولة اتحادية عربية شاملة .

ان مئات الملايين من الجنيهات الاسترلينية مجمدة في بنك لندن اليوم لحساب أخواننا من أهل اقليم قطر والكويت والبحرين ولاشك ان اخواننا اولئك يرحبون بان نستثمر هذه الاموال الفائضة في مشاريع انمائية تعود علينا وعليهم بالخير والرفاه ، فاذا كانت بريطانيا حقاً صادقة في محاولة كسب ودنا ود القومية العربية فلتدلل على صدقها بانسحابها من المحميات والافراج عن الارصدة المجمدة لحساب المحميات كي يتمكن العرب من انشاء بنك عربي يمول المشروعات الانمائية في البلاد العربية غير المنتجة للبترول .

وختاماً أقول اننا نرحب برأس المال الاجنبي الذي يعتمد مبـــدأ التبادل العادل للمنافع بين سكان الاقليم الذي ينشط فيه وبين أصحابه شريطة ان يبتعد كل البعد على التدخل في شؤوننا السياسية .

٢ ــ الاتحاد السوفياتي :

لقد بحثت موقف القومية العربية في اسياسة الخارجية وبحثت الاسباب التي دفعت بالقومية العربية الى انتهاج سياسة الحياد الايجابي وذلك في صفحة ١١ و ١٢ من كتابي هذا ، غير ان واجب الصدق والوفاء يجعلني قبل انهاء كتابي ان ارفع عميق شكري وامتناني للاتحاد السوفياتي على مواقفه العظيمة من قضايا العرب في الحقل الدولي .

لقد أمدنا بالسلاح حينما رفض الغرب ذلك ، وأمدنا بالعون الاقتصادي عندما حاول الغرب بريطانيا وأميركا ان يبقيا الشعوب العربية في حالة من الفقر والاذلال وفتح اسواقه أمام المنتجات السورية والمصرية حينما اغلقت الاسواق الغربية امام

منتجاتنا لذلك فان للاتحاد السوفياتي اقول للاتحاد السوفياتي لاللشيوعية في قلب كل عربي رصيداً لايمكن ان يبدده أحـــد سوى الاتحاد السوفياتي بالذات . على هذا الاساس تقوم علاقاتنا كقوميين عرب والاتحاد السوفياتي ، فليست العقيدة الشيوعية هي التي تشدنا اليه بل انما افضاله وكرمه ومواقفه الكريمة ، والاتحاد السوفياتي يعلم حق العلم أننا كقوميين عرب لنـــا منهاج خاص بنا يختلف عن المنهاج الشيوعي وعقيدة خاصة بنا تختلف كليا عن العقيدة الشيوعية وأممية خاصة بنا تختلف في جوهرها عن الاممية الشيوعية ، ومع هذا وقف الى جانبنا موقف الصديق الكريم ولذلك فعلى دول الغرب ، وعلى الولايات المتحدة الاميركية ان تقتنع بانه لن يدفعنا الى دخول الاحلاف العسكرية ضد الاتحاد السوفياتي سوى الحقارة والخسة والنذالة ، والعربي قـــد يوصف بكل موبقة ماعدا أن يكون حقيرا اوخسيساً او نذلا هذه هي حقيقتنا وهذا هو واقعنا والاتحاد السوفياتي ، ومن له آذان للسمع من دول الغرب فليسمع !

٣ ــ العالم الاسلامي

نحن جميعاً معشر القوميين العرب نؤمن ايماناً صادقاً واكيد أبان العالم الاسلامي هو الرئة الطبيعية للقومية العربية ، ونؤمن بان القومية العربيـة لايمكن أن تتجرد عن الاسلام ديناً ونظاماً ، ونؤمن بان تاريخا طويلا يربطنا الى الشعوب الاسلامية والدول الاسلامية ، أما موقفنا اليوم من العالم الاسلامي أو بالاحرى موقف العالم الاسلامي منا فانه موقف غير المتفهم لقضايا العروبة الممثلة بتحرير الشعوب العربية أولا من الاستعمار الغربي ، وتوحيد هـــذه الشعوب في دولة عربية اتحادية .

لهذا نرى بعض الدول الاسلامية تريد منا أن ننضم الى الأحلاف الغربيـة وحكام هذه الشعوب يعرفون حق المعرفة بان جميع قضايانا معلقة مع الغرب ، في الجزائر مع فرنسا ، في المحميات مع بريطانيا ، في اسرائيل مع الولايات المتحدة

وبريطانيا وفرنسا معا .

كما ولاشك أن هؤلاء الحكام يعرفون تاريخ صراعنا المرير والاستعمار الغربي من بريطاني وفرنسي ، ولذلك فان الضمير الاسلامي في هؤلاء الحكام يجب أن يستيقظ ليدركوا اسباب رفضنا السير وفق المنهاج الذي يريدون لنا أن نسير عليه .

انني أقول للشعوب الاسلامية انني قومي عربي ، وكوني قومياً عربياً يجعلني أرى في كل مسلم أخاً لي ورفيقاً لذلك أريد من كل مسلم في العالم الاسلامي ان ينظر الي هذه النظرة وأن يتحسس بما انحسس وان يعرف بان اسباب دائي واسباب شقائي كعربي تعود الى الغرب الممثل ببريطانيا واميركا وفرنسا ، هذه الدول التي يريد حكامكم ايها الاشقاء المسلمون ان يدفعونا الى الارتماء في احضانها .

اننا نحن معشر القوميين العرب نعرف بان القومية تعطي العربي وطنا ولكننا نؤمن ايضاً بان الاسلام يعطيه عالماً كاملاً ، ونحن اليوم نريد ان نحرر وطننا لننطلق الى عالمنا وعالمكم ايها الاشقاء المسلمون فنلتقي معاً احراراً جسداً ، أحراراً روحاً وضميراً .

وختاماً اسرائيل ! فليسمع قادة هـــذه الدولة المسخ ، وليسمع زعماء الصهيونية العالمية صرخة قومي عربي يقول « لن يبقى لاسرائيل مكان في عالمنا ولن يبقى للصهيونيـــة موضع قـــدم في ارضنا ، سنسحق اسرائيل أطال الزمن ام قصر . ان شعارنا بالنسبة لاسرائيل سيكون كشعار القائد الروماني « فابيوس » لاتنسوا اسرائيل ! دمروا اسرائيل !

back

*PB-37348
5-20T
C-C

Date Due

Demco 38-297

PERMABOUND

NYU - BOBST
31142 02839 8322
DS63.7 .S5 al-Usus al-thawriyah

يصدر قريباً عن

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

للكاتب الكبير الاستاذ

احمد الشيباني

دراسات

في العقائد

عن

الاشتراكية الشيوعية الرأسمالية الفوضوية

الفاشستية الاسلام المسيحية اليهودية الصهيونة

كتاب لكل امة ولكل جيل جديد

تطلب مطبوعاتنا ومنشوراتنا من كافة المكتبات في ارجاء العالم العربي

دمشق : مطبعة الجمهورية

ثمن النسخة ٣٥٠ ق.س او مايعادلها